عبد الفتاح عبد المقصود

صليبية إلى الأبد



منشورات مكتبة العرفان
بيروت

صليبيّة إلى الأبَد

عبد الفتّاح عبد المقصود

منشورات مكتبة العرفان
بيروت

صليبية الى الأبد

ليست هـذه دراسة .ولكنهـا
لقطات خاطفة .. اطافة سريعـة
بالماضي والحاضر .. بالأحـداث التى
صنعت التاريـخ . بالرجـال الذين
صنعوا الأحداث .. بالقيم التي صنعت
الرجال ..

القسم الاول :

(١)

٢٠٦٠ ق . م

منذ أكثر من أربعة آلاف عام،وفي وصية وجهها إلى ولده، كتب الفرعون « نب كاورع » الملك المصري القديم :

« من رغب في السلم استعد للحرب » .

على أنه ، فيما بدا ، كان رجل سلام ، يؤثر المحاسنة على العنف ، والتفاهم على السيف في معالجة الخلافات ..

وقد أجمل رأيه هذا في عبارته :

« الكلام أفعل من الحرب .. وتعس هو الرجل الذي يسعى لقتال » ..

* * *

لكن الثابت أن الحروب سلعة رائجة . أو سلوك من البشر مألوف ..

وعندما يحلو لبعض قادة الدول، في ساعة اعتزاز أو اغترار، امتشاق الحسام، وإشعال نيران حرب مدمرة، نراهم دائماً يبررون ما يفعلون .. يظهرون مستظلين بالحق والعدالة .. يرتدون طيالسة دعاة !..

فعلى صليل السلاح، ومع دخان البارود، يتردد لهم شعار ينادي بمبدأ أمثل يعلنون النضال عنه . حوله تتآلف المشاعر، وبه تتوحد الآراء، وعلى جرسه يزحف الجنود، وتحت شعاعه يستضيء الطريق إلى النصر المنشود ..

فليس بالسلاح وحده، ولا بالكتائب، يكون القتال ..

ليس بالقوة القاهرة المادية، ولا بالقادرة على التحطيم والتدمير .

إنما المعنويات أيضاً قوة وقدرة . وأيضاً سلاح وجنود .

* * *

في كل الحروب منذ فجر التاريخ، كانت الشعارات أداة التبرير .. جواز المرور إلى إراقة الدم، ونشر الخراب، وصب الويلات ..

في الصليبيات :

« الصليب » كان الشعار ..

أوروبا العصور الوسيطة رفعته فوق الرؤوس، ورسمته على الصدور، رمزاً للمقدسات، فغدت به حملاتها كفاحاً عنيفاً دائباً،

يتبارى أبناؤها في خوض نيرانه بحماسة دافقة ، من أجل قيمة علوية ، هي الدين . المسيح . الله ! ..

في الحرب العالمية الأولى :

« السلام » كان الشعار ..

دول الحلفاء ، تنادت به قيمة مثلى ، تهز الضمائر ، وتحرك الهمم ، وتستنهض الأمم للمشاركة في النضال، بلوغاً إلى القضاء على الارهاب الحربي ، وإقامة العلاقات بين الدول على أساس عدالة القانون ، يكفل لكل شعب السيادة على أرضه ، وحقه الخالص في تقرير مصيره،واختيار أسلوب الحياة الذي يرضاه..

في الحرب العالمية الثانية :

« عالم واحد » كان الشعار ..

حلم البشرية الأبدي في عالم حر آمن كان الأغنية التي ترنم بها الدعاة .. عالم بلا فوارق . إخاء بين جميع الناس . بغير تمييز بين الأجناس ، ولا بين الأديان ، ولا بين المذاهب والمعتقدات ، قوامه إنسان متحرر من الخوف ، متحرر من الجهل ، متحرر من الجوع ..

* * *

قتال بالسلاح ، وبالشعارات .

هكذا كانت الحروب ، وستكون ..

لكنها لم تخل أبداً – في قيمها المعلنة – من خداع ..
من تلاعب بالعقول والعواطف ، وبالعبارات والألفاظ ..
من مغالطة وتضليل ..
وكانت – كثيراً – في نتائجها تسخر بالخـادع ، كما تسخر بالمخدوع !..

(٢)

١٩١٧ م

جهنم الحرب العالمية الأولى ما زالت مشبوبة السعير ..
القتال محتدم على كل الجبهات ، في ثلاث قارات ، في البر ، وفي الماء ..
النار تطوي المسافات .
السلاح يحصد الملايين .
الحلفاء تكاد تطاردهم الهزائم من مكان إلى مكان . والنصر يواكب خصومهم الالمان .
فالجيوش الالمانية الغازية على مشارف باريس .
والثورة البلشفية الوليدة في روسيا ، تصالح ألمانيـــا بعد عداء ، وتسحب قواتها من الميدان ..
والجبهة الإيطالية تنهار ..

* * *

على ساحة الشرق الأوسط ، فوق الأرض العربية وحدها، تلوح مسحة من التفاؤل ..

في الأفق المعتم تلتمع بارقة أمل ..

من بين الغيوم الكثيفة تتسلل ومضات شعاع ..

الآن تكاد تطالع العرب بشائر غد باسم .

غد سني الاشراق ..

بشمس بلا كسوف ..

بقمر بلا خسوف ..

يكاد يخايل خواطرهم « عهد عربي » جديد ..

« وطن عربي » واحد ، من الخليج إلى المحيط ..

« قومية عربية » خالصة ، تعيد إلى الحياة أمجاد الأجداد ..

« بعث »لتاريخهم الزاهر الذي بعثرته عواصف الخلافات..

أخيراً يلازم النجاح ثورتهم التي فجروهـــا من نحو عام ، بتشجيع الحلفاء ، فتمضي قدماً لتكتسح العثمانيين ..

يوشك أن يتقلص عن بلادهم ظل الأتراك ..

من الطغيان التركي استطاعوا أن يحرروا الحجاز ..

وأن يحرروا العراق ..

وأن يحرروا الشام ..

لكأنما كان يحفزهم آنذاك قول الشاعر السوري نجيب الحداد:

« آن الأوان لأن نخـــاطر بالدم
من لم يخـــاطر بالدما لم يسلم
أجزيرة العرب التي أحببتهـــا
كم من أكف قد رمتك بأسهم
لعبت أكف الترك فيك فغادروا
في كل قطر منك نهرا من دم »

وكأنما امتثلوا حكمة الرافعي الطرابلسي إذ قال :

« لا تصلح الدنيا ولا ناسهـــا
ما لم يـــل الأقوام أجناسها
هبوا بني العرب !.. إلام الكرى
وقد دها الآمال دهاسها ؟ »

* * *

بعد كفاح مرير شاق ، بالجهد والمـــال والدماء ، نفذ العرب اتفاقهم مع الحلفاء، وساروا حثيثاً لتطهير المشرق العربي من السيطرة التركية ..

« المقص » ! العربي راح يجز الجيش التركي : ذلك الجنـــاح الشرقي للجيوش المعادية للحلفاء ، ويمزقه ريشة بعد ريشة ..

الأيدي العربية « المناضلة » ! حفرت القبر ، ودفنت فيــه مئات الأعوام من مشاركتها الحضارية والوجدانية للدولة العلية ..

وها هم العرب ، في هذا العام الخطير من أعوام الحرب ..

ها هم أولاء ، بالصبر والكفاح والوفاء للكلمة ، قــد بروا بنصيبهم من العهد المعقود ، وفتحوا أمام الحلفاء الطريق واسعاً إلى النصر .. ولم يبقَ إلا أن يبر هؤلاء أيضاً بوعدهم، فيعترفوا بحق العرب – رفاق السلاح – في الحرية ؛ وبعروبة المنطقـة . وبوحدة التراب ..

* * *

وتناثرت في الأرجاء عندئذ علامات التعجب والاستفهام!..

علامة منها تقول :

هذه « الثورة » ! المندلعة منــــذ حول ، من قلب الجزيرة العربية ، وسط الرمال ، وعبر الوهاد والجبال، إلى أطرافها على البحر المتوسط في أقصى الشمال ..

ما هي ؟ ..

بمن ، ولمن ؟..

لماذا ، ولأين ؟ ..

اختلاجة في منام ، أم يقظة جديدة ؟..

في زي عربي ، أم عربية ؟..

« هاشمية » ، أم قومية ؟..

شخصية ، أم جماعية ؟..

لحساب « الحسين بن علي » شريف مكة ، أم لحساب الأمة العربية ؟..

* * *

علامة أخرى تسأل :

هذه الثورة، التي واكبت مصلحة حلفاء الغرب، وانخرطت في صفوفهم ومشكلاتهم على أرض المنطقة العربية ..

ما هي ؟..

ما ميزاتها ؟..

ما عناصرها ، وما مكوناتها ؟..

أهي تعبير صاخب عن التمرد على غشمية الحكم التركي القائم من بضع سنين ، والمناجز للعرب..أم هي حرب مدمرة لتقويض مبدأ « الخلافة الإسلامية » : تركية أو غير تركية ؟..

خطة مقدورة النتائج ، أم ضربة يائسة عفوية ؟..

غضبة واعية وطنية ، أم انفعالة نفسية عاطفية ؟..

لعبة سياسية سطحية ، أم هزة عميقة جذرية ؟..

ضرورة طارئة حربية ، أم حتمية لازمة تاريخية ؟..

* * *

علامة غيرهما تستفسر :

هذه « الثورة » ! التي انطلقت كإعصار ، تقتلـــع بقسوة وعنف جذور الحكم التركي من تربة أخلص أراضي الامبراطورية الإسلامية وفاء للوحدة الاسلامية ..

ما هي ؟..

ما نزعتها ؟..

ما مراميها الظاهرة والخفية ؟

أهي انتقام لشهـــداء العرب الأحرار ذوي الاتجاهـــات الاصلاحية الذين علقهم الحكام الأتراك : أعضـاء حزب الاتحاد والترقي على أعواد المشانق ، بلبنان وسورية ، أو تعقبوهم بالويل والعذاب في بقية البلدان العربية ؟..»

رد دموي على وحشية « الثالوت » الرهيب التركي : أنور — طلعت — جمال « الذي تسنم السلطـة في الدولة ، وساق أمامه شعوبها كالسوائم ، بسيف القمع والقهر والنكال ؟.. »

إثبات عملي لوجود القومية العربية في مواجهـــة سياسية « التتريك » التي فرضها عنوة وقسراً ، ذلك الثالوث وأعوانه السفاحون على العرب وغيرهم من شعوب الامبراطورية العثمانية ، اعتزازاً وصلفاً بنعرة السيادة ، وتعصباً للجنس التركي، وللقومية الطورانية ؟..

* * *

علامة أيضاً تتعجب :

هذه « الثورة » ! التي تبرز الآن ظفرها ونابهـــا ، وتنتمي لدولة بني عثمان الذين ورثوا حضارة العباسيين، وضموا القسطنطينية ،

وفتحوا نصف اوروبا ، ودقوا أبواب فيينا ، وصانوا تراث الاسلام ، وحملوا ضياءه إلى قلب الغرب، ورفعوا أعلامه عالية فوق قرني الشمس في مجاهل روسيا الشرقية والغربية .

ما هي ؟..

ما دعواها ، وما سلوكها ؟..

ما طريقها ، وما غايتها ؟..

أهي ابنة شرعية للاسلامية ؟..

موالية للوحدة الأم ، أم اقليمية ؟..

حركة لبعث الحرية ، أم نكسة انفصالية ؟.

* * *

وابتسمت الذئاب !..

ابتسم الحلفاء ..

وحق لهم ، بلا ريب ، الابتسام ..

وكيف لا ؟..

إنهم اليوم يرون جهودهم الدائبة لاحتواء « الشعب » العربي في جعبتهم ، تتدفق في قناة النجاح ..

يرون سياستهم : سياسة الغرب التقليدية — التي اختطها تعصب « الرجل الأبيض» الاوروبي منذ مئات الأعوام لتمزيق علم الاسلام — قد استطاعت أخيراً أن تبلغ مرماها، وتنقب جدار وحدة المسلمين ..

يرون ، على الصعيد الاسلامي ، قومية إسلامية تناهض قومية أخرى إسلامية .

فها هي ثورة مشبوبة ، تناجز دولة الاســلام الكبرى من داخلها ، وتضرب في وحدتها بسيف الانفصال ..

ها هي مكة ضد القسطنطينية ..

وها هي « إقليمية » تعادي « إقليمية » ..

ها هي « العربية » تحارب « الطورانية » ..

ومن وراء تلك الابتسامة الغربية الشامتة ، وقف التاريخ يتساءل :

أهذه شعوبيــة جديدة ، كشعوبيــة فارس وغيرها من الشعوبيات ، التي توالت على الزمن ، تنتقص من أطراف وحدة المسلمين ، وتبعثر قواهم ، وتفتت رقعــة أراضيهم باسم الولاء للقوميات ؟..

* * *

قلة قليلة من ابناء الشعب العربي استطاعوا، في تلك الآونة، أن يستشفوا في ثنايا هذه الحركة « الاستقلالية »! خطراً ساحقاً بهم أن يلتهم أمتهم ، فلا يدع لهم من وحدتهم الاسلامية القائمة آنذاك ، ولا من وحدتهم العربية المأمولة، غير ألفاظ جوفاء!..

تبينوها خطة « صليبية » مرسومة ببراعة خبيثــة لضرب الاسلام ..

تبينوها سياسة « غربية » لتمزيق الدولة العثمانية التي تتمثل فيها الوحدة الاسلامية ، بإثارة نعرة التشيع للجنس في نفوس فريقي شعبها الكبير : الترك انحيازاً لقوميتهم الطورانية ، والعرب اعتزازاً بقوميتهم العربية ..

ثم نبهوا إلى الخطر ..

لكن أصواتهم عزفت في صخب الهتاف الحماسي للاستقلال، وضجة التنادي بالوطن الممتد من الخليج إلى المحيط ..

حينذاك كتب شكيب ارسلان :

« فيا وطني لا تترك الحزم لحظة
بعصر أحيطت بالزحام مناهله
وكن يقظاً ، لا تستنم كمديده
ولا لكلام يشبه الحق باطله
وكيد على الأتراك قيل مصوب
ولكن لصيد الأمتين حبائله
تذكر قديم الأمر تعلم حديثه
فكل أخير قد نمته أوائله » .

لكن وطنه لم يذكر ما فات ..

ولم يتعلم دروس التاريخ !..

* * *

وكان ما كان ..

وقع ما شاءت صليبية الغرب أن يكون ، وخادن الحملان الذئاب !..

انخرط العرب في صفوف الحلفاء،وعبّدوا لهم أرض النصر.. إيماناً بوعد بريطانيا العظمى ، وتطلعا إلى غد مشرق جديد ..

لكنه كان إيمان المخدوع ..

وتطلع المتعلق بسراب ..

يقول فيليب ناتيلي وكولن سمبسون – في كتابهما « المخفي من حياة لورنس العرب » ، ترجمة ايلي لاوند وابراهيم العابد وهما يرسمان صورة هذا الجاسوس الانجليزي ، الذي عاش حياة أسطورية ، وكان المحرك الأول للثورة العربيـــة ، التي أشعلها شريف مكة : « الحسين » على الأتراك :

« .. .. إنه يُظهر أنه نصير العرب في كفاحهم من أجل التحرر ، والساعي إلى وضع حد للخصومــات فيما بينهم ، وإلى توحيدهم .. والحقيقة ، حسبما يتبين الآن من تقاريره ، هي أن مهمته الأساسية ، منذ بدء الثورة ، كانت تهدف إلى توثيق رباط العرب بالسلطة البريطانية ،وتثبيت انقسامهم بعضهم على بعض » ..

ثم ينقلان لنا عن لورنس هذا – الذي لقبته الثورة : « ملك العرب غير المتوج » ! شيئاً مما ذكره عن حقيقـــة مهمته ، في تقريره السري : « سياسة مكة » ، فإذا هي الحقيقـــة التي تفوق الخيال ..

بنص عباراته يقول لورنس في هذا التقرير :

« .. .. إن نشاط « الحسين » مفيد لنا ، إذ أنه ينسجم مع أهدافنا المباشرة وهي تفكيك الرابطة الاسلامية وهزيمة الامبراطورية العثمانية .. .. إن العرب هم أقل ثباتاً من الأتراك. فإذا تمكنا من التحكم بهم بصورة صحيحة ، فإنهم سيبقون منقسمين سياسياً إلى دويلات تحسد بعضها البعض ، ولا يمكن لها أن تتحد .. .. »

وبنص عباراته ، يعترف لورنس ، في كتابه : « أعمدة الحكمة السبعة » :

« كنت أرى أننا إذا انتصرنا فإن وعودنا للعرب ستبقى حبراً على ورق . ولو كنت مستشاراً مخلصاً، لكان علي أن أرد أولئك المحاربين إلى بيوتهم ، لا أن أدعهم يجازفون بأرواحهم لقاء تلك الوعود الكاذبة !.. إلا أن ثورة العرب كانت أداتنا الرئيسية للانتصار في الشرق .. .. »

ويزيد صراحة ، فيورد في نفس كتابه :

« .. .. وجازفت بالتضليل ، اقتناعاً مني بأن مساعدة العرب لنا كانت ضرورة لنصل إلىنصر سريع وقليل التكاليف على الجبهة الشرقية ، وأن النصر مع الاخلال بالوعد أفضل من الهزيمة !.. .. »

* * *

وتستمر الثورة ..
ويستمر التغرير !..
وينطلق الواعد الخادع مع الموعود المخـــدوع على طريق « التحرير » !..

على أديم فلسطين ينطلقان ..
الحملة العربية البريطانية تواصل ظفرها ..
تجتاح الحصون والمعاقل ..
تفتح المدن والثغور ..
تخترق الحـــدود وتحطم القيود ، وهي تعصف في تقدمها بقوات الدولة العثمانية ، لتدخل « أورشليم » القديمة بلدة السلام..
وينتشي العرب ، في مختلف الأقطار ، بأنباء النصر ..
وتبدو القدس لجيش الخلاص ، كأنها في حفل زفاف ..
في كل قلب بها فرحة ، وعلى كل شفة هتاف ..
موكب المنتصرين يجتاز المدينة الربانية ، مجمع الأنبياء ، في اعتزاز ..
على صدح الموسيقـا ، ترقص الأفئـــدة ، وتخفق البنود ، وتتحرك الجنود ..
والقائد البريطاني « اللنبي » يسير بحشود السكان المهلـلة ، وهو يؤم صفوف الموكب العسكري ، على صهوة جواد ..

* * *

لكن المشاعر التي اعتملت في صدره ، انعكس لونهـــا على محياه ، ليست من وحي اللحظة ، كما يلوح ..

ليست اعتزازاً بنصر ..

ليست إدلالاً بقوة ..

ليست طمأنينة إلى مصير ..

إنها ذخر نفسي من نوع آخر: فرح قديم دفين، يتفجر الآن!..

* * *

في تفاخر هو الكبر . وزهو هو البطر ، وثقة هي الغرور ، يصعر الرجل خديه ..

ينفخ صدره الذي ورمه التيه ..

يشد قامته التي مطها الاستعلاء ..

يحشو عينه بوهج الكراهية، ويرسم على فمه بسمة صفراء ..

ثم يرمي بنظرة صلف إلى المسجد الأقصى ، وقبة الصخرة ، وكنيسة القيامة ، وما إلى هنا وهناك من مواقع التراث الروحي الخالد ، ليقول في تجبر واستكبار :

« اليوم انتهت حقاً الحروب الصليبية » .

وينزاح عن صدره وقر مئات الأعوام ..

ويتنفس الصعداء ، أو يتنفس الخيلاء !..

بل لعله قد طاف ببصر ملؤه الاستهانة والامتهان، يكتسح بومضــــه جموع العرب الذين شاركوه الكفــــاح ، وشاركوه الانتصار ، وشاركوه الاحتفال !..

* * *

(٣)

١٩١٩ م

أخيراً يهدأ العالم ، وقد رفرف السلام .

صمت هدير المدافع ، ورنم هديل الحمام ..

مؤتمر السلام ينعقد في باريس ..

الرئيس الأمريكي ويلسون يصرح :

« أحد المبادىء الأساسية التي ترتكز عليها دائمــــاً سياسة الولايات المتحدة هو احترام إرادة الشعوب » .

ثم يُستقبل استقبال الأبطال ..

مبادؤه الأربعة عشر فتحت له قلوب البشر أجمعــــين حين بشرت بدنيا بلا حروب ..

بتمزيق قانون الغاب .

بالحرية لكافة الشعوب ..

بحق كل أمة في تقرير مصيرها بنفسها ، وفي الحيــــاة على

أرضها طليقة الارادة ، بغير وصاية ، بغير تبعية ،بغير استذلال وهي في أمان من العدوان ..

* * *

وولد ميثاق « عصبة الأمم » نتاجاً شرعياً من المزاوجة بين أحلام ويلسون ، وبين ذعر الشعوب من الارهاب الدموي الذي يهدد حضارة الانسان ..

وكان الميثاق وعداً بالجنة !..

فشيطان الحرب يجب أن يطرد بغير رجعة ، من القلوب والعيون والاذهان ..

السلاح لا بد أن ينزع ..

السلام ينبغي أن يرفرف على كل الناس ، في كل الأرجاء ..

المعاهدات ليست بإكراه ولا إملاء ، بل عن رضاء كامل ، وتكافؤ تام بين الأطراف ..

الخلافات الدولية يحلها التفاهم والاحتكام إلى القانون ..

وحتى تقر هذه المبادىء الكريمة في الأخلاد وتسود ، فدول العصبة جميعها يد واحدة على من قد تحدثه النفس بخرق هذا الناموس ، والالتجاء إلى ضغط القوة ، وعنف الاعتداء ..

* * *

وفي قاعة المرايا ، بقصر فرسايل ، اجتمع واضعو الميثاق.. فماذا كان ؟

ترنموا بالألفاظ بضعة أشهر وهم يراؤن ما شاءت المراءاة ، وفعلوا وأبرموا ما شاءت الأهواء ..

« كليمنصو » النمر الفرنسي ، يتنكر ويتنمر ..

« لويد جورج » الثعلب البريطاني ، يستأسد ويزأر ..

أما ويلسون ، فقد بدأ طريقه وهو صاحب دعوة ، ثم أنهاه وهو صاحب ادعاء !..

ووضعت مصاير الشعوب على مائدة المؤتمر كصحاف طعام بمأدبة ذئاب !..

لقد تغير الشعار ..

لم يعد : « الحرية لكافة الشعوب » بل أصبح الآن : «الويل للضعيف والويل للمغلوب !..

* * *

حتى العرب الذين ثبتوا على عهدهم للحلفاء وعاونوهم على إحراز النصر خانهم الحلفاء ..

حرموهم حقهم في ثمرة الكفاح ..

عاملوهم كما لو كانوا أعداء ..

مزقوهم أشلاء ..

تقاسموهم كأسلاب ..

منعوهم مجرد عرض مطالبهم الوطنية على المؤتمر ، وأوصدوا في وجوههم الباب ..

* * *

كمثـــال :

على نقيض ما كان يجب أن يمليه العهـد المعقود من ضمان استقلال البلاد العربية الصديقة ، أبت بريطانيـــا إلا أن توثق ملكيتها ، وملكية حلفائها الغربيين لهـذه البلاد ، وتجعل منها توابع ومناطق نفوذ ..

فالمغرب العربي كله للفرنسيين والطليان والاسبان ..

والمشرق العربي كله للانجليز والفرنسيين ..

* * *

كمثال أيضاً :

بنقيض ما نادى به مبدأ حق الشعوب في تقرير المصـير ، وما تدعو إليه حقائق التاريخ ومقتضيات الأوضـــاع ، أبت بريطانيا وحلفاؤها الغربيون إلا تمزيق الدول العربيـــة القائمة دويلات ، بدلاً من لم شتاتها في وطن واحد ، بحكم وحدة الأصل واللغة والدين والأمل والتاريخ .

فمصر وتونس تفصل عنهما بعض مناطق الحـدود ، وتنتزع عدة واحات ، لتوهب هدية للطليان .

السودان يوجه إلى طريق الانفصال .

ليبيا تقسم ولايات ..

الشام يمزق إلى سوريا والأردن وفلسطين ولبنان .

فلسطين تهيأ ليملكها شذاذ الآفاق اليهود ..

لبنان يفتت طوائف: سنة وشيعة وأرمن وموارنة وكاثوليك..

* * *

كمثال آخر :

الحماية البريطانية ما زالت مفروضة على مصر .

الأحكام العرفية العسكرية تكمم الحريات، وتشل الارادات

قوات الاحتلال تعربد وتعبث في البلاد بغير مبالاة ..

قادة الرأي في مصر ، يسارعون ، مع انقشاع غمة الحرب ، إلى المطالبة بحق وطنهم في الحرية والاستقلال ..

غير أن الدولة الغاصبة تقابل هذا المطلب الطبيعي العادل بالمماطلة والتسويف ..

ثم ترعد وتزمجر ..

ثم تشهر على رقابهم سيف الارهاب ..

ثم تحيل مصر كلها إلى سجن كبير ..

* * *

ويهب سعد زغلول ، في اجتماع عقده كبـــار ذوي النفوذ الانجليز ينادي جماعة الاقتصاد والاحصاء والتشريـع – فيبتدر المنبر ، ويفرض نفسه ، ويقحم رأيه في حديث لم يدع إليه .. رامياً بقفاز التحدي في وجه الامبراطورية التي لا تغيب عنها الشمس .

« .. .. أعلنت انجلترا حمايتها من تلقاء نفسها دون أن تطلبها أو تقبلها الأمة المصرية ، فهي حماية باطـــلة قانوناً .. وضرورة من ضروريات الحرب تنتهي بنهايتهـا ، ولا يمكن أن تعيش بعد الحرب دقيقة واحدة » ..

وتثور ثائرة بريطانيا ..

ولكنه لا يأبـه لغضبتها . فمصـير مصر ملك للمصريين . وصوت مصر لا بد أن يعلو فوق التهديد والارعـاد . وحرية مصر يجب أن تكون سطراً في اتفاقية السلام ..

ويكتب سعد إلى لويد جورج ..

يندد في كتابه بسياسة كتم الأنفاس التي انتهجتها انجلترا في مصر ، نقيضاً لشعار : « الحرية لكافة الشعوب » الذي رفعته هي والحلفاء :

« .. الامة المصرية بأسرها،من أكبر وزير إلى أصغر فلاح ، محبوسون داخل بلادهم،لا يسمح لاحد بالخروج من هذا الحصار الشديد .. .. »

ويذكره بتضحيات مصر،ودورها الايجابي في تحقيق النصر:

« .. انتفعتم في هذه الحرب برجالها وأموالها ، وصرحتم في مواطن شتى بأن ذلك كان من أكبر العوامل في تحقيق النصر .. .. »

ويعيب جحود بريطانيا الفضل وتنكرها للجميل :

« . وبينما مصر التي ساعدتكم تنتظر أن تعامل بما يتفق وحالها ، نراكم غداة الهدنة قلبتم لها ظهر المجن ، وحبستم أهلها بين حدودها على الذل والهوان .. .. »

وينادي بما للأمة – سياسياً وإنسانياً ، وبمقتضى قرارات الحلفاء – من حق ثابت في تقرير مصيرها ، ورسم مستقبلها :

« ..فهلا عاملتموها بما اتفقتم عليه مع الدكتور ويلسون!..»

ثم يكتب إلى ويلسون :

« .. .. مصر لم تقبل مطلقاً هذه الحماية التي ليست إلا من الاعمال الحربية .. إنها مناقضة لآمالنا في الاستقلال .. مناقضة أيضاً للحقوق التي كسبناها من تركيا من زمان بعيد.. .. وهذه الحرب أبعد من أن تضيق هذه الحقوق ، بل على ذلك توسع فيها إلى حد الاستقلال ، تطبيقاً للمبادىء الجديدة التي تقضي باحترام الجنسيات .. .. »

ثم يعلن :

« .. إنني أشهد كل حر على المعاملة المنافيــة للحرية ، التي عومل بها الوفــد المكلف بإسمــاع مؤتمر الصلح صوت مصر .. وأعلن أن كل حــكم في مستقبــل المصريين من غير أن تسمع أقوالهم ، مناقض لقواعد الحق والعدل التي جعلت أساساً لاحكام مؤتمر السلام .. .. »

ثم يكتب إلى كليمنصو رئيس المؤتمر :

« مهما يكن من الاتفاق المزعوم حصوله على المسألة المصرية ، فإن الحكم في مصيرنا من غير أن تسمع أقوالنا مناقض لمــا اتفق عليه جميع الحلفاء .. الانسانيــة تأبى أن تكره الامم على أن تنتقل من يد إلى يد أخرى كما تنتقل ملكية السلع !.. »

لكن إنسانية الحلفاء لا تأبى ..

المؤتمر ، على مائدة السلام ، يمزق « الشعار » ..

ويلسون يبتلع مبادئه ، وهو خادع أو وهو مخدوع !..

الدول المنتصرة تتقاسم الارض العربية ..

تلتهمها فريسة شهية ..

فكذلك طبيعة الذئاب !..

* * *

(٤)

١٩٢٠ م

العرب تستحقهم الخديعة ..

بعضهم يلوك العلقم .. ويصبر على مره .

بعضهم يثور ، ويدفع الثمن ضحايا عزيزة يلتهمها نكال الاستعمار :.

* * *

وفي بقعة من الوطن العربي ، شعب قد آمن حيناً بفلسفة أبو الحريات ..

وصدّق وعد الحلفاء ..

وهمّ أن يعيش حياته — كالوعد — وكما شاء ..

فما يكاد يبدأ ، حتى تدهمه داهمة قاصمة ..

جيوش مغيرة تباغت أراضيه ..

تنقض انقضاضاً على استقلاله الوليد ..

* * *

ويفتح السوريون أعينهم ، على القوات الفرنسية ، صديقة الأمس ، وهي تغدر بهم ..

تغزو بلادهم ..

تحطم قوتهم العسكرية الناشئة ، في « ميسلون » .

تسقط الحكم العربي الوطني ..

تمزق حرية رفاق أمس القريب ، كأنما لم يكن عهد ، ولم تكن رفقة هدف ، ولا رفقة سلاح ..

* * *

ويخترق « جورو » القائد الفرنسي الأبتر ، دمشق العاصمة الحزينة ، بموكب يسبح على الدماء والدموع ..

يدوس أشلاء شرف الوعد الغربي ..

يمشي على حطام صداقة الأصدقاء ..

ثم يمضي الرجل مزهواً ، بركبه العسكري ، نحو مثوى السلطان الناصر صلاح الدين ..

وبقلب مقروح ، وصدر مغلول ، وعين يملؤها الحقد ، يتقدم وهو مشتعل الغضب إلى القبر ، حتى ليحسب الناس أن ذلك الثاوي فيه هو الذي فصل عن جسده ذراعه المبتور !..

بأقصى ما تستطيع أن تصوغه كراهية ، وتفرزه شماتة ، يفح الأبتر فحيح ثعبان ، وهو يخاطب البطل العربي ، الراقد حياله في هدوء وسلام رقدة الموت بالضريح ، ويقول :

« ها نحن أولاء قد عدنا يا صلاح الدين !.. »

وترتفع راية الاستعمار ..

ويسخر الغدر من سذاجة العرب ..

يسخر من المخدوع المغلوب .

ولكنه يزدري الخادع الغالب ، ملء الازدراء !..

* * *

ويثور سؤال :

لماذا عسى قال القائدان ، اللنبي الانجليزي، وجورو الفرنسي ما قالاه ؟..

يعجز الواقع عن التبرير .

وتحار العقول في الجواب .

فما كان الأول في صفوف الصليبيين .

وما حارب الثاني صلاح الدين ..

وكيف .. وقد مضت على الحروب الصليبية قرون ؟..

وغاب الناصر صلاح الدين إلا من الذاكرات !..

وتقدمت البشرية نحو ألف عام إلى الأمام ؟..

* * *

ومع هذا كله ، فقد آثر اللنبي وجورو أن يكونا صليبيين من القرن الحادي عشر يعيشان في قلب القرن العشرين ..

ولا عجب !.. فالاناء ينضح بما فيه ..

إنهما حقاً صليبيان .

بالعقل والقلب والجارحة صليبيان ..

طبيعة العرق فيهما ، ودمـــاء الاسلاف ، طغت على هوة الزمن ، ومد التقدم الحضاري ، وقيم الانسانية ليعودا القهقرى إلى الوراء ..

ليعيشا حياة الجاهلية الأوروبية العمياء ..

ليسلكا نفس مسلك الأجداد الذين سلوا قبلهـــم – تعصباً وعنتاً – صليب المسيح للقضاء على العرب والمسلمين ..

ليتنكرا لمثل الأخلاق، ومكارم الفروسيـــة وان حسبا ، وحسب معهم الأسلاف ، في عداد الفرسان !..

* * *

وها هما الآن،أمام نظرة الحق والخلق والتاريخ عاريان!..

فالقائد البريطاني : اللنبي ، يصدر في سلوكه حين النصر ، عند دخوله بيت المقدس ، عن تعاظم وغرور ، وليس بالتعاظم ينبغي أن يستقبل النصر ، ولا بالغرور ..

إنما بالتواضع والشكر والعرفان ..

هكذا يحتم النبل، وبه تقضي قواعد الخلق الرضي ،ومناهج السلوك السليم ، وإنسانية الإنسان ، أي إنسان ..

وقديماً ، دخل العرب هذا الإقليم ، منذ ألف وثلثمائه عام..
وكان لهم على نفس البقعة المقدسة موقف ..
فكيف كان ؟..

* * *

(٥)

١٥ هـ .
لا « حاكمية » للبشر ..
لا ربوبية للانسان الحاكم يستعبد بها الانسان المحكوم .
إنما عبودية الناس لله ..
الاسلام غيّر الفكر البشري ..
حرر المخلوق أن يذل لمخلوق ..
وهج تعاليمه أحرق الطغيان ..
جبروت الأكاسرة والقياصرة جثا على ركبتيه تحت أقدام العقيدة الجديدة ..

الامبراطوريتان الجبارتان ، اللتان تقاسمتا العالم قروناً طويلة ، تهاوت كلتاهما ، في بضع سنين ، أمام قوة الاسلام ، كبيت من ورق في هبة هواء !..

* * *

اجتاح المسلمون امبراطورية فارس ..

اجتاحوا امبراطورية الروم ..

وفيما حرروا من تحكم البشر في البشر ، حرروا الشام ..

وفيما حرروا من مدنها حرروا مدينة القدس : « ايليـــاء » القبلة الأولى للاسلام ..

ولم يبطرهم النصر السريع الذريع الذي أحرزوه .

ولم تسكرهم نشوة الفتح المبين الذي لم تحقق مثله دولة قبلهم في التاريخ .

وعندما أقبل أميرهم : عمر بن الخطاب ، ليتسلم البـــلدة المقدسة ، كان يمشي إليها في خضوع وتواضع ، كأنما يمشي على استحياء .

وعندما استقبله على الطريق بعض قادة أجناده ، على الهيئة التي رأوها تليق باستقبال رئيس ، وقد امتطوا الخيل، وارتدوا فاخر الثياب ، ثار على ما بدا من ترفهم ثورة شديدة ، وقفز عن راحلته ، يلتقط الحجارة والحصباء من الأرض فيقذفهم بها وهو يصرخ فيهم :

« ما أسرع ما لفتم عن رأيكم !.. ما أسرع ما ندت بـكم البطنة !.. أإياي تستقبلون في هذا الزي !.. »

* * *

ثم مضى إلى وجهته ..

وأحس وهو يقترب من باب البلدة أن الدابـة التي يمتطيها ، تتبختر في سيرها وتتشامخ ، فترجل عنها من فوره خشية أن أن تغريه حركاتها بالاغترار .. وانطلق يطوي المسافة الباقيـة على قدميه ..

واعترضته أثناء سيره مخاضة ماء ، فلم يأنف أن يخلع نعليه، ويحملها على عاتقه ، ويمسك بزمام دابته يجرهـــا وراءه وهو يخوض حافياً الماء والطين ..

بل لعله خلع نعليه عندئذ تأدباً وإكبارا للمكان المقـــدس الذي كان يسعى إليه ، أسوة بما فعل موسى الكليم وهو يسعى، بوادي طوى ، إلى النار حين سمع منها نداء الله !..

وكأنما هذا المسلك من عمر لم يعجب ابا عبيدة بن الجراح ، قائد جيش المسلمين الفاتح إذ خشي أن يدفـع الروم إلى تحقير أمير المؤمنين وهم يرونه على هيئته تلك التي لا تكون من الحكام والملوك .. فقال :

« يا أمير المؤمنين .. أأنت تفعل هذا !.. مـا يسرني والله أن أهل البلدة استشرفوك !.. »

فغضب عمر أشد الغضب من كلام صاحبه..وعنف به يلومه :

« لو قال هذا غيرك يا أبا عبيدة،لجعلته نـكالاً لأمة محمد!.. إنا كنا أذل قوم ، فأعزنا الله بالاسلام . فمهما نطلب العز بغـير ما أعزنا الله ، أذلنا الله !.. »

فالناس جواهر وليسوا بقشور ..

وسلوكهم ينبغي أن يكون صـــدق التعبير عن المبادىء الرفيعة – وليس مجرد طلاء زائف ، ومظاهر جوفاء ..

ويمضي أمير المؤمنين ، الذي كان يمسك عالم ذلك الزمان ، من طرفيه ، بيمنى يديه ، ليكمل شوطه في هدوء ، وهو خاشع القلب ، خافض الجبين ..

ثم يسجد في محراب داود ، يصلي شكراً لله ..

* * *

والقائد الفرنسي « جورو » يصدر في سلوكه أمام قبر صلاح الدين ، عن غدر فاضح ، وشماتة خسيسة ..

غدر .. وليس بالغدر يجزى الصحاب ..

وشماتة .. في مقام يعف فيه أي إنسان عن التشفي وإعلان البغضاء ..

ألم يكن أولى بجورو ، استجابة لشرعية الخلائق الانسانية السوية ، وأمام هيبة الموت وجلاله ، أن يتمثل بمثل مـــا قاله أمير الشعراء :

« أيها الساكن في ظل الردى نم طويلاً قد توسدت الزهر
كل محمـــول على النعش أخ لك صاف وده بعد الكدر
إن تكن سلماً له لم ينتفع أوتكن حرباً فقدفات الضرر »؟

* * *

بلى !..

« لا شماتة في الموت » .

فالموت يحسم الخلافات ، ويمسح العداوات .

في مشهد من « مصرع كليوباترا » يجسد لنا شوقي هذا المعنى، بروح الشرقي المؤمن بإنسانيته،المترفع بخلقه عن دنس الأحقاد..

كان الخلاف في روما قد نشب بين عاهليها الكبيرين : أنطونيوس وأكتافيوس ..

وانتصر أكتافيوس .

وانتحر أنطونيوس .

ومع ذلك فالشاعر ، بروح الشرقي العربي ، لم يرَ النصر يبطر المنصور أو يملي له في التشفي من غريمه الصريع ..

إنما يراه أولى بأن يشحذ إنسانية أكتافيوس ، ويدفعه في أسى وحزن يندب غريمه ، ويودع جثمانه بتحية إكبار :

« لقد حسم الموت ما بيننا   وغض اللجاج وفض النزاع
فمن حقي اليوم ، بل واجب   علي أقدسه أن يضاع
أقبل ما قبل الغار منك   وأهتف : انطونيوس الوداع »

* * *

موقف كريم يليق بكريم ، كان أولى بالقائد الفرنسي جورو أن يحتذيه في وقفته تلك ، عند قبر صلاح الدين ..

على الأقل ، توقيراً لهيبة الموت ..

على الأقل ، عرفانا بجميل العرب ، أولئك الأصدقاء الذين لما تبرد دماؤهم التي أراقوها في نصرة الحلفاء ..

* * *

غير أنه عسير العسر كله ، فيما يلوح ، أن ينتظر من جورو سلوك نفس سلوك أكنافيوس ، في هذا المقام ..

عسير كمحال ، أو هو المحال ..

فالقياس مع الفارق ..

سماحة الغربي مع غريمه الغربي قد تحق ، أو قد تكون . ولكنها مع الشرقي تحرم ولا تكون ..

انطونيوس إنسان غربي ، واجب تكريمه ، حتى وهو مدحور ..

وصلاح الدين إنسان شرقي ، حرام تكريمه ، حتى وهو منصور ..

فهذه هي شرعية الغرب التي يمتثلها الغربيون ..

وطبيعة العرق في جورو تؤكد هذا المفهوم ..

ولم لا ؟..

ألم يقل رديارد كبلنج ، شاعر الامبراطورية والاستعمار :

« الشرق شرق ، والغرب غرب ، ولن يلتقي الاثنـان إلا أمام عرش الديان » ؟..

* * *

ما كان أي القائـدين ، اللنبي أو جورو ، ليتعفف فيكتم استهانته بالعرب ، وشماتته فيهم – ولو إلى حـــين – مجاملة ومداراة ، إن لم يكن عن وفاء وتقدير ..

فالانسان الصليبي في كليهما هو الذي يتصرف .. واللسان الصليبي هو الذي يقول :

بنظرة الغرب :

كل عربي شرقي ..

وكل غربي صليبي ..

كل عربي واتر ، وكل غربي موتور !..

وإذن ، فلا لقاء !

* * *

ولقد بدا أحياناً كأنما لهذه « القاعدة » بعض الشواذ ..

مثلاً : الامبراطور غليوم عاهل الألمان ..

في مستهل القرن العشرين ، زار هذا الكبير الغربي مثوى صلاح الدين ..

وهزته الذكرى ..

لكأنما استروح العظمة وصفاء النفس و كرم السجايا في سيرة البطل العربي العطرة ، فاندفع يتحدث عنه حديث إجلال وتعظيم . .

وأعجبت شاعرنا شوقي هذه اللفتة الكريمة من غليوم ، لأنها تنم عن أريحية خلق ، فسجل هذا اللقـــاء التاريخي في شعر يقول فيه :

« عظيم الناس من يبكي العظاما ويندبهم ولو كانوا عظامـــا
وأكرم من غمام بعد محـــل فتى يحيي بمدحته الكرامـــا
رعاك الله من ملك همـــام تعهد في الثرى ملكا هماما . . »

لكن « القاعدة » الغربية تقطع على الشاعر استرساله ، فلا يلبث أن يتحفظ ويستدرك وقد خامره الشك في صدق الشعور الذي ند عنه سلوك غليوم . . فإذا هو يكمل القصيدة وهو مستريب :

فلما قلت ما قد قلت عنــه وأسمعت الممالك والأنامـــا
تساءلت البرية ، وهي كلمى : أحبا كان ذاك أم انتقاما ! . .

* * *

القسم الثاني :

(١)

١٠٩٩ م

رجعة إلى الوراء في الزمن .

إلى ما قبل تسعة قرون ..

إلى الآباء الأوائل والأجداد الذين انحـدر من أصلابهم اللنبي وجورو وأمثالهما من رجال الغرب الطغاة ..

إلى الحملة الصليبية العاتية التي شنهـا الغرب على الشرق باسم الصليب .

فعلى الطريق الذي شقه قادة هذه الحرب الحاقدة سار الأبناء..

ثم سار الأحفاد ..

ثم تسير إلى اليوم ، وإلى الغد ، سلالاتهم لسحق العرب ، وإطفاء نور الاسلام .

* * *

ها هو « جودفري دوبويون » دوق لورين وسليل شارلمان ، يدخل بجيوش اوروبا الجرارة ، التي يقودهـا الأمراء والنبلاء والفرسان من كل دولة ، الفردوس الموعود ..

في عزمه وعزم السادة رفاقه تخليص الأرض المقدسة وقبر المسيح من يد العرب « الكفار » ! قضاء على الاسلام ..

في بال جنوده رهبة من المسلمين ، ترج قلوبهـــم ، وتزلزل خطاهم ، وتؤخر دائماً زحفهم إلى الأمام ..

فما نسوا ما أصاب إخوانهم الذين سبقوهم على الطريـــق من بضع سنين ..

ما نسوا كيف تمزقت الحملة السابقة التي قادهـــا بطرس الناسك ، وجوتيه المعدم ، وجود سكال ، وغيرهم من رعـــاة الكنيسة ، على الأرض التركية وهي تحاول أن تشق طريقها في بيزنطه إلى فلسطين ..

ما نسوا المعركة التي انتهت بهزيمة ساحقة ، على مقربة من « نيقية » وفرشت أرضها بثلثمائة ألف قتيل ..

* * *

ألم يُسجَّل صك ملكية المسيحية لهذه البقاع ، ويوثق منذ ألف عام ، بما أريق عليها من دم المسيح المصلوب ؟..

تلك نظرة القوم !..

* * *

وتتقدم الجيوش الصليبية الجرارة على اطمئنان وثبات ..
منحدرة على الساحل السوري ، ومعززة بالأساطيل ، حتى تبلغ قلب فلسطين ..

وتندفع قوةمن أربعين ألف صليبي إلىبيت المقدس،لتعصف به وتنتزعه بعد معركة بطولية خاضها ببسالة ألف مصري كانوا كل قوة الدفاع .

وتقوم في الشرق العربي ، في سويداء قلبه ، دولة صليبية ، تهدد كيانه ، وترميه فريسة للقلق والمذلة والحزن مائتي عام ..

وكان « حقاً » لسليل شارلمان أن يحتفل بهـذا النصر . وللغرب كله أن يرقص على أهازيجه ..

* * *

وأقيم الاحتفال ..

على سنة الغرب أقيم، أسبوعاً كاملاً،وصفه المؤرخ المسيحي، ابن العبرى ، فقال :

« لبث الفرنج في البلد أسبوعاً يقتلون المسلمين » ..

أسبوع النصر ، أم أسبوع النحر ؟..

ووصفه صليبي آخر ، فقال :

« كانت جنودناوخيولناتخوض حتى السيقان في نهر الدم»!..

وكتب جيبون :

« خدام رب المسيحيين رأوا حينئذ تمجيده وتكريمـه ،

فذبحوا سبعين ألف مسلم من أهل القدس ، من الرجـال والنساء والشيوخ والأطفال ، قرباناً للرب » !..

أكد هذه النزعة « الدينيـــة » مؤرخ الكنيسة فلوري ، حين قرر :

« المسيحي الذي يبيد أعداء دينه ، لا يخرج عن نطـــاق الايمان..لأنه بفعله هذا،إنما ينحر القرابين ويقدمها إرضاءلله»!..

* * *

وخشي الكهنة ورجال الدين في الحملة الجديدة ، مغبة هذا الكابوس الذي زرع الهلع في نفوس الجنود ، وجمـد مسيرتهم ، وأوشك أن يحملهم على النكوص دون الاقـدام ، وعلى الفرار قبل اللقاء ..

كان لا بد من « إثارات » تهيج المشاعر المدفونة تحت أطباق الخوف لتتحرك ، وتتفاعل،وتنفجر من عقالها كحمم البركان..

كان لا بد من « دعاية » تبث الثقة ، وتقوي العزائم، وتحمز التعصب ، وتخايل بالنصر ، وتدفع الجنود إلى البذل والفداء ..

وعلى الأثر خف الكهنة وقـــادة الرأي والألوية في الجيش المذعور إلى تحضير الدواء !..

* * *

وتوالت بعد هذا « الشائعات » ..

وتحولت رويداً رويداً إلى « أخبار » .

وتنقلت من فم لأذن حتى امتلأت بها جميع الأفواه ، وجميع الآذان ..

وبما للشائعات من قوة ذاتية ، وقدرة على النمو ، تطورت إلى حقائق يقينية لا تعتورها الشكوك ..

وبما للأخيلة من شطحات ، أصبحت هذه الروايات السمعية روايات شهود عيان !..

فالسيد المسيح تجلى هنا وهناك لأولئك وهؤلاء مبشراً الحملة بنصر أكيد !..

والسيدة العذراء ، أم الآله ، ظهرت مراراً تعد الغواة غفران كل الخطايا ، وحياة الأبد والخلود ؟.

وعندما انتعشت النفوس ، نشر الدوق بين الجنود أنه طالب الخليفة الفاطمي تسليم الأرض التي اغتصبها المسلمون ، أو يصيبه وقومه النكال ..

كتب إليه :

« أتباع محمد كلهم غاصبون لفلسطين وأورشليم ..

لقد وجب قتلهم وطردهم .. فعليهم أن يجلوا عنها وعن الأماكن المقدسة ، لأن الله جعلها ملكاً خالصاً للمسيحيين » ..

وكيف لا ؟..

(٢)

١١٩١ م

الحروب الصليبية ما زالت مستمرة منذ مائة عام ..

بروح الكراهية والحقد الذي بـــدا في القرن العشرين من اللنبي الانجليزي وهو بالقدس عند قـــبر المسيح ؟ ومن جورو الفرنسي وهو بدمشق عند قـــبر صلاح الدين ، شن الأسلاف الغربيون حملات التعصب الأعمى ، قتلا ودمارا ونكالا ، على العرب والمسلمين .

هذه هى الحملة الصليبية الثالثة : حملة الملوك ..

ملك صقلية النورماني ، وليم الثاني ، يستهلهـــا بأسطول يبحر إلى الموانى السورية ..

ملك ألمانيا ، فريدريك باربروسا العجوز ، يخرج من بلاده بمائة ألف جندي ، متجهاً بهم عن طريق آسيا الصغرى ، إلى الشرق العربي ..

ملك فرنسا ، فيليب أوجست ، ينطلق بجيوشه الضخمــة من غرب أوروبا إلى فلسطين ..

ملك انجلترا ، ريتشارد قلب الأسد ، لا يلبث أن يلحق ، على رأس قواته الانجليزية ، رفيقه الفرنسي بمدينة عكا ، بعد قليل ..

ومعهم يزحف ، بجيوش جرارة ، ملوك الممالك والامارات

الصليبية ، التي تنـــاثرت على أديم الوطن العربي ، بين البحر والفرات،وغرست فيه دعائمها كما تغرس المسامير في جسد مصلوب !.

* * *

ويفجر الغزاة البراكين ..

فرق تتقهقر ، وفرق تتقدم ..

جحافل تتمزق ، وجحافل تلتئم ..

الحرب آنا في مد ، وآنا في جزر ..

والسلطان صلاح الدين ، راسـخ اليقين ، دائب الحركة في ميادين القتال ، يدور مـــع الجيوش الصليبية ، مدافعـــاً أو مطارداً ، حيثما تدور ..

وعندما يبلغ الأعياء بقوات العدوان مداه، يبعث ريتشارد قلب الأسد قائدها الأكبر ، إلى السلطان :

« إن المسلمين والافرنج قد هلكوا ، وخربت البلاد،وتلفت الأموال والأرواح ، فهلم إلى صلح نستريح به من هذا البلاء الذي لا تبدو له نهاية » ..

فيوافقه صلاح الدين .

لكن ريتشارد يشترط :

« ويكون القدس لنا » ..

فيرد الملك المسلم ، بمنطق الحق ، ومنطق التسامح الكريم ، الذي لا يفرق بين عنصر وعنصر ، ولا بين دين ودين :

« القدس لنا كما هو لكم » ..

وكأنما حسب زعماء الصليبية وفرسانها سماحة البطل ضعفاً ، فازدادوا استكباراً ..

قالوا لقائدهم :

« وهل جئنا من بلادنا إلا للقدس ؟ . كلا . لن نرجع أبداً إلا إذا استعدناه » ..

ويصر ريتشارد كإصرارهم ، فيرسل إلى السلطان :

« إنما القدس مناط عبادتنا ، فانزل عنه .. لن ندعه أبداً لك ، ولو لم يبق منا إلا رجل واحد يحارب عليه » !..

* * *

ولم يكن هذا غريباً من القوم .

ففي أسماعهم كانت تتردد ، من وراء مائة عام ، دعوة البابا أوربان الثاني في كليرمونت ، وهو يهيب بأوروبا الكاثوليكية أن يهب أبناؤها جميعاً للحرب المقدسة . حرب الله :

« أيها الرجال الشجعان .. اذكروا عظمة شارلمان !.. اذكروا ملوككم الأجلاء الذين حاربوا الكفار !.. اسلكوا سبيل أسلافكم الأمجاد إلى قبر المسيح ، وانتزعوا الارض المقدسة عنوة من يد الشعب الملعون » !..

وفي وجدانهم كان قد قر ، من خلال الاجيال ، تلويحه لهم بحياة الملكوت وجنة عرضها الارض والسموات :

« غفران كل الخطايا ، وحياة الابد والخلود ، نصيب خالص رباني لمن يفدي بنفسه البقاع المقدسة ، ويروي ثراها الطاهر بدمه المسفوك » ..

ونصب عيونهم كان يتراءى ذلك الشعار الذي تبناه البابا ، ورفعه علماً على قدسية القتال :

« ديوس لو فولت : هكذا الرب يريد » !..

ومن سيرتهم كانت تفوح رائحة الدم الذي رسموا ، بلونه القاني على صدورهم ، علامة الصليب ..

* * *

ثورة عنيفة من الكراهية والحقد شبها الغرب الصليبي ناراً مدمرة ، على الاسلام .

منذ بدء الشروع في الدعوة لهذه الحملات ، والكهان والرهبان والاساقفة يطوفون أوروبا : دولة دولة ، وبلدة وبلدة ، وركناً ركناً ، لتحريض الناس ، حشداً للجند ، وجمعاً للمال ، باسم الصليب ..

يغررون بالجماهير .

يحرثون الصدور لغرس البغضاء .

يبثون السموم في القلوب والعقول ، ويملأون بالتعصب العيون . .

يحرقون الجسور بين دين ودين . .

يعيدون إلى الحياة مأساة قابيل وهابيل !. .

* * *

على مدى الاعوام لم يخفت لهم صوت ، ولا أعوزتهم وسيلة لتأليب الناس على المسلمين وان ركبوا إلى غايتهم هذه — وباسم دينهم — كل منكر ومحظور . . فإذا حقهم باطـل ، ودعوتهم ادعاء ، ودعواهم افتراء . .

زاعمون منهم زعموا أن هارون الرشيد قد سلم مفاتيح بيت المقدس للملك شارلمان إقراراً صريحاً منه ومن المسلمين بملكيـة المسيحية للأرض المقدسة بالشرق. الارض التي نبت فيها المسيح . .

آخرون قالوا أن رؤيا مقدسـة ، اوحى بهـا إليهم الله ، أطلعتهم على الرمح ، الذي طعن به مخلصهم وهو يفدي الانسان مدفوناً بإنطاكية . . فخذوه أيها المؤمنون . وارفعوه علماً لكم في هذه الحرب الالهية . . « ولسوف يمرق فيصيب روح أعدائكم المسلمين الملاعين » !. .

غيرهم نذروا — ودعوا رعاة الكنيسة ورعاياهـا — أن يعيشوا حياة شظف وحرمان ، حتى تحين للأمة المسيحية ساعة الخلاص . .

وبعضهم رفعوا صورة عربي يضرب رجلاً بعصاه ، ويهرق دمه .. مكتوب عليها: « محمد نبي المسلمين،يقتل يسوع المسيح».

جميعهم أهابوا بأهل اوروبا : « أتدعون الصليب يجثوا ذليلاً تحت قدمي الهلال » !..

* * *

وألوان عجيبة شتى من المفتريات لفقوها للإثارة والتحريض.

فالناس في رأيهم اثنان .. نقيضان لا يلتقيان ..

عدّوان :

غربي ، يجب أن يعلو ويظفر ويسود ليعيش ..

وعربي ، يجب أن يهبط ويقهر ويذل ويموت ..

فحياة الثاني هي موت الأول . فكيف تصبر اوروبا وليس لها مع الصبر غير الهلاك ؟..

الدنيا أضيق أن تسع هذا إلى جوار ذاك ..

* * *

واندلعت الحروب الصليبية ، موجات وراء موجات .

من كل مكان بأوروبا، أخذت ويلاتها تسرح على أرض الشرق العربي كالطوفان .

حملة بعد حملة .

قوات من كل القوميات .

مئات الألوف من الجند والكهنة والفرسان ، يقودهم ملوك وأمراء ، تتلو مئات الألوف .

بغضاء مسعورة .

سلب ونهب ، وقتل بلا حساب .

نكال وعذاب ، ودمار وخراب .

لا لعام واحد. ولا لبضعة أعوام.بل لعدة أجيال استغرقت مائتي عام ..

* * *

(٣)

١١٩٢ م

عام يمر على حملة الملوك ..

أصحاب التيجان الغزاة ،قواد العدوان ، لم يكتب لهم ما أرادوا من انتصار ..

كما قدموا ، مستظلين بالصليب ، كفرسان حرب مقدسة ، هلك منهم من هلك ، وآب من نجا بصفقة مغبون ..

آبوا إلى بلادهم وهم يستخفون تحت ظـــل الصليب ، وفي أكناف المعاذير خجلاً من الإخفاق ..

وأيقن الغرب أن زحفه هذا على الشرق لم يكن ، كما حسب كثيرون ، رحلة ترفيه ..

وأن هدفه دونه أهوال ..

فالألماني العجوز باربروسا ، غرق في قناة ..

والفرنسي العاتي فيليب ، اعتذر بالمرض ، وهجر الميدان ..

والانجليزي فارس الفرسان قلب الأسد ، أكره على الانسحاب ..

* * *

في يوم حار من صيف العام ، نكس ريتشارد رأسه ، وغض بصره ، ومشى في تثاقل مبتعداً عن بيت المقدس ، وهو يحاول أن يواري خزيه عن الدنيا ، وعن عدوه ، وعن الرفاق والخلان ..

عن حلمه الجميل ارتد وهو منه على مسافة ذراع ..

ارتد خائباً عن المدينة المقدسة ، وعن قبر يسوع ..

من بضعة أشهر ، جهد الرجل جهده ، مراراً ، لاجتناب هذا المصير ..

* * *

مرة ، سعى إلى الصلح مع المسلمين وهو جريح ..

ولعل جروحه هي التي أوحت إليه طلب الوفاق ..

ولعلها شدة الجلاد التي كان يلقاها دائماً من العرب في كل لقاء ، وبكل طريق ..

ولعلها سماحة السلطان صلاح الدين ..

وكاد سعيه ينجح ، ويتحقق السلام ..

والتقى مع الملك العادل أخي السلطان ، للتفاوض ووضع الشروط ..

لكن رواسب الحقد الصليبي في نفسه ، أبت عليه ، وعلى رجاله ، إلا أن تكون فلسطين للصليبيين ..

وعاد القتال :

* * *

ثانية عمد إلى المحاسنة والاحتيال ..

عمد إلى « المصاهرة » سلاحاً جديداً قاطعاً يغني عن الحرب والقتال ..

تخيل « جوانا » أخته الحبيبة ، الأثيرة على نفسه ، عروساً تزف إلى الملك العادل ، أخي صلاح الدين ..

وتخيل الزواج المنتظر وسيلة لاقامة مملكة صليبية إسلامية في فلسطين وبيت المقدس ، يقتعد عرشها العروسان ..

وتخيل الفكرة ختاماً سعيداً لقصة الصراع الدامي ، يرضاه العادل ، ويباركه السلطان .

فالنسب المنتظر كفيل بأن يذيب العداوة ..

ويحسم الخلاف على المقدسات ..

وينشر السلام في هذه الربوع التي أغرقتها الدماء ..

والأميرة جوانا جديرة بالعادل ، الرجل الثاني في دولة بني أيوب ، التي تدين لها بالولاء وتوليها التقدير أرض الاسلام .

وهي سليلة بيت ملك مجيد ، له في عالم المسيحية كلمة نافذة وصوت مسموع ..

وهي أرملة ملك ، وأخت ملك ، وابنة ملك ، ودون شأوها في قصور اوروبا الملكية ، شأو غيرها من الأميرات ..

لكن النفسية الصليبية أفسدت على ريتشارد تدبيره ..

فقد أبى الفكرة قادة الصليب .

لكأني بطائفة منهم تقول :

« سبة ومعرة أن يكون هذا الزواج » ..

وبآخرين يضجون :

« إذن تبيع الأميرة نفسها للشيطان !.. »

وبغيرهم يستنكرون :

« هذه معصية لربنا يسوع المسيح » ..

وبالأميرة في نهاية المطاف تحسم الحديث :

« كيف أسلم جسدي لأحد الكفار » !..

* * *

ومرات أخرى ..

وكان قلب الاسد ، بـــين مرة ومرة ، يرى أن دوره هو خوض الهول، وموالاة الكفاح والنزال من أجل نصرة الصليب..

لكنه دائماً كان يلقى من عدوه صدق البلاء، وقوة الشكيمة، ومرارة الجلاد ..

وها هوذا الآن ، بعد بذله ما استطاع من شجاعـــة وجرأة وتمرس بالقتال ، تفلت منه الثمرة الشهية ، ويرى كفـه تقبض الهواء !..

القدس أفلت منه ..

حال بينهما عناء الدفاع ..

ارتد عنها ، حتف رغبته ، وحتف قوتـــه ، وهو مهزوم مقهور ..

وعندما بدأ يجر أذيال الخيبة ، منسحباً عنها بجيشـــه نحو عكا في الشمال ، مر في تقهقره الجبري بربوة ، يتبين مزققيهـــا معالم المدينة المقدسة كمعالم سراب .

ورأى الملك رفيق سلاح يشير بأصبع إلى البلدة ، ثم سمعه يقول :

« من هنا ، يا مولاي ، تستطيع أن ترى أورشليم » ..

فلم يتبع الاشارة . بل أشاح بوجهه بعيـــداً لكيلا يرى مناط مشاعره الروحية .. ورد وهو يشرق بأساه :

« لست أهلاً لان أرنو إليها بعين » !..

وواصل السير ..

* * *

كان يجتر الخيبة ..

الحسرة في قلبه ، والقلق في ضميره ، والمر على شفتيه ..

الفشل « الديني » الذي أصابه ، لم يكن له على بال ..

فما أرضى الرب، ولا أشبع رغبته كل الارضاء وكل الاشباع..

ما دخل القدس ، ولا أخذ القبر ، ولا أباد « الكفار » !..

* * *

غير أنه ، على أي حال ، فعل ما استطاع ..

باع أملاكه ، ورصد ثمنها للجهاد .

داوم على جباية «ضريبة صلاح الدين » المفروضة على رعاياه، لصرف حصيلتها في حرب المسلمين بعد حطين ..

جيش الجيوش وقدم السلاح ..

حارب الشرق العربي بكلتا يديه : في اليمنى السيف وفي اليسرى الصليب ..

أباد أيضاً ، في العالم السالف ، كما استطاع !..

فما أن لمس بقدمه ، في ذلك العام ، الارض الموعودة ،حتى خف بجيشه وأسطوله ، إلى عكا يصب عليها الدمار والنكال ،

ويمارس فيها فروسيته المشهورة – على سنة الغرب المأثورة – عسى أن يحظى بغفران خطاياه ، ويدخل ملكوت السماء !..

* * *

آنذاك كانت عكا تحارب معركة أسطورية ، قارب عمرها أن يبلغ ثلاثة أعوام .

كانت تعاني من حصار شديد ، طوال هذه السنين العجاف ، وتقابل المحنة بالثقة والصبر والفداء ..

ثم زاد كربها شدة .

ثم خنقها الحصار حتى لاوشكت ألا تلقف نسمة هواء ..

فالاساطيل النورماندية ، والانجليزية والفرنسية ، إلى جوار سفن صليبي الشرق ، توالي اكتساح شواطئها ، بالليل والنهار ، اكتساح موج غاضب يسوقه إعصار ، وتطبق عليها من البحر ، فلا تدع ثغرة لمدد أو زاد أو عتاد ..

وجيوش فرنسا بقيادة ملكها فيليب ، وجحافل انجلترا بقيادة ملكها ريتشارد ، تكاتف كتائب عواهل الامارات الصليبية المغروسة في بدن الشرق العربي من مائة عام ، وتطبق عليها من البر بالحديد والنار .

والجوع والوباء ، والجروح والاعياء بين أسوارها تحالف العدو ، وتحصد الجنود والسكان .

معركة ميئوسة . ومقاومة محكوم عليها ، سلفاً ، بالدمار والانهيار ..

معركة فناء ..

* * *

لكنها ، مع صلابة العنـــاد والاصرار ، حرية أن تستمر شهراً آخر ، أو عاماً ، أو أكثر من عام ..

فالهجوم الصليبي ، في محاولاته السابقة لاقتحامها ، فقـــد تحت أسوارها نحو ثلاثين ألف قتيل .

وهو الآن ، بضخامة أعداده بعد هذا التجمـــع الكبير ، أخلق بأن يصبح هدفاً أكبر وأسهل لسلاح الدفاع ، فيفقد بضع مئات ، أو بضعة آلاف كلما امتد عمر الحصار ..

* * *

وتدبر ريتشارد :

ما عليه لو أنه استولى على البلدة العنيدة بغير قتال ؟..

لو لبس مسوح السلام ؟..

لو بدا ساعياً لحقن الدماء ، ودفع البلاء ، فقدم إلى الحامية المنهوكة اتفاق هدنة ترضاه ؟..

وفعل ..

أسرع فنصب الشراك ..

عرض على القائد المحصور جلاء جنوده ، بكامل سلاحهم مكرمين ، وتسليم المدينة ، مقابل ميثاق أمان لكل من يخرج منها ، أو يمكث بها من المسلمين ..

وقبل القائد ..

وما كان إلا ليقبل ، وليس معه من قوه الدفاع غير ثلاثة آلاف ، أحياء كأموات ، أو أموات كأحياء ، انقطع عنهم المدد ، وهدهم الاعياء ، ولا قبل لهم بالثبات في وجه عشرات الالوف من المهاجمين ..

وأبرم ريتشارد الميثاق ..

وتسلم المدينة ..

فما أن اطمأن الناس ، وأخذت لظى الحرب تنطفىء في عكا ، حتى انقلب قلب الاسد ذئباً يلغ في دماء الابرياء ..

تنكر لعهده ، وما مضت عليه غير أيام .

وساق جمهوراً غفيراً من المسلمين ، بضعة آلاف ، إلى تل قريب ، راح يعمل فيهم السيوف ، ويذبحهم ذبح الانعام ..

فكذلك – بشرعته وشرعة الغرب – يكون الوفاء بالعهود ، وتكون فروسية الفرسان !..

وبهذا يكون دخول الملكوت !..

* * *

(٤)

٦٣٧ م

في كتاب من عمر بن الخطـاب إلى سفرنيوس أسقف بيت المقدس ، حينما فتحها المسلمون الاوائل ، رواد الايمـــان ، في مستهل عهد الاسلام :

« بسم الله الرحمن الرحيم

هذا ما أعطى عبدالله ، عمر أمير المؤمنين ، أهل إيليـــاء من الامان :

أعطاهم أماناً لانفسهم واموالهم ..

وكنائسهم وصلبانهم ..

وسقيمها وبريئها ، وسائر ملتها ..

لا تُسكن كنائسهم ، ولا تهدم ..

ولا يُنتقص منها ، ولا من غيرها .

ولا من صليبهم ..

ولا من شيء من أموالهم ..

ولا يُكرهون على دينهم ..

ولا يُضار أحد منهم ... »

* * *

أمان شامل للأرض المفتوحة .

لاهلها ونزلائها مسيحي الشرق ، ومسيحي الروم ..

لكل من فيها ، وكل ما فيها ..

للمقيم ما أقام ، وللراحل حتى يبلغ مأمنه .

للنفس والعرض ، والمال والعقيدة ..

ختمه عمر بتوقيعه .. وبعهد الله ، وذمة رسوله ..

وأشهد عليه الشهود ..

وألزم خلفاءه من بعده ، وسائر المؤمنين ، تنفيذ نصوصه ..

* * *

وحين أخذ أمير المؤمنين يكتب عهده ، كان قد تسامى على مشاعره ..

كان قد نظف قلبه ،ومسح كل ما فيه من مرارة الخصومة ..

نسي صلافة الروم ، وكبرهم وتعاليمهم ..

نسي صرخة الدم العربي الذي ولغت فيه ، إبان المعارك ، سيوف أعدائه ..

نسي اختلاف الدين ، وفارق الجنس ، وثأر الحرب ، وعزة الانتصار .

ولكنه لم ينس الصفح والتسامح والاريحية ..

ولا أخوة البشر ، وإن تقطعت بهم الأسباب ، وتنـــاءت المنازل ، وفرقتهم الأوضاع ..

وما كان إلا ليفعل ما فعل ، إيماناً صادقاً بسلامة ما فعل..

استجابة لداعي الإنسانية .

واهتداء بشرعة الاسلام .

واقتداء بأدب الرسول .

* * *

فالبشر أخوة . كلهم في الخلق سواء .

يقول الله :

« فلينظر الانسان مم خلق » ..

وتكرمهم إنسانيتهم . بغير تفرقة ..

يقول سبحانه :

« ولقد كرمنا بني آدم » ..

ولا ترفعهم أو تخفضهم العناصر ولا الأنساب .. إنما ترفعهم وتخفضهم الأعمال .

يقول محمد للزهراء :

« يا فاطمة بنت محمد ،اعملي!..لا أغني عنك من الله شيئاً».

ويقول لأهله :

« لا يأتيني الناس بأعمالهم وتأتوني بأنسابكم » .

* * *

والصفح والرفق شيمتان كريمتـــان ، يحبهما الله ، ويجزي عنهما عباده خير الجزاء ..

يقول تعالى :

« وليعفوا وليصفحوا . ألا تحبون أن يغفر الله لكم » ؟..

ويقول الرسول :

« إن الله يحب الرفق في الأمر كله » ..

والوفاء بالعهد صفة قدسية ، قبل أن تكون صفة إنسانية :

يقول سبحانه :

« ومن أوفى بعهده من الله » !..

ويقول :

« بلى من أوفى بعهده واتقى ، فإن الله يحب المتقين » .

والإسلام لا يقر ، في هذا المجال ، التعصب لجنس أو دين ، فلا يقصر ثمرات الوفاء بالعهد على بنيه دون غيرهم ،وإنما يبيحها ، حلالاً طيباً لكل الأجناس وكل الأديان .

يقول رسول الله :

« لا إيمان لمن لا أمانة له . ولا دين لمن لا عهد له » ..

ويقول :

« أيما رجل أمَّن رجلاً على دمه ثم قتله ، فأنا من القاتل بريء وإن كان المقتول كافراً » ..

ويقول :

« من ظلم معاهداً ، أو انتقصه حقه ، أو كلفه فوق طاقته ، أو أخذ منه شيئاً بغير طيب نفس ، فأنا حجيجه يوم القيامة » .

* * *

(٥)

١١٨٧ م

أربعة قرون ونصف قرن كاملة تمضي على كتاب عمر ابن الخطاب لأهل إيلياء بالأمان ..

ويمضي أيضاً نحو قرن على دخول سليل شارلمان بيت المقدس، واحتفاله « الديني » ابتهاجاً بالنصر ، وطوال أسبوع « النحر » بذبح سبعين ألف مسلم لتقديمهم لربه في وليمة القرابين !..

وذات يوم من صيف العام ، قائظ الحر ، هواؤه نار ..

على كثب من بحيرة طبرية ..

وفوق هضبة قرون حطين ..

وفي جيرة قبر النبي شعيب ..

تطبق القوات العربية ، من كل جانب ، بقيادة الناصر صلاح الدين ، على جحافل الحلف الصليبي المؤلفة من جيوش جاي دي لوزنجان وبوهيموندوريموند ورينودي شاتيون وباليان وجيرار . وغيرهم من ملوك الدويلات الصليبية المغروسة في الشرق وأمراء المقاطعات وفرسان القلاع والحصون ..

ويشعل المسلمون النار فيما يكسو أرض الهضبة من العشب والهشيم والأشواك ، فتحمل الريح دخان الحريق إلى العدو لهيباً يشوي الوجوه ، ولظى يكتم الأنفاس، وقذى يعمي الأبصار..

ويلتقي الجمعان ..

ويتسعر الصراع ..

ثم ينجلي الدخان والغبار عن ساحة القتال ، فاذا بالطغيان قد تهاوى وإذا بالبغي قد انهار ..

وإذا بالعدو بين قتيل وأسير ..

وإذا بأسقف عكا يخر صريعاً ، وقد سقط منه صليب الصلبوت الذي يقال إنه قد دق إليه ، في مستهل الدعوة المسيحية ، جسد المسيح ..

* * *

في كل مرة كان صلاح الدين ، على شرعة دينه ، « يرفق الرفق كله بالمستسلمين » .

ويصفح الصفح الجميل عن كثير من عتاة عدوه المهزومين ..

فيهب لهم « عصمة النفس والمال » .

وفي كل مرة أيضاً كان يلقى النكث والجحود من أولئك الصليبيين الذين أفسح لهم في صفحه ، وأباحهم الحرية والحياة ..

كان يكرمهم ، ويطلق سراحهم ، ويبلغهم مأمنهم وقد عاهدوه ألا يقاتلوه ثم لا يلبثون ، في مواقع مقبلة ، أن يلاقوه خافري الذمة ، ناقضي العهد ، شاهري السلاح ، كأشد ما تكون العداوة ، وأعنف ما يكون اللقاء ..

ومع هذا ، فقد ظل البطل المسلم الظافر ، دائماً على تسامحه ..

يفعل ما تمليه أريحية الخلق .

ويسلك مسلك « إنسان » ..

* * *

وحين غدت منه بيت المقدس على مد ذراعه ، أبى أن يعصف بها بالحديد والنار ..

رأى أن يجنبها الويلات .

شاء أن يحفظ على من فيها حياتهم بغير هوان .

لكنه حين عرض عليهم تسليم المدينة ، ولهم الأمان على الأرواح والأموال ، كبقية الامارات التي ارتضت مسالمته ، استكبروا ولجوا في العناد ، مؤثرين الاحتكام للسلاح ..

قال زعماؤهم :

« بل القتال » !..

وقال عامتهم :

نموت ولا يقع القدس في يد المسلمين ..

وكان فيهم « باليان »ونفر من الزعماء والفرسان الذين شملهم عفو صلاح الدين ، حين وقعوا من قبل في قبضة يده ، وعاهدوه ألا يقاتلوه ..

يصف لنا أبو شامه ، مؤرخ الحقبة ، ما أحاق بالصليبيين في حطين فيقول :

« فمن رأى القتلى قال : ما هناك أسير ،ومن عاين الأسرى قال : ما هناك قتيل » !..

ويقول شهاب الشاعر المعاصر :

« جاشت جيوش الشرك يوم لقيتهم
يتذامرون على متون الضمـــر
أوردت أطراف الرماح صـــدورهم
فولغن في علـق النجيـع الاحمر
فمن الذي من جيشهـم لم يحـــترم
ومن الذي من جمعهـــم لم يؤسر
حتى لقـد بيعت عقائـــل أرهقت
بالسبي ، بالثمن الأخس الأحقر »

* * *

حقائق تبدو كأنما لونها خيال شاعر ..

ولكنها مرآة تعكس لنا على صقالها ما تبعها من أحداث .

فما مر شهر وبعض شهر من نفس السنة بعد « حطين » حتى أخذت الدويلات الصليبية تتساقط ، الواحدة بعد الأخرى ، كأوراق الخريف عند قدمي صلاح الدين ..

وقع هذا في الخريف ..

عندما بلغت جيوش التحرير العربية أبواب بيت المقدس ، كانت قد أمنت طريقها من ناحية البر ، فاستولت في داخل البلاد على القلاع والمعاقل ، وأمنت ظهرها من ناحية البحر ، فاستولت على الموانىء والثغور ..

سقطت الناصرة وصفورية والرملة وقيسارية والنطرون ..

وسقطت عكا وحيفا وغزة وجبيل وبيروت ..

واستسلمت ، غير هذه وتلك ، مدائن وتهاوت حصون ..

* * *

ومع ذلك فقد التزم البطل المسلم المروءة والأريحية ، وأتاح للملكة ، « ماريا كومنين » زوجة الناكث باليان ولغيرها من نساء الصليبيين وأطفالهم ، الخروج من حصاره المضروب حول المدينة ، ورعاهن ، وزودهن بحرس من لدنه يحميهن على طول المراحل حتى بلغن مواقع الأمان .

* * *

ولم يغضب صلاح الدين لهذا التأبي الأخرق من أعدائه على السلام ..

لم يقابل الصلف بالعنف ، ولا العناد بالشدة ، ولا الاستعلاء الأجوف بما هو به حقيق من الردع والقمع والتأديب ..

لم يسمح لقدرته أن تطغى على رحمته ..

مرة أخرى ملك غضبه ، وعرض ثانية ، في ترفق ولين ، أن يجنحوا إلى سلم هم إليها أحوج ، حقنا لدمهم ، وعصمة لهم ولنسائهم وأولادهم وأموالهم من الفتك والقتل ، ومن الأسر والهوان ، ومن الضياع والدمار ..

لكن معاودتهم رفض عرضه الكريم سدت أمامه كل السبل إلا سبيل الحرب ومواجهة المقاومة المغترة بالهجوم الساحق ، والسلاح المفلول بالسلاح البتار ..

ولعله قد حز في نفسه أن يرفق بهم ، ويلتمس لهم أسباب السلامة ، فلا يُقابَلُ رفقهُ إلا بالجحود والصلف . ثم بهذا الامعان منهم في المكابرة والاغترار .. فلا يملك إلا أن يقسم غاضباً ليستردن منهم القدس بحد سيفه ..

ويقول :

« .. ولن أبرح حتى أبر قسمي ، وأرفع عليه علمي !.. »

ولعله أيضاً قد استرجع في باله ما فعله ، منذ مائة عام ، حفيد شارلمان بالمدينة المقدسة إبان « أسبوع النحر » !.. وما

قدمه من أبرياء المسلمين ، شيوخاً ونسوة وأطفالاً ، في « وليمة القرابين » .. فما أن جاءه فريق من صليبيي البلدة يساومونه في شروط رفع الحصار عنها. كأن لهم صفة المتفضل ، حتى اشتعل عليهم سخطه ، وعنف بهم يقول :

« بل أفعل بكم ما فعلتم بأهل القدس حين ملكتموه سنة إحدى وتسعين وأربعمائة ، من القتل والسبي .. وأجزي السيئة بمثلها » !..

وتهيأ لشن الهجوم .

* * *

(٦)

٣ هـ

شهر شوال.

يوم سبت .

عند جبل أحد ..

آثار هزيمة المسلمين ما زالت ماثلة ..

الثرى مصبغ بالدم ..

حمزة عم الرسول ، وأخوه في الرضاعة ، بين قتلاهم ممزق صريع ..

المشركون قتلوه .

نسوة قريش مثلن بجثته وجثث إخوانه في الدين ، فقطعن منهم الأنف والآذان ، واتخذت عقوداً وحلية !..

هند ابنة عتبة ، وزوج أبي سفيان ، شيخ كفــار مكة ، بقرت عن بطنه ، إرواء لحقدها عليه ..

ثم انتزعت كبده من صدره ..

ثم مضت تنهشها نهش لبوءة ضارية ، كأنمــا أطاش غلها آدميتها ، كما يذهب بالعقل سعار الجوع !..

* * *

قلة من المسلمين تستقبل الخبر بذهول ..

تهولهم فظائع الفعلة ..

يتهامسون به ، وهم يشفقون أن يبلغ الرسول ..

ودوا جميعهم لو كتموه عنه ، حتى لا يضيف غماً إلى مرارة الهزيمة ..

لكن محمداً يعلم به بعد قليل .. فما كان إلا ليعلم بكل مــا وقع ، وبكل ما يدور ..

ويسترجع الرسول ..

ويتقدم بين نفر من صحبه إلى بطن الوادي وإنــه ليمشي على أساه ..

في أوصاله إعياء ..

بعينه شرود وسهوم ..

بجسمه مثل نارِ محموم ..

شفته دامية ، وجبينه مشجوج ، ووجهه مجروح ، وفي وجنته ندبان غائران وشمتهما حلقتان من حديد مغفره دخلتا فيه أثناء القتال ..

وكان دمه الطاهر ما زال يتقاطر من جروحه الندية ، كأنه دموع عين هامية .. يبلل قسماته ، ويخضل خديه ، ويسيل مدراراً ، لا يكاد يمسحه حتى يسيل ..

وكان بره بقومه العصاة يكاد يسبق غضبه عليهم أن ناصبوه — عنتاً أو جهلاً — كل هذا العداء ، ورثاؤه لهم يغالب ضيقه بهم ، وهو يقول :

« كيف يفلح قوم فعلوا هذا بنبيهم وهو يدعوهم إلى الله » !.

* * *

ويمضي ، ببطن الوادي ، عند سفوح أحد ، على مهل ، يتحسس مواطن قدميه ، ويتفحص القتلى ، ويتفرس الوجوه ، باحثاً عن عمه بين الجثث والأشلاء .. فلا يكاد بصره يقع على البطل الصريع ، حتى يحتويه الوجوم ..

يمتلىء قلبه بكل حزن السماء والأرض ، فيسمعه من حوله يقول :

« لن أصاب بمثلك أبداً » !..

ويرتج بدنه حنقاً، وكأنما في جوفه بركان يحبسه أن يتفجر، فيسمعونه يقول :

« ما وقفت قط موقفاً أغيظ لي من هذا » !..

ويستغرقه غضب جامع ، كأنه إعصار ..فاذا هم يسمعونه ينذر نذراً، يعاهد الله ، وهؤلاء الشهود القائمين حوله ، وهذا الطريح العزيز الممزق ، قرين الطفولة ، ورفيق الصبا ، وخدين الكفاح ، وزميل السلاح - أن يبر به - عهداً قاطعاً ، تؤكد لهجته الحاسمة القاطعة ، ألا رجعة فيه ..

يقول :

« لولا أن تحزن صفية ، وتكون سنة من بعدي ، لتركته حتى يكون في بطون السباع، وحواصل الطير!..ولئن أظهرني الله على قريش في موطن من المواطن ، لأمثلن بثلاثين رجلاً منهم ! .. »

* * *

وكأنما كلماته هذه تنبه إلى ما سمعه منذ قليل عن قدوم عمته صفية لتتزود من شقيقها الصريع بنظرة وداع . فما أن ينتبه حتى تأخذه الشفقة بالسيدة الوالهة الحزينة من مغبة اللقاء المنتظر .. وعندئذ يسرع إلى تجنيبها المشهد المروع الذي يوهي أصلب العزائم ، ويفتت أصلب القلوب ..

يأمر أحد رجاله :

« ألقها فأرجعها لا ترى ما بأخيها » !..

لكن صفية تأبى الرجوع ، وتقول في جلد وشجاعة :

« ولم وقد بلغني أن قد مُثِلّ بأخي ، وذلك في الله ؟..

فما أرضانا بما كان .. ولأحتسبنّ وأصبرن .. »

وتودع أخاها :

« إنا لله وإنا إليه راجعون .. اللهم اغفر له » ..

ثم تدير وجهها لتعود ، وملؤها الإيمان ..

ويتحدث المسلمون بعد هذا عن نذر محمد ، ويتعاهدون فيما بينهم على الانتقام من قريش ، والمثلة بها مثلة لم يمثلها أحـد من العرب قط ، إشفاء لغيظ نبيهم ، وثأرا لحمزة الشهيد ..

غير أن الله ينزل على رسوله :

« وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ، ولئن صبرتم لهو خير للصابرين واصبر وما صبرك إلا بالله » ..

فيصبر محمد ..

يطوي حزنه وغيظه ..

لا ينفذ ما اعتزمه ..

يعدل عن ثأره ..

يرد غضبه عن الانتقام ، ويأخذ نفسه بالصفح الكريم ، وفي مقدوره أن ينتقم ما شاء الانتقام ..

وتصبح سنة من بعده يتبعها المؤمنون

وكذلك يفعل صلاح الدين ..

* * *

(٧)

٥٨٣ هـ

شهر رجب ..

يوم جمعة ..

ذكرى الإسراء والمعراج ..

النصر والبركة يجتمعان في آن ..

الذين صلفوا بالأمس ، وتأبوا على عرض صلاح الدين الذي يجنبهم حرباً يذهبون طعمتها ، قهرهم الآن ما أيقنوه من إصرار السلطان على العصف بالمدينة ، وأخذها كرهاً ، وتجريعهم غصص الدمار والهوان ، عادوا إلى الرشد مؤثرين السلامة ، وجاؤا إليه يعرضون الاستسلام صاغرين ..

بعد نحو قرن ، من الصبر والاعداد والجهاد : استرد العرب مدينتهم بيت المقدس من أيدي الصليبيين ..

ويملأ الفرح قلوب المسلمين ، بهذا النصر المؤزر ، فيقول أحد شعراء العصر :

« قد جـــاء نصر الله والفتح الذي
وعد الرسول ، فسبحوا واستغفروا! »

ويخاطب شاعر آخرُ صلاحَ الدين ، مشيداً بحسن بلائه في هذا الكفاح الذي أعز أمته ، وأعز الدين :

« رددت أخيـــذة الاسلام لمـــا
غدا صرف القضاء بها ضمينـــا

أدرت على الفرنج ، وقد تلاقت
جموعهم عليك رحى طحونـــا

جعلت صباح « غاصبها » ظلامـــا
وأبدلت الزئـــير بها أنينـــا

يقاتـــل كل ذي مُلِكْ ريـــاءً
وأنت تقاتـــل الأعداء دينـــا

فإن تك آخراً – خلاك ذم ! –
فإن محمـــداً في الآخرينـــا »

* * *

ويجلو الصليبيين عن البلدة المقدسة أفواجاً في إثر أفواج ..

جاؤا ومعهم الكراهية ، وعادوا ومعهم الحسرة ..

زرعوا الطغيان وجنوا الضياع ..

زالت دولتهم الباغية وطالما حسبوا أنها لا تزول ..

والناس عادة توثق بينهم المحن ، وتؤلفهم الكوارث وإن تباينت منهم الطباع ، واختلفت الأوضاع .

لكن العجيب أن ادعياء الصليب ، كما تمزقوا جيشاً ، تمزقوا عاطفة ..

فرقتهم المحنة فلم يجتمعوا قلوباً إلى قلوب ..

شغلتهم الأنانية فنأى القريب عن القريب نـأي الغريب عن الغريب ..

وعندما حل دفع الفدية التي تعطيهم الأمان والحرية – وكانت بين دينار وعشرة دنانير – ضن أن يسهم غنيُّهم بشيء من ماله لتحرير فقير – وكبيرُهم لتحرير صغير .

وافتدى الأغنياء والكبار أنفسهم ، وخرجوا من المدينـة وهم مثقلون بأحمال مـا نهبوا من كنوز ، وكدسوه من أموال وتركوا الفقراء والصغار تحت رحمة الأقدار ..

* * *

حتى أسقفهم هرقـــل ، بطريق بيت المقدس ، وراعي المسيحية ، لم يحمله « تدينه » على أن يصغي لضراعة الضارعين من إخوانه في المسيح !..

أبى أن ينفق درهماً واحداً لتخليص مسيحي فقير من ذل الأسر ..

واجتاز باب المدينة ومعه الأمن والحرية ..

وفي وفاضه أكداس من الذهب والفضة .

ومن ورائه صف طويل من العربات ، يحمل نفائس كنيسة القيامة، وكنوزها وذخائرها التي شاء أن تكون ملكه الحلال ! .

ولقد أحنق المسلمين جشعُ البطريـــق . ثم مسلكه الزري حيال دينه وأبناء دينه ، فأشاروا على السلطان أن يجزيه بما هو أهله ، ويحتجز ما استلب من نفائس وأموال .

فلعل صلاح الدين ذكر في تلك الآونة حديث رسول الله :

« لعلكم تقاتلون قوماً فتظهرون عليهم ، فيتقونكم بأموالهم دون ذراريهم ، فيصالحونكم على صلح . فلا تصيبوا منهم فوق ذلك لأنه لا يصلح لكم » ..

وعندئذ ترك البطريق طليقاً ، وقال لمحدثيه :

« كلا ! .. لا أغدر به » ..

لقد رأى بعض الناس أيضاً أن يوصدوا دون الغرب المسيحي باب طمعه في الارض العربية ، فحثوا صلاح الدين أن يهـــدم كنيسة القيامة ، قائلين :

«إذا هدمت انقطعت عنها وفود الزوار .. أما إذا استمرت بها العمارة استمرت الزيارة » ..

فأبى أن ينقض عهد الاسلام ، وأجاب :

« عندما فتح عمر بيت المقدس أقرهم على المكان ولم يهـدم البنيان » ..

وكأنما الليلة المباركة التي أسرى الله فيها بنبيـــه الكريم ، رسول الاسلام والسلام ،قد زادت البطل العظيم صفاء على صفاء ، وأريحية إلى أريحية ، فإذا به يرفق بالمسيحيين الذين لم يرفق بهم بنو قومهم ، وإخوتهم في الدين ، وبطريقهم الكبير ..

وفى البطل المنتصر لدينه وسجاياه فسار في عـدوه الباغي المقهور سيرة من يحرص على أن يرعى كرامة الانسانية في أي إنسان ، كيفما كان هذا الانسان وأينما كان ..

لم يجز السيئة بمثلها ، بل كان عادة يجزيها بالصفح وأحياناً بالاحسان ..

لم يلجأ إلى العنف حيث كان أعداؤه يوغلون في الوحشية ، ولا إلى القصاص حيث كانت متعتهم التنكيل بالمسلمين ..

لم يرفع شعار حلفاء الغرب القديم الجديـد : «ويل للضعيف وويل للمغلوب » !..

إنما انتهج إزاء أعدائه دائماً سياسة المبالغة في الرفق والتسامح ، سمواً بنفسه عن غل الاحقاد ..

بغير فدية أطلق سراح الفقراء .

وأعفى أيضاً الارامل واليتامى والشيوخ ..

وبعث النساء بأموالهن وأتباعهن ، في رعاية جنده وحراستهم ، معززات مكرمات إلى حيث شئن من مناطق الامان ..

وتكفل بالعجزة والمحتاجين ، فأقام لهم الخيـــام ، ووزع عليهم الطعام ، ومنحهم هبات من ماله الخـاص ، عصمة لهم أن يتكففوا المسلمين، ويعيشوا على مذلة السؤال ..

ونقل،على نفقته ، وفي حماية الراية الاسلامية، كافة مهاجري المدن المفتوحة الذين آثروا العودة إلى اوروبا ، حيث مواطنهم الاصلية .. بينما تنكر لهم إخوانهم في المسيح ، فأبوا لجوءهم إلى الامارات الصليبية ، ونهبوا متاعهم ، وساموهم الهوان .. وبينما أغفل ربابنة السفن الاوروبية وشائج الدين والدم والقوميـة ، ورفضوا سفرهم على سفنهم إلا بالاجر المعلوم !..

* * *

يشير المؤرخ « شامب دور » إلى هذه الوقائع فيقول :

« هكذا هو مسلك العرب والمسلمين ، إبان الحرب وبعـد الانتصار ، إزاء الصليبيين .. موقف إنساني كريم » ..

ويذكر « جيبون » متحدثاً عن تسامح دين الله :

« السلام الذي ساد بين المسلمين والمسيحيين .. إنما كان مؤسساً على تسامح الاسلام » ..

وينقل ترتون أن أحد قدامى بطاركة المسيحية ، في صدر الدولة الاسلامية ، منذ أكثر من ألف وثلثمائة عام ، قال :

« العرب الذين مكنهم الله من السيطرة على العالم ، ليسوا بأعداء للنصرانية . بل يمتدحونها، ويوقرون قديسينا وقسيسينا، ويبذلون المعونات للأديرة والكنائس » ..

ويقول الاسقف رولان :

« كثيرون من المسيحيين كانوا يرون أن الاسلام تتمة طبيعية للمسيحية .· ومحمد إذ جاء ، إنما بعث بالقرآن مكملاً للتوراة والانجيل » ..

* * *

غير أن هذا كله ، فيما نرى ، لم يكن الغرب ليؤمن به ، إلا وهو في قبضة الضعف والهوان ..

فأما إذا استأسد فلا !..

واما إذا عرف كيف يهز في يمينه السلاح ، فإنه يشنها على الشرق العربي حملة افناء ..

صليبية فى ظل الصليب ..

وحضارية في ظل الشعارات ..

فالحياة حكر عليه ..

والموت لمن عداه ..

* * *

هكذا هناك يرون المسيحية ، ويرون المدنية ..

على نفس هذا النهج الديني والحضاري ، كان الغرب دائماً ، طوال تاريخه يسير . وإلى الآن ما زال يسير ..

حتى في عصر العلم والمدنيــة والنور ، في القرن العشرين ،

يمارس على العرب والاسلام نفس سياسة الابادة التي رسمها آباؤه الكنسيون .

ولمن شاء أن ينكر هذه النظرة ، فلديه مـا حاق بالعرب والمسلمين بليبيا ومصر وسوريا وتونس والمغرب، على يد الغرب المسيحي وكبريات دوله : انجلـترا وفرنسا وإيطاليـا ، قبيـل عشرينات هذا القرن وبعدهـا إلى الآن ، من مذابح وفظائـع وويلات ..

فلير – كمثال – ما أصاب الليبيين على يد الطليان ..

ولمن شاء أن يتساءل فليقل : أهذه شرعة المسيح ؟..

وليستعر لسان حافظ ابراهيم ، شاعر النيـل ، للاجابة على السؤال حين قال :

كبـلوهم ، قتلوهم ، مثـلوا
بذوات الخدر ، طاحوا باليتامى
ذبحـوا الاشيـاخ والزمنى ولم
يرحموا طفـلاً ولم يبقوا غلامـاً
بارك المطران في أعمالهم
فسلوه : بـارك القوم على مـا ؟
أبهـذا جاءهم إنجيلهـم
آمراً يلقي على الارض سلامـا

كشفوا عن نية الغرب لنــا
وجلوا عن « بصر » الشرق الظلاما
فقرأناهــا سطوراً مــن دم
أقسمت تلتهم الشرق التهامــا ؟

نعم !..
لو كنا نبصر !..
لو كنا نقرأ وكنا نفهم .. ..

* * *

القسم الثالث :

(١)

١٢٤٩ م

على نفس نهج الصليبيين ، ظل الغرب يسير .

مبادىء الإنسانية لم تستطع أن تميل به عن هذا الطريق .

سماحة المسلمين لم تشفه من عماه .

الهزائم التي نالت منه ، لم ترده إلى جادة الصواب .

حقده على الشرق العربي ، فيما بدا ، كان الهواء الذي يتنفسه ويحفظ عليه الحياة ..

وها هوذا لويس التاسع ، ملك فرنسا ، الذي وقع في أسر المسلمين ، أثناء إحدى حروب الكراهية والتعصب ، وأودعوه دار ابن لقمان ، لا يكاد يتحرر من أسره ، حتى يعد عدتة لقهر الشرق العربي بأسلوب جديد ..

فالرجل لا تعوزه الوسائل .

والخطة التي يفكر في انتهاجها تنيله غرضه ، وهو آمن في بلاده ، بعيداً عن الميدان ..

تقضي على أعدائه « الكفار » ! دون أن تعرضه لأخطار ..

* * *

كان أبناء الغرب يعلقون عليه الآمال ..

كانوا ينظرون إليه كرجل دين ، قبل نظرتهم إليه كعاهل دولة ، وقائد قتال ..

فهو « مؤمن » ! بمسيحيته ، شديد الإيمان ..

وهو لورعه وتقواه غلب عليه لقب « القديس »..

وهو بذخره « الروحي »! خليق بأن يسير في شوط عدائه للمسلمين إلى غاية مداه ..

والروحانية، بلا ريب،أقوى سلاح،في مجال هذا الصراع..

* * *

ونشط لويس ..

ودبّر فأجاد التدبير ..

بذهن صليبي « مغلق » ، وبعين صليبية « عميـاء » فكر ونظر في الأمور ..

ماذا عليه لو أنه حارب المسلمين بجيوش سواه ؟..

بأعتى جيوش ، وأقسى سلاح ؟..

بقوة من لا يعرفون الله ؟..

ماذا عليه . ليبلغ غرضه ، لو أنه فتح القمقم ، وكسر سد يأجوج ومأجوج ، وَأطلق المارد الوثني من عقاله ليجتاح الشرق العربي ، ويسحق الاسلام ؟..

ماذا عليه لو أنه حالف الشيطان !..

* * *

وحالف التتار ..

وشهد تاريخ الحقبــة ذلك « القديس » المسيحي المؤمن بدين سماوي ،يحالف الوثنية لتمحق الدين السماوي الشقيق: الإسلام، دون أن يأبه فتيلا بما تفرضه عليه رابطة الأخوة في « الله » ..

وبعث «القديس»وفدا من كرادلته — أم ترى منزبانيته !— ومعهم تحف ثمينة ، وهدايا مقدسة إلى « هولاكو » بمنغوليـا ، يخطب وده ، ويحرضه على غزو الشرق الاسلامي ، والقضاء على من فيه وما فيه .

واستعان في تنفيذ سياسته هذه ببعضبؤر مسيحية في بلاط طاغية المغول ، ذات سلطان وتأثـير .. كان منهـــا الأميرة « دوكس خاتون » زوجة هولاكو ، وكتبوكا قائـده الأكبر ، وداود ومرقص وغيرهما من مستشاريه النسطوريين ..

* * *

وكان لا بد أن يثمر هذا التحريض ..

فالدعوة إلى الدم تجذب مصاصي الدماء ..

وهولاكو ، كان سيد السفاحين ..

وعندما لبى حفيد « جنكيز خان » دعوة القديس، وخرج من مملكته النائية القابعة في جوف آسيا ، أخذ يمشي على الأرض الإسلامية ، من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب، بجيوشه الهمجية كتنين هائل يزدرد كل ما يلقاه ..

كإعصار مجنون .

كطوفان عذاب ..

فقد راح يكتسح ما في طريقه من الإنسان ، ومن حضارة الانسان ..

يدك المدن والحصون .

يسحق تراث الفكر .

يقتل البشر ، حتى الرضع على أثداء الامهات ..

يحيل الحياة إلى موت ، والعمران إلى خراب ..

(٢)

١٢٥٨ م

في بغداد وحدها ، زهرة مدائن عالم ذلك الزمان ، هولاكو يذبح الخليفة العباسي ، ومستشاريه ، وقضاته ، وأهل بيته ..

حتى لأوشك المسلمون – بعد انحسار هذا البلاء – ألا يجـدوا وريثاً له من ذويه يوسدونه سدة الخلافة ..

ويأمر بالمدينة فتنهب . ثم تدمر . ثم تسلم للنيران حتى تغدو ككومة من رماد وتراب ..

ويعمل السيوف في الرقاب ، ذبحـا ونحرا حتى يفني السواد الأعظم من السكان .. مئات الألوف ..

* * *

في حلب .. يلتهم التنين المغولي حياة خمسين ألفاً من المسلمين ..

وفي حماه ..

وفي دمشق ..

وفي كل مكان حل بـــه ، كان يخوض في دم ، ويمشي على جماجم ، ولا يجلو إلا عن دمار وحريق وهلاك .

وكان دائماً يحرص الحرص كله على سلامة أبناء دين زوجته المسيحية « دوكس خاتون » وحليفه التقي لويس ..

* * *

وعانى الشرق العربي الإسلامي من هذه المحنة القاصمة ما لم يعان مثله قبل هذه الأيام ..

عايش الهول عشر سنوات ..

كان بين شقي رحى طاحنة . بقسوتها وحدتها، خليقة بأن تعصر دمه ، وتعجن لحمه ، وتدق عظمه لتقضي عليه بشراً وديناً وحضارة ..

رحى بربرية يديرها الحقد والتعصب : شقها الأول صليبية الغرب في اليسار ، وشقها الثاني صليبية المغول في اليمين ..

فهما الاثنتان صليبيتان ، وإن اختلف الجنس عن الجنس ، واختلف الدين عن الدين ..

« دي ميسنيل » الأسقف المسيحي الذي كان من كبار رجال التبشير يصف حملة هولاكو هذه فيقول :

« كانت الحملة المغولية ضد الاسلام والعرب حملة صليبية حقيقية بالمعنى الكامل لهذا الوصف . حملة « مسيحية » ! نسطورية .. تعلق بها أمل الغرب في القضاء على خصومه العرب والمسلمين » .

* * *

وهللت « شعوب » الغرب لهذا الذي نزل بشعوب الشرق ، طوال تلك السنوات ، على يد التنين !..

تابعت بالفرح خطواته وهو ينشر الهلاك ..

ترنمت تشدو بأغنيات انتصاره ..

رقصت طرباً كأنما على نغم أزيز الحرائق ، وهدير التدمير ، ودوي الأنهيار .

ونخب مـــا أصاب العرب والمسلمين من مذابح هولاكو ، سكرت شماتة حتى الثمالة ،وكان بودها لو ملأت بالدماء المسفوكة كؤوس الأنخاب !..

ثم جلست ، في طمأنينة وثقة ،تنتظر بالشوق لحظة الخلاص التي تحيك خيوطها وحشية حليفها الطاغية سفاح التاريخ !..

* * *

هكذا كان موقف إنسان الغرب من إنسان الشرق ، بدءاً ونهاية .. قولاً وعملاً ، فكراً وعقيدة ..

إنه تعصب جموح .. لا يعرف العدل ، ولا يعمل العقل ..

عنصرية عمياء تتنكر للإنسانية ..

أنانية جشعة لا تؤمن بأخوة البشرية ..

إنها أيضاً مسيحية « غربية » ! هي – بخطتها ومسلكها – مسيحية « غريبة » عن المسيحية الحقيقية ..

تخالف ما دعا إليه المسيح من سماحة ومحبة وسلام ..

تحالف الشيطان على سحق الإسلام .

تتشيع للوثنية ضد عقيدة سماوية .

تنصر أعداء الله على الله !..

إنه تجسيد حي لجهالة الفكر ، وانطماس القلب ، وعتمة الروح ..

صورة كامله للظلام !..

(٣)

٦١٤ م

المكان : مكة .

الزمان : قبيل الهجرة النبوية إلى المدينة بثمانية أعوام .

قبل المؤامرة الصليبية الوثنيـــة — مؤامرة لويس وهولاكو على العرب والمسلمين بأكثر من ستة قرون .

الاسلام يبدأ في غسل ضمير البشرية بأول شعاع من النور ..

محمد يمضي بالدعوة إلى الله ، في أرض الشرك ، على الشـوك والخطر والعذاب ..

ينذر ويحذر .

يحث ويبشر ..

يهمس ويسر ، ويعلن ويجهر ، بالليل والنهار ..

يحاول أن يفتح ، في قلوب قومه الغلف المظلمة ، كوى ينفذ إلى أرواحهم وعقولهم من خلالها الضياء ..

يجاهد عنتهم كأنما يحفر بأظافره الصخر ..

ورواد الحقيقة الذين اتبعوه ، ليسوا ، إلى الآن ، إلا كمثل قطرة في محيط ..

قطرة صغيرة من الهدى والصفاء ، في محيط متلاطم من الكفر والضلال ..

قلة بالنفر ..

لكنهم كثرة بالايمان !..

* * *

وتأتي من الشمال أبناء تهول ..

ملك الملوك خسرو أبرويز – كسرى – عاهل فارس المجوسية يهاجم بجيش جرار ، الدولة البيزنطية المسيحية وامبراطورها هيراكليوس ..

يوقع بعدوه ، في عقر داره ، أقسى الهزائم ..

يغزو الاقليم الشرقي من الامبراطورية . ويدخل ظافراً أنطاكية ودمشق وبيت المقدس، وغيرها من أمهات بلدانه ..

ثم يتولى المدينة المقدسة ، التي جثت على ركبتيها أمام جبروته ، بالنهب والحريق والتخريب ..

ثم يشيع في أهلها الذبح والقتل والمثلة ..

ثم يؤكد اقتداره على المسيحية فيدمر كنيسة القيامة ، ويستولي – فيما نهبه من نفائسها الدينية – على الصليب ..

ويكر كسرى إلى إيوانه بالمدائن ، يحدو موكبه النصر ؛ وتثقله الأسلاب ..

* * *

وكما فرح لنصر خسرو أبرويز أهــل فارس المجوس ، يفرح أهل مكة المشركون .

فالمجوسية عبادة بشرية تؤمن بالنار ..

والشرك مثلها عبادة بشرية ، تدين بالأصنام ..

وكلاهما وثنية وإن اختلف الشكلان ..

كلاهما عدو الله ..

وكما جزع الروم ، أتباع المسيح ، للهزيمة ، تجزع الفئة المسلمة بمكة أتباع محمد ، طليعة الايمان ..

فالمسيحية دين إلهي كالاسلام ، وإن كان بينهما الآن بعض الاختلاف .

والانجيل من ذوات النبع الذي خرج منه القرآن ..

وانتصار فارس ، في حقيقته ، ردة إلى الوراء ، ونكسة لأنصار الله ..

* * *

ويستقبل مشركو مكة ، في هذه الآونة ، محمداً وصحبــه بالمهانة والازدراء ..

يلاحقونهم بالعنت والشماتة ..

يطاردونهم بالسخرية والاستهزاء :

« أين اذن هو الله » !..

« كيف ترون الآن إلهكم الواحد وإله الروم الذي تدعون أنه المنفرد بالاقتدار » !..

« لماذا تخلى عن أولئك الذين يؤمنون به وتركهم ألعوبة في يد أعدائه عباد النار » !..

« لسوف يكون شأنكم معنا هنا ، كشأنهم مع الفرس هناك ، سواء بسواء » ..

« لتعلمن عن قريب أن أربابنا خير من ربكم ، لأنهم أكثر وأقوى وأجدر بالانتصار !..»

« ولتدركن عندئذ أننا على الهدى وأنكم على الضلال »!..

* * *

لكن الله يكبت المشركين ..

يتنزل الوحي :

« غُلِبَتْ الرُّومُ . في أَدْنى الارْضِ ، وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبون . في بِضْعِ سِنِينَ ، لِلهِ الأمرُ مِنْ قَبْلُ ومِنْ بَعْدُ ، ويَومئذٍ يَفرحُ المؤمنونَ بِنَصرِ اللهِ ، يَنْصُرُ مَنْ يَشاءُ وهو العزيزُ الرَّحيمُ . وَعْدَ اللهِ ، لا يُخلِفُ اللهُ وَعْدَهُ ، ولكنَّ أكْثَرَ النَّاسِ لا يَعلَمونَ » ..

ويطيب الرسول نفساً ببشرى جبريل ..

ويفرح أصحابه بوعد ربهم ، وتطمئن منهم القلوب ..

وتذهب الطمأنينة بهم إلى أبعد مدى حتى لتصبح تحدياً يلطمون به وجوه المشركين !..

يقف أبو بكر الصديق في ملأ من أئمة الكفر بمكة يتحدث حديث ثقة ويقين :

« لتظهرن الروم على فارس » !..

فيهزأ القوم . وهل هذا الذي يدعيه صاحب محمد إلا أمنية ينسجها خيال واهم أو لوثة محموم !..

وينبري له منهم أمية بن خلف ، ساخراً يقول :

« كذبت يا أبا فضيل » ..

فيهتاج أبو بكر :

« بل أنت أكذب يا عدو الله » !..

فيرد أمية ، في اعتداد وكبرياء :

« أراهنك إذن على عشر نياق » ..

« بل على مائة » ..

« إلى متى » ؟..

عند ئذ يستعيد أبو بكر في ذهنه كلمات الله : « في بضع سنين » ..

ويجيب :

« إلى تسع سنين » ..

وصدقت البشرى ..

وانتصر الروم بعد ثماني سنوات .

* * *

هذا هو موقف المسلمين من المسيحيين ، في ذلـك الوقت ، وفي كل حين ..

تواد وتعاطف حين السلام ..

ورفق وتسامح حين الخصام .

دائماً أخوة في ذات الله ..

وهذا هو موقف المسيحيين الغربيين من المسلمين، في الزمان القديم وإلى الآن ..

تسلط وطغيان حين السلام .

وويل وتدمير حين الخصام .

دائماً وحشية دموية ، لا تعرف الانسانية ، ولا تعرف الله ، وإن تسترت بالانسانية ، وتوارت خلف اسم الله ..

وعندما استأسدت قوى الظلام ..

عندما عربدت في أرض الشرق العربي وثنية التتار ، حليفة الصليب ..

عندما ضحك الشيطان ..

شاء القدر أن يطلق إرادة قاهرة – رددتها الآفــاق ، ارتجت لها دنيا الغرب المسيحي ، فزلزل الشرك ، وانطفـأت « النار » وخسيء « القديس » !..

فقد انجابت الغمة ، وانقشع كابوسها الرهيب ، حين شمت الشيطان ، واطمأن أصحاب الصليب والغدر أنها لن تنجاب..

(٤)

١٢٦٠ م

« وإسلاماه » !

صيحة دوت في أرض النيل ، كأنها هدير بركان ..

تفجرت على فم « قطز » سلطان مصر ، حــين اشتدت المحنة ، وعم البلاء ، وأطبق الظلام على أرض الاسلام ..

وكانت كلمة في حروفها استغاثة ، وفي جرسها صلاة !..

صرخة ملهوف يستنصر الله .

نداء مسلم يهيب بقومه أن يهبوا للانتصاف لدينهم من أعدائه الطغاة ..

دعوة وطني يحاول أن يحرك الحياة في وطنه الكبير ، عسى أن يستيقظ النائم ، ويتنبه الغافل ، وينتفض الذاهل من الخاصة والعامة ، القادة والجند ، الاشراف وعرض النــاس شلهم الهول السارح على الأرض العربية ، من عشر سنين ، في ركاب التتار..

وكانت قاصفة كالرعد فملأت الأسماع ..

وكانت متسقة النغم فترنمت بها الشفاه ..

وكانت نابعة من قلب مؤمن فوعتها القلوب ، ورددتها لفظاً ومعنى ، صوتاً وأصداء ..

* * *

وعلى الأثر أخذ « النيل » يتشرع للجهاد ..

نفخ في « النفير العام » !..

بدأت التعبئة الكاملة لموارد الكفاح : المـــال ، والنفس ، والسلاح ..

كل مصري من عامة الناس تبرع بدينار ..

كل مالك عقار أو أرض دفع أجر شهر ..

كل تاجر أسهم بقيمة زكاة ماله عن عام ..

رصدت التحف الغالية والحلى الذهبية على المعركة .

نزل الثراة عن ثلث الثروات ..

لكأنما بعصا ساحر ، تغير الحال واكتمل الإعداد ..

فإذا ضفتا النهر الخالد تعجان بالجند والعتاد ..

وإذا الأنفس شعلة إيمان وفداء ..

* * *

وتخرج طلائع القوات المصرية ، وعلى رأسها « بيبرس » عبر الصحراء إلى ساحة الصراع ..

وعلى آثارها تمضي ، مدداً وحماية ، بقية القوات ، بقيادة السلطان ..

آلة الحرب تنطلق في نسق ونظام ..

السلاح يتحفز في الأيدي ، ويتهيأ للانقضاض ..

الصفوف تلتئم لتتفرق ، وتتفرق لتلتئم وهي تمضي لغايتها وكأنما لتسبر الأرض شبراً شبراً ، وتستنبئها سر ما عسى قد أعده العدو من كمائن وشراك ..

الجند يمشون على طمأنينة يحدوها الحذر ، ويتقدمون بثبات ترعاه اليقظة ، وما منهم الامشوق للحظة اللقاء وقد نذر دمه لله ..

وهل الموت إلا المجاز إلى النصر المنشود ؟..

وهل الجهاد إلا طريق الخلود ؟..

بالدم وحده يتطهر الشرف ، ويعز الدين ، وترتوي شجرة الحرية لتثمر الحياة !..

* * *

في « عين جالوت » ..

على مقربة من « الناصرة » التي ينتسب إليها المسيح ..

الجيش المصري والجيش المغولي يلتقيان ..

قوات التحرير تلتحم بجحافل الغزاة ..

جند الله يهاجم جند الشيطان ..

وتصطفق الأسنة ، وتتلاطم الأجسام، وتتعالى الأصوات..

صيحات الحرب تملأ الفضاء ..

هنا يتعالي الهتاف تسبيحاً باسم الله ، وضراعة إلى الله :

« وا اسلاماه » !..

وهنا يختلط الصراخ ، لغطاً مضطرباً ، وهمهمة لكناء ..

كأنها نباح وقباع وعواء !..

* * *

ثم يتحطم الهول .

ثم ينحسر الطوفان .

ثم يتبدد الظلام عن الشرق العربي ، ويعود السلام ، ليفسح الموت الطريق للحياة ..

فقد انهار التنين الأصفر الرهيب .

سقط يحشرج ودمه المهراق يحاول أن يغسل وجه الأرض الذي نسته خطاياه ..

تهاوى مهيضاً يتمرغ في الوحل ، مغلول الحول ، مقطوع النفس ، ممزق الأشلاء .

وساعة وقع « كتبوكا » قائد المغول الأكبر صريعاً ، وقد تجلل بعار الهزيمة ، رماه « قطز » بنظرة فيها من الازدراء أكثر مما بها من الشماتة ، ومن الرثاء أكثر مما بها من الازدراء .. وقال :

« لكم نكثت بالعهود !.. لكم سفكت من دماء !.. لكم قتلت أبرياء » !..

فما أكثر ما ارتكب وقومه من جرائر تنوء بها الأسفار !..

ما أكثر ما نصب وسيده هولاكو ، وجنده الصفر ، من مذابح وفظائع طوال عشر سنوات ، جردتهم خلالها من « الآدمية » ضراوة وثنيةٍ لا تعرف رحمة الله ، وإغواء « مسيحية » ! زائفة تنكرها مسيحية المسيح ..

وكأني ، في هذه اللحظة ، بسلطان مصر المظفر – بقلبه العامر بإيمانه بالله ، الخاشع لله ، العارف لفضل الله – يهمس للطاغية الذي انهار :

« أيها الجبار ! كيف ترى الآن جبروت الله » !..

ويسجد قطز ، على تراب المعركة ، شكراً لله ..

وزلزلت « مسيحية » الغرب الصليبي أعنف زلزلة ، هلعت لها النفوس ، وغاصت القلوب ، في مواقع الأقدام ..

انقلب فرحها إلى جنازة ، وتهليلها إلى عويل ..

تلاحقت عليها أيام الهموم ، وليالي الاحزان ..

وأكد القدر غلبته على الأثر ..

ضحك مستهزئاً بحلف الشر . حلف أدعياء الصليب وسدنة « النار » ..

سخر من لويس ، وأحقاد لويس ، وأحلام لويس ..

فحين حسب الغرب الصليبي أن المغول قتلوا الاسلام ..وأن الشيطان غلب الله !..

وحين حسب الشرق العربي أن لا كاشف لكسف الظلام .. وأن لا بارقة أمل في الافق تبشر بنهار ..

أبى الله إلا أن يعلي كلمته ، وينصر دينــــه ، وينشر النور وإن كره « ابليس » أو كره « القديس » !..

* * *

(٥)

١٢٨٠ م

لكنها لم تكن الاخيرة هذه المحاولة لسحق الاسلام ..

لم تكن آخر حلف بين الصليبية والنار ..

في خلال سنوات قليلة تكرر التواطؤ ..

البابا ، وملوك اوروبا المسيحية ، يعيدون الكرة ..

يوغرون « أباقا » سيــــد المغول ، وابن هولاكو ، لينشر الموت على الشرق العربي ، أو يعيد إلى الحياة سيرة أبيه !..

يذكرونه يوم « عين جالوت » .

يثيرون الدماء في عروقه للانتقام ..

ويخرج الايلخان الجديد بجحافله الصفر منسابـاً من فارس إلى البلاد السورية ليقضي فيهـا على النفوذ المصري ، كي تخلص فريسة سهلة له وللصليبيين ..

ويجتاح في طريقه من البلاد ما يجتاح .

ويدنو من حمص، وقد تضاعف جيشه المغولي الضخم بما أمده به الغرب من قوات جورجيا،والجنود الارمن،وصليبيي إمارات الشرق وفرسانهم المدرعين ..

ولقد لاح ، في باديء الامر ، أن الغلبة له ..

فأسطورة الهول والعذاب التي كتبها أبوه على صفحة المنطقة المنكوبة بالدم والنار،منذ سنوات،ما زالت تلوكها الذاكرات، وتعيها الاذهان ، وتسبق زحفه إلى الميدان !..

ونفوس رجاله تضطرم شوقاً للثأر ، وتبرز أنيابهم ومخالبهم للافتراس !..

وجنده الغزاة يكاثرون ، بعددهم ، كتائب الدفـاع : عدة مرات ..

وسلاحه وعتاده وفرة موفورة كأنه غاب كثيف ..

ومع هذا كله فقد تحطم الطاغية ..

لقي هزيمة شنعاء لم تخطر له ولا لحلفائه على بال ..

تمزق جيشه ، وذهبت ريحـه ، وأخزاه الله في حمص على يد السلطان المصري قلاوون ..

وبقيت الشام ، وبقيت مصر ، وبقي الاسلام ..

* * *

١٢٩٥ م

هذه المرة أشد وأنكى . وأدهى وأمرّ ..

فما انقضت عشرة أعوام وبضعة على « حمص » أباقا !..

ما مر مثل عمر جيل على « عين جالوت » « كتبوكا » !..

ما فاتت ثلاثون سنة على هلاك هولاكو ، عاشق الدمار ..

ما كاد جثمان حفيد جنكيز خان يتحلل ، وعظامه تنخر ، بقبره الفخم ببلدة مراغة قرب شاطىء بحيرة أرميـــة الملحة ، وتتحلل معه وتتفتت أبدان جماعة الغيـد الحسان اللائي وئدن معه تحت أطباق التراب وهن ممتلئـات بنضرة الحسن وحرارة الحياة ..

ما ان مضت تلك الفـــترة القصيرة ، التي لا تحسب شيئاً مذكوراً من عمر الشعوب والامم ،حتى تبدل الحال غير الحال..

انقلب من نقيض لنقيض ..

تغيرت نظرة المغول للأمور ..

فاءوا إلى الحق بعد الغي ، وإلى الله بعد النار !..

نبذوا وثنية المجوسية ، دينهم الاصيل ، كما نبذوا مسيحية الصليبية ، دينهم الدخيل — بعد أن اعتنقته كثرة منهم ، بنفوذ الاميرة دوكس خاتون ، ومن حولها ، ومن خلفهم من النساطرة — منذ قليل ..

اتبعوا رسالة محمد ، فدخلوا في الدين السمح ، وعلى رأسهم مليكهم « الايلخان » غازان محمود ، خليفة أباقا وهولاكو وجنكيز خان ، ورفعوا عالياً علم الاسلام ..

* * *

غير أن الصليبيات ظلت تسير ..

أحياناً ينشرها المد فتسرح على الارض العربية كنار تندلع في هشيم جاف .

وأحياناً يحسرها الجزر فتتقلص وترتد للوراء .. تكبح نفسها إلى حين حتى تلوح فرصة لتندفع من جديد ..

لكن نارها لم تخمد ..

أبداً لم تتحول إلى رماد ..

ما كانت لتنطفىء وجمرة الغل كامنة ، تتقد في الصدور ..

ما كانت لتنفد طاقتها ، ما بقي غرب ، ومـا بقي شرق ، وما بقي إسلام ..

ما كانت لتموت وإن تغيرت الصور ، وتباينت الوسائل ، وتباعدت الاعوام ..

وكم من صور !..

وكم من أمثال !..



القسم الرابع :

(١)

١٤٩٢ م

القرن الخامس عشر يوشك أن يمحو بقية سنواته عن وجـه التقويم !..

صليبية جديدة يظهر طلعها على سطح الارض كأنه رؤوس الشياطين !..

صليبية من نوع آخر ، تطل علينا من سفر الحقد الاوروبي الاسود على الشرق وأبنائه ، بعد انقضاء أجـــل الصليبيات « التقليدية » بمائتي عام .

مكانها ، هذه المرة ، في أقصى الغرب الغربي ..
بين حافة اوروبا المطلة على البحر المتوسط ، وحافتها المطلة على الاطلسي ..

فوق شبه الجزيرة الايبرية ، وعلى أرض اسبانيـا ، تتبدى

لنا صورة جديدة من الهوس الديني ، هي حلقة في سلسلة الصليبيات الطويلة، التي كادت تستغرق كل عمر العرب والمسلمين . .

صورة مظلمة من فكر الانسان !..

صورة زرية مخزية ..

أديمها جهالة . ونسيجها كراهية . وطلاؤها دم ..

وشمتها على جبهة الانسانية المنكوبة، بإبرة التعصب المسموم، يد أدعياء الصليب !..

* * *

تقول احدى الاساطير ..

عندما غرق ملك الاسبان في الترف ، وأعوزه المال الذي يهيء له أسباب المتعة ، ونضبت موارد شعبه التي اعتصرها حتى آخر قطرة ، راح يتقصى ما تركه الاجداد الاوائل من تراث ، عسى أن يقع فيه على كنز يغنيه ..

وطاف البلاد يتحسس الآثار ..

واستنبأ السحرة والعلماء الاخبار ..

وبعد أن بحث كل المظان ، وتعرف كل الاسرار ، ولم يبقَ شبر من الارض الا نقضه ، ولا ثقب ابرة الا مد عينه من خلاله ، علم أخيراً بأمر تابوت قديم في جوف قبو سحيق مضت عليه الاحقاب بعد الاحقاب ، دون أن ينفذ اليه النور !..

وطار إليه بجناح منهوم ..

وعندما بلغ موضعه ،راعه أن وجده بنياناً شامخاً ، مربع الهيئة ، بغير منافذ سوى باب ضخم عليه بضعة وعشرون قفلاً تحتم إغلاقه ..

وراعه أيضاً أن وجد دون الباب سياجاً من الكهنة يحمونه من أن تعبث به يد إنسان ..

وتقدم منه شيخ الكهنة يقول :

« قفلك يا مولاي » ..

فتساءل وهو محيّر :

« قفلي » ؟..

« نعم . فما من ملك يعتلي عرش بلاد الاسبان ، إلا عليه أن يضع قفلاً آخر على باب هذا البيت » ..

« وأي بيت هذا » ؟..

« بيت الحكمة » ..

فابتسم الملك ، وقال :

« ما جئت لأضيف قفلاً ، وإنما لأفض هذه الأقفال » !

ارتاع الكاهن :

« مولاي » !..

« افتح الباب » ...

« كلا !.. كلا يا مولاي » !..

« أيها الشيخ ، فض الأقفال » ..

واسترد الكاهن بعض جأشه ، وأجاب :

« كلا يا مولاي . فبغير هذا أمرنا الآباء » ..

« أنا الذي آمر فأطاع » !..

« لكنني نذير » ..

فصاح الملك بمن حوله من رجاله ، مشيراً إلى الباب :

« افتحوه » !..

قال الكاهن وهو أسيف مهموم :

« لقد فتح ، فقد فتح الطريق ممهداً إلى هـذا البلد ، أمام الأعداء » !..

* * *

وفتح الباب :

وهبط الملك وأعوانه إلى جوف القبو ..

وعلى ضوء المشاعل ، تبين مائدة حجرية كبيرة تكاد تمـلأ بحجمها المكان ، وعليها تابوت ضخم ، بهيّ المنظر ، قـد غشي بالجلد الفاخر ، وطعّم بمعدن براق ، وعليه نقوش وزخـارف تختلب الأنظار ..

وفرح الملك ..

توسم من هيئة التابوت أنه لا بد يحوي كنزاً غالياً يليق به كل هذا البهاء ..

وأمر ففتحوه ..

فما أن فعلوا ، حتى أحس بقلبه ينبض ..

لم يكن به كنز مخبوء ..

لا جوهر ولا در ، ولا ذهب ولا فضة ..

كل ما كان فيه تمثال من نحاس ، لرجل ذي لحية ، غريب السحنة ، جعد الشعر ، عليه ثياب لم يألفها الاسبان ، ليست بزرد الحديد ، ولا باهاب الحيوان .. وفي يمناه مفتاح ، وفي يسراه رق غزال ..

وبهت صاحب التاج ..

ثم نشر الرق ، فإذا عليه نقش عبارة تقول :

« حين يفتح بيت الحكمة ،يؤول لقوم هذا الراقد في التابوت ملك الاسبان » !..

* * *

تقول أيضاً قصة أخرى . إن تكن أسطورة اقتحمت التاريخ ، فهي تلقي أضواء على التاريخ :

طغى رودريك ، ملك القوط ، وتجبر في أرض الاسبان ..

استلب العرش من ابن وتيزة ،واستبد فيها بالسلطة على هواه..

سام أهلها الخسف والويل والعذاب ..

استغل ما فيها ، واستذل من فيها ..

هام في شهوة النفس والبدن كما وسعه أن يهيم ..

وعندما رأى فلورندا الجميلة . سال لعابه ، كالحية الرقطاء حين تقع عينها على عصفور !..

ولم يرع فيها شرعة الله ، ولا شرعة الناس ..

لم يرده عنها فتوة بريئة ، وشباب وديع ، وأب صديق يدين له بالطاعة ويخلص الوفاء ..

واغتصب العذراء الحسناء ..

* * *

وغلت الدماء في عروق أبي الفريسة : حاكم سبتة الكونت يوليان ..

ثار لشرفه الطعين ..

وفجرت الثورة بقلبه كراهية عارمة ، طالما كبتها – بحكم الولاء – أن تتفجر وتجتاح مليكه ، كما كبت أمثالها في قلوبهم – بضغط الارهاب – جميعُ رعايا رودريك من القوط ..

حينئذ هفا الرجل للخلاص من غريمه ، وتخليص شعبه في نفس الآن ، من الذل والهوان ..

ولم يكن ثمة ملاذ إلى الحرية والعدل والسلام إلا صدور أهل الاسلام ..

فلديهم أخوة الانسان لكل انسان ..

لديهم السماحة والرفق والصفاء ..

لديهم المساواة بين كافة الناس . كل الأجناس . كل الألوان. كل الأديان .

(٢)

٧١١ م

صيف العام ..

يوليان يفكر ويدبر بذهن ثائر . ثم يترجم تفكيره إلى أفعال ..

يجس نبض جيرانه العرب على الساحل الجنوبي للمضيق ..

يحبس وفرة من ماله لبناء أسطول ..

يهدي السفن لحاكم افريقية المسلم موسى بن نصير ، ويدعوه للعبور ..

فلعله سمع بنبأ الأسطورة،وعلم أنه من قومرسومالتابوت!..

وفي بضعة أيام ، كان طارق بن زياد ، مولى ابن نصير ، وقائد المسلمين ، يلقي مراسيه بجزيرة طريف ..

وفي بضعة أخرى كان قد قفز بجنـده القليل ، إلى جوار سلاسل جبال « الأخوات السبع » حيث قامت على سلسلة منها ، مدينة « سبته » مقر يوليان كأنها تاج ..

وفي بضعة ثالثة ، كانت القلة المسلمة تواجـه ، على شاطىء بحيرة جاندا جيشاً ضخماً حشده رودريك ..

غير أن الكثرة المدلة بالعدد ، قابلت قلة مدرعة بالايمان ..

وعلى الأثر تهاوى الطغيان ..

وبزغ في أفق أسبانيا المظلم فجر السلام ..

* *

واستمرت الأندلس ، تلك القطعة من الشرق الاسلامي في اوروبا ، تنعم بالحياة الكريمة ..

كانت واحة خضراء في صحراء ..

كانت باقة من الزهور بين أشواك ..

وفي عصور الجاهلية الاوروبية السوداء ، راحت تفيض على ما حولها من الدول المسيحية المتبربرة ، بألوان الخير ..

نشرت الايمان طهراً يغسل القلوب ..

أشعت العلم نوراً يضيء العقول ..

نثرت الفن رقة تهذب الطباع ..

سنت التأمل خطة تفتق التفكير ..

ولا غرابة ..

فالكمال البشري هو دعوة الاسلام .. الدين القيم الذي رفع أهله ، وأصحاب هذه الدولة الجديدة ، مكاناً علياً عند الله ، وبين الناس ..

ففي الايمان يقول القرآن :

« الله ولي الذين آمنوا ، يخرجهم من الظلمات إلى النور » ..

وفي العلم يقول الرسول :

« يوزن يوم القيامة مداد العلماء بدم الشهداء » ..

وعن الفن العربي الاسلامي يقرر جوستان لوبون :

« لا يتم تكوين ملكة الفنون في أمة من الأمم الناهضة ، إلا بثلاثة مراحل : التقليد والخضرمة والاستقلال . إلا الأمة العربية ، فقد استحكمت لها وحدها ملكة الفنون من أول جيل » ..

وعن فضل المسلمين والعرب على تحرير الفكر الانساني ، يقول كازانوفا الاستاذ بالكوليج دي فرانس :

« إن أوضح مبادىء الحرية الفكرية ، يرجع الفضل في وضعها إلى رجل عربي من القرن السابع ، هو نبي الاسلام » ..

بل الله قد أخرج من سلك البشرية ، ودمغ بالحيوانية أولئك الذين يجمدون التأمل ، ويعطلون العقل ، ويشلون التفكير ، فقال :

« ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والأنس ، لهم قلوبٌ لا

يفقهون بها ، ولهم أعين لا يبصرون بها ، ولهم آذان لا يسمعون بها ، أولئك كالأنعام ، بل هم أضل » ..

* * *

طولاً وعرضاً أضاء مشعل الأندلس الاسلامية سماء أوروبا المظلمة ..

سرى على أرضها الواسعة عبر السهول والوديان ، النجاد والجبال ، البحار والخلجان .

مشى بها على بلاد الفرنج والقوط والصقالبة والفندال والأنجلو والساكسون والجرمان وغيرهم من خلائف القبائل الهمجية التي غزت القارة بهجراتها العنيفة ، وزاحمت فيها شعوبها القديمة من رعايا البقية الباقية لامبراطوريتي اليونان والرومان ..

نفذ من خلال الجلود الكثيفة ، والقلوب الغلف ، والعقول الصماء لأولئك الأقوام الذين كانوا إلى قريب لا يكادون يعرفون من فروع العمل والنشاط البشري غير الصيد ، ومن صنوف المعارف والفنون سوى الخرافات ، ومن ألوان الثياب والقلانس إلا إهاب الحيوان ورؤوس الذئاب والثعالب والدببة والثيران..

* * *

تيار الحضارة الاسلامية بالأندلس ، لا يعوقه شيء عن الانتشار ..

إلى ما وراء جبال البرانس ، ومن خلال ممرات الألب ، وفي جوف القارة ، يمتد شرقاً حتى يكاد يلتقي بنظيره القادم من بغداد ..

في فرنسا والمانيا وسويسرا ووسط اوروبا بريق ولمعان ..

بإيطاليا له ومض يضيء منها القلب كما يضيء الأطراف . ويعم بها أرض الدين وأرض الدنيا على السواء ، حيث دولة البابا وبقية دولة الرومان .

على السواحل الجنوبية يسير ناشراً ضياءه في مرسيليا ونابولي والبندقية وباري وغيرها من الثغور ..

فوق الماء يسبح على المتوسط إلى جزائره: صقلية وكورسيكا وسردينيا ومالطة والبليار ليتصل فيها بشعاع ثقافة الأفارقة المسلمين ..

ثم يرتفع إلى الشمال حتى يبلغ الجزيرة المنعزلة: موطن الانجليز والسكسون .

* * *

كاتب معاصر لهذه الحقبة ، هو العالم الطليطلي : صاعد القاضي يصف لنا حالة أبناء الغرب في ذلك الحين :

« إن افراط بعد الشمس عن مسامتة رؤوسهم، برّد هواءهم، وكثف جوّهم، فصارت بذلك أمزجتهم باردة، وأخلاطهم فجة ، فعظمت أبدانهم ، وابيضت ألوانهم ، وانسدلت شعورهم ،

فعدموا دقة الأفهام ، وثقوب الخواطر ، وغلب عليهم الجهل والبلادة ، وتفشى فيهم العمى والغباواة » !..

ولا مبالغة فيما قال :

فعندما كانت قرطبة تسمى جوهرة العالم ، وطليطلة تتألق في وهج الحضارة ، كانت لندن وباريس غارقتين الى الاذنين – ولسبعة قرون بعد هذا التاريخ – في الجهل والظلام .

وعندما كانت بلاد الأندلس الاسلامية يسودها الأمن ، وتشيع فيها مظاهر الأناقة ، وتشقها شوارع نظيفة مرصوفة تحيل المصابيحُ المضاءةُ على جوانبها ليلها الى نهار ، كان سكان عاصمتي الغرب هاتين –والى ما بعد سبعة قرون من هذا العهد – لا يكادون يجرأون على مبارحة بيوتهم بعد الغروب ، خشية الوقوع في أيدي قطاع الطريق ، أو التردي في الحفر ، أو الغوص في برك الوحل التي تخلفها الأمطار ..

وعندما كانت الحمامات الفاخرة تملأ المدن الأندلسية ، يقصدها الكبير والصغير ، والغني والفقير ، معلنة عن شعب نظيف ، ومؤكدة سيادة عادة اجتماعية سوية ، كانت جامعة أكسفورد – بؤرة الفكر المتقدم ، وعنوان الثقافة الرفيعة في بلاد الانجليز ، وربما في غيرها من البلاد الأوروبية – تستهجن الاستحمام أي استهجان ، حاملة عليه ، داعية لنبذه، واجتنابه لأنه عادة قبيحة وثنية لا تجمل بالمسيحيين !..

ورويداً رويداً تتفتح عيون أولئـك الاوروبيين الاجلاف على دنيا جديدة ..

على معرفة تضيء العقول ..

على فنون تهذب الطباع ..

على انسان يحمل الحياة ..

على حياة جديرة بالانسان ..

* * *

وتتهافت وفود أهل اوروبا المظلمة، من كل الاصقاع والدول والمقاطعات، تهافت الفراشات، على قرطبة وغرناطة ومالقة وأشبيلية وغيرها من المدن الاندلسية الزاهرة: مراكز الثقافة، ومنابع النور..

حينما نزل وافد من طلاب المعرفة، ببلدة من هذه البلاد، كان يجد من أهلها الترحيب وحسن العشرة والاهتمام الى جوار الكرم والسماحة والاريحية وغيرها من السجايا الاسلامية .. كما كان يجد في معاهدها طرائق الارشاد والتوجيه وسبل التهذيب والتأديب، مع غذاء الروح والذهن من الفلسفة والمنطق والتاريخ والفلك والطب والرياضيات، وما اليها من ثمرات العقول ..

وحينما كان يعب من هذا التراث الحضاري العظيم، ويتشرب حكمته، كان يعرف جدواه، ويؤمن – بغير تردد – أن الحياة هي العلم، والعلم هو الحياة ..

فلقد آمن عرب ذلك الزمان بهذه الحقيقة الخالدة ،ولقنوها درساً لكافة الناس ..

ونقشوها أيضاً شعاراً ، يذكر ويبصر من لهم عيون ترى ، وأفهام تعي ، ونفوس تتطلع الى رفع شأن البشرية ، وبنـــاء عالم من الخير والنور ..

فعلى أبواب جامعة غرناطة التي ربضت على جوانبها أسود حجرية – لعلها تومىء الى القوة التي يفيئها العلم على أصحابه – كتب المسلمون هذه العبارة :

« الدنيا لا تقوم الا على أربعة أشياء :

علم الحكيم ..

وعدل العظيم ..

وصلوات المستقيم ..

وجرأة الشجعان المقاديم » ..

عبارة توجز سياسة الاسلام ..

وشعار .. ليت عرب يومنا هذا يترجمونه الى أفعال !..

* * *

(٣)

١٢١٣ م

حتى جون ملك انجلترا ، صاحب الماجنـــا كارتا ، وشقيق قلب الاسد الصليبي ، بدا كأنما قد أخذته روعة هذه الحضارة المتألقة ، وان كان ما بلغه عنها لا يعدو ظلاً باهتاً لاصل شامخ ، وعبارة مقتضبة مبتورة من سفر جليل كبير ..

تأخذه الروعة وتستلبه فيذهب ، فيما نخال ، ابتغاء تزويد بلاده بهذا النور ، الى أبعد الحدود ..

الى حد النزول من جبروت السلطة المطلقة الى ارتضـــاء الخضوع ..

الى التبعية بعد السيادة ..

ويرسل الرجل رسله الى اشبيلية ، عاصمة أسبانيا الاسلامية ، في عهد الموحدين ، عسى أن يحققوا مشتهاه ..

يرسل إلى الناصر ، سيد الامبراطورية العربية الباذخة التي كانت رقعتها ، في ذلك الحين ، تمتد من أرض الأندلس وحافة الأطلسي : بحر الظلمات ، على طول ساحـل البحر المتوسط : بحر الروم ، حتى حدود مصر : هبة النيل ..

فلئن كانت بلاد الانجليز لم تستطع آنذاك أن تشفي ظمأها من ينبوع حضارة الإسلام ، لبعد المزار ، فلينتقل إليها إذن هذا الينبوع !..

فليأت الحكم العربي إلى انجلترا ، بكل جلاله !..

فليضمها ــ طائعة مختارة، بل مشوقة مشغوفة ــ في أحضانه !.

فليجعلها قطعة من دولته ، ويرفع عليها علمه ، وله منها الولاء كل الولاء ، والخضوع كل الخضوع !..

* * *

ويلوح غريباً الآن هذا المطلب الذي انتقلت به، عبر المانش، إلى أشبيلية ، رغبة الملك جون ..

يلوح أدنى إلى حديث خرافة ..

إلى وهم وخيال ..

إلى خيال وجنون إن لم يكن هو الجنون والخيال ..

ومع ذلك فقد حدث وكان ..

فكأني بمطلب صاحب « الماجنا كارتا » الانجليزي .. قد تسرب سره إلى أسماع بعض قومه قبل أن يُعلَن رغبةً ملكية في حضرة امبراطور الموحدين .

لكأني به قد انتقل خفية ، وفي تكتم وحذر ، على ألسنة بالجزيرة النائية في الشمال ، إلى آذان متربصة في القارة ..

لكأنما تهامس به الناس في اوروبا المسيحية – قبل أن يصل إلى أشبيلية – فأهاج فيها قلق العامة ، وأشاع الذعر في رجال الكهنوت ، وهز قواعد الكنيسة ، وأهلع الحكام والملوك ، وزلزل العروش ، وقلقل التيجان ..

فما أن همت وفادة الملك جون بـــأن تطرق أبواب قصر الناصر في اشبيلية ، حتى هبت قوات عسكرية اوروبيـــة ضخمة ، تدق أبواب الامبراطورية بالسلاح ..

تحالفت على الحـــكم الإسلامي غرائز التعصب ، وشهوات الانتقام ..

اتحدت ضده عنصرية الجنس والدين ..

مشت إليه بالدمار جيوش ملوك قشتالة ، ونبرة وأرجون والبرتغال والفرنسيين وفرسان المعبد ومن إليهم من الفرسان الصليبيين ..

وعانى « الهلال » مرة أخرى من « الصليب » .

وطويت إلى الأبد رسالة جون ..

* * *

ثم جاء التدهور والانهيار ..

الحضارة الأندلسية الإسلامية الشامخة ، التي عاشت القرون الطويلة في اوروبا غرساً زكياً من العـلم والتسامح ، تتفتح على أغنانه براعم النور ، ويفوح من نواره عبير الأزهار .. أخـــذ يعتورها الذبول ..

المدنية المشرقة التي ظلت أحقابا عديـــدة تلهم الأرواح ، وتدفىء القلوب ، وتضيء الأفهام ، وتستثمر الطبيعـة ، وتنمي

الملكات وتنشر الخير ، وتهذب الطباع، وتجمل الحياة، ما لبثت أن جنحت إلى الأفول ..

القوى المعنوية الخلاقة، التي فجرتها تعاليم الإسلام في الصدور، لترسخ الإيمان ، وتقدس الكفاح ، وتثمر القوة، وتثري العمل، وتنجب الابداع ،غرق أصحابها في الترف وحب الذات،وتملكهم الغرور والاستهتار ، فترهلت نفوسهم ، وتهدلت أرواحهم ، واسترخى عزمهم فانزلقوا إلى الضياع ..

جيلاً بعد جيل ، كانت الدولة العريضة الشماء ، تترنح كالسكارى، ثم تغريها خمرة اللهو والبذخ بالاستزادة من الشراب، حتى أصابها ذهول الخمار !..

رويداً رويداً بدأت تشيخ كما يشيخ الكهول ..

يوماً وراء يوم سبحت شمسها شوطاً شوطاً في بحر الحياة ، من إشراقة النهار ، إلى شفق الأصيل ، إلى عتمة الغروب ، نحو الظلام ..

فالأحفاد لم يصونوا تراث الأجداد ..

فرقتهم الأهواء ..

مزقتهم الخلافات ..

وحين كان أمراء الاسبان المسيحيين يلأمون صدوعهم ، ويلمون شعثهم ، ويعملون للوحدة وجمع الشتات ، كان أمراء المسلمين ينقسمون شراذم ، ويسعون سعياً للتبدد والانفصال ..

بعد أن كانوا « طائفة » واحدة تشلتوا « طوائف »عديدة .

بعد أن كانوا دولة تقطعوا عشرين دويلة ..

بعد أن كانوا « قوة » راسخة عزيزة ، مرهوبة الجانب ، تلوذ بكنفهم بقايا مقاطعات الأمراء الاسبان المسيحيين ، آوية إلى عدلهم ، ناعمة بسماحتهم ، ناهلة من معارفهم ، آمنة في ظل رايتهم العالية في السماء ، غدوا « قوى » ! ضعيفة شتيتة ، تملكها الذلة ، وتقتحمها الأعين، وتتخطفها الأهواء والأحداث، وتستجدي حماية الأمراء الأعداء ، آنا بالمال والجزية ، وآنا بالخضوع والولاء ، ثم تستعديهم على الاخوة بالأصل وفي الدين ، من كل لصيق قريب ، أو بعيد غريب ..

واستفحل الداء في جسد الدولة المريضة أكثر من مائتي عام.

وأقبل ، يمشي على تؤدة ، موعد البوار !..

* * *

(٤)

١٠٨٦ م

وكانوا كثيرين ..

أولئك المرضى بداء الاستعداء والاستجداء، كانوا كثيرين..

كانوا يسارعون إلى التسلح بالذلة ..

إلى « التدرع » ! بالعار ..

إلى الركوع والسجود لكل عاهل مسيحي جديد .

إلى التنافس على إبداء الولاء ..

رجل واحد منهم ، على امتداد تاريخهم ، هو الذي راجع ضميره ثم حاول أن يتأبى على الغوص فيهذا الخزي إلى القاع ..

ملك واحد من ملوك الطوائف هؤلاء ، هو الذي آثر أخيراً أن يفيء الى كرامته القومية ، ويعزف – ولو على حساب تاجه وسلطانه – عن الاخلاد،أبد عمره الى الخضوع لصلفالأعداء..

رد نفسه ، بعد حين ، عن استمرار احتساء كأس الهوان..

فلعل روح الشاعر فيه قد مسها قبس علوي من الالهـام في لحظة صفاء ..

لعل إحساسه الشفاف المرهف قد غلب على كثافة بدنـه المترف ، فارعوى وتعفف ، واستطـاع أن يتحرر من الضيم والصغار ..

لعل طيفاً قد ألم به من أمجاد الأجداد ..

* * *

الرجل المتعفف بين ملوك الطوائف ، في ذلك الأوان ، كان المعتمد بن عباد ، صاحب أشبيلية ، وأحد أحفـاد ملوك لخم القدماء بالحيرة ،والملك الذيبز صيته كشاعر سمعته كسلطان.

والحدث المروي في هذه الحقبة ، وقع وقد اتحـدت ممالك ليون وقشتالة وجليقية ونبرة في دولة مسيحية واحدة ، غدت

ذات خطر رهيب يواجه تفكك الدويلات الاسلامية بالتكتل، وتخاذلها بالاستزادة من أسباب القوة ، وخضوعها الذليل للوضع القائم بغارات منظمة دورية،حربية وسياسية ، هدفها استشراء الانحلال في صفوف المسلمين ، استشراء يؤدي ، لا محالة ، في نهاية الأمر إلى اقتلاع جذور الحكم العربي من اسبانيا ، والقضاء فيها على الاسلام ..

وكان المعتمد عندئذ يعيش الحياة شعراً ، ويعتصرها خمراً بين أحضان زوجته الشاعرة الجميلة : اعتماد ..

وكان رفاقه ملوك الطوائف ، دائماً مع اللهو والترف ، ومع التنازع والمؤامرات .

وكان الفونسو السادس ، قد وطد دولته المتحدة ، وراح ينفذ خطته في اطمئنان ..

يشن الغارات بانتظام على المسلمين من أقصى الشمال إلى أقصى الجنوب ..

يوسع بين ملوكهم هوة الخلاف ..
يضرب بعضهم ببعضهم الآخر ..
يناصر فريقاً على فريق ..
يهادن هذا ليحارب ذاك ..
ينشر حمايته نظير الجزية ، على من يواليه ..
ثم يقتطع من أملاكهم ، هنا وهناك ، ما يشاء حين يشاء ..

* * *

وآن للفونسو السادس أن ينقلب على ابن عبـاد كما انقلب على سواه ..

أعد العدة للاغارة على ممتلكات اشبيلية ..

لالتهامها فريسة سهلة ..

لاقتطاع قطعة منها ، على الأقل ، يضيفها إلى جواهر تاجه الجديد ..

لم يرده مسالمة صاحبها له ..

ولا ولاؤه غير المشوب ..

ولا الجزية التي يؤديها صاغراً عن يد ،بغير تردد ولا نقصان، كما كان يؤديها لأبيه ..

وحينما رأى المعتمد الغدر ، ذهبت السكرة وأفاق !..

نفض أوهام خياله ..

بارح وادي الشعراء ..

اقتلع فكره من حضن اعتماد !..

وفكر ملياً ، بذهن واع ، فيما يجب أن يفعل ، وينبغي أن يكون ..

وعندئذ تبين الطريق ..

* * *

على الفور بعث إلى مراكش العربيـــة ، يطلب العون من سلطانها : يوسف بن تاشفين ، زعيم المرابطين ..

لم يحاول مساومة الفونسو على السلام ..

ولا اللجوء لحماية غيره من الملوك الأسبان ..

ولا الاستعانة برفيق من ملوك الطوائف المبعثرين ..

فأولئك لا عهد لهم ..

وهؤلاء لا رجاء فيهم ..

وعجب له صفوة صحبه وخلصائـه ، وكيف لا يخشى على ملكه من ذلك القادم الأفريقي ، وانه لذو بأس شديد ، وواسع الأطماع !..

كيف يأمن ألا يثل من تحته العرش ، ويطيح عن رأسـه التاج ، وينتزع من يده الصولجان !

كيف يسلم نفسه لفكي الليث !..

وقالوا له ، يحذرونه :

« لا يُغمد سيفان في جراب واحد » !..

لكنه قال بإيمان :

« لأن أكون حادي عيس في أفريقية ،خير لي من أن أكون راعي خنازير في قشتالة » !..

ولعله – وان خسر ملكه – لم يندم الندم كله ..

لقد لقي الفونسو هزيمة مذلة ..

وتوحدت اسبانيا الاسلامية تحت زعامة يوسف بن تاشفين..

وارتفع علم الاسلام ..

* * *

كيفما كان ما بلغته الأندلس في عهودها العربية المختلفة — قبل يوسف وبعده — من ازدهار ، فقد تهاوت أخيراً ، وأكلها الاضمحلال ..

سنة الطبيعة في الأفراد هي نفس سنتها في الممالك والحكومات والحضارات ..

مولد وطفولة وغلومة وصبا وفتوة وشباب يبلغ ذروة القوة. ثم كهولة وهرم وشيخوخة ووهن يسرع الى الانحدار نحو الانهيار.

والحكومات دائماً تنقضي وتموت ..

أما الشعوب فتبقى أبداً ، وان تبدلت بها الحال بين رفعة وخفض ، ومد وجزر ، وعز وهوان ، ونضرة وذبول ..

وأما الحضارات فتبقى أبداً ، لأنها تلقح ما يخلفها من الحضارات ، فتلده أو تثريه ، وتعيش فيه ..

لكن شعب الأندلس الاسلامي — على خلاف مألوف سيرة الحياة في الشعوب — قد مات !..

حُطم ومُزق بكل أدوات الافناء !..

ذبح وأبيد !..

تماماً – كما حدث لهنود أمريكا الحمر، بفعل وحشية المغامرين الأوروبيين – قتل واغتيل ..

تماماً – كما يريد الغرب الآن لعرب فلسطين أن يبيدوا على يد أدعياء صهيون – وئد في أرض الأسبان ..

باسم « المسيحية الغربية » ! التي تقول بالسلام والمحبة، أبيد ..

باسم « الصليب الغربي » صلب ، وان لم يدق جسده ، بالمسامير في صليب !..

* * *

وشهدت الدنيا ، على أرض أسبانيا ، كيف يحوّل التعصب الأعمى بعض أبنائها الى وحوش ..

كيف توطأ مبادىء الأديان ، وتداس قيم الأخلاق ، وتهتك ستر الحرمات ..

كيف يسوغ الغل لانسان أن يأكل لحم انسان ..

كيف تلغ « صليبية الغرب » في دم المسلمين ولوغ الكلاب ..

وكانت « غرناطة » آخر معقل من معاقل الحكم العربي بالأندلس يقع في أيدي الاسبان ..

كانت آخر قطرة اسلامية يبتلعها محيط الاوروبيين .

* * *

حدث هذا وكأنما كل ما فات من مجد زاهر كان حلماً من الاحلام ..

بعد نحو ثمانمائة عام من مجيء موسى وطارق وطريف ..

بعد عمر من العز والصولة طويل .. طويل .. طويل ..

دولة الأندلس الإسلامية تتبدد ، كأنها إناء زجاجي سقط على أرض صلبة فتهشم . وأريق كل ما فيه !..

الملك الباذخ العظيم ، يتفتت هباء ويذهب مع الريح ..

المجد التالد القديم يحمل بقايا أسماله ، ليرحل عن دنيا الواقع ، ويأوى إلى مغارة الذكريات !..

وعندما تستسلم غرناطة لأعدائها الذين تربصوا بها وبالدولة العربية الأندلسية كل هذه القرون ، يدخل الهلال في المحاق ، ثم لا يعود للبزوغ ..

فرديناند – العدو الظافر – يأمر فينزع كل هلال على مبنى ، أو برج أو مئذنة ، ليرفع في مكانه الصليب ..

ولو استطاع ، لنزع أيضاً هلال السماء !..

* * *

في كتابه « تاريخ العرب » يقول المؤرخ الدكتور فيليب حتى الاستاذ بجامعة ونستون الامريكية :

« .. وأخيراً وافقت الحامية على التسليم » .

وكان عهد « التسليم » يفرض :

« ولاء السلطان ورعاياه للملك المنتصر فرديناند ، وعرش قشتالة » ..

ويكفل :

« الأمان للمسلمين في النفس والمال .

حق تقاضيهم بشريعتهم .

حرية ممارستهم شعائر الإسلام » .

مقاطعة بإقليم البشرات « للسلطان » ..

وأبرم الجانبان الاتفاق ..

* * *

(٥)

٨٩٧ هـ

نفس العام الذي أخذ فيه القرن الخامس عشر الميلادي يمحو سنواته من صفحة التقويم !..

الفصل : الشتاء .

الشهر : ربيع الأول ..

البرد يكاد يجمد الدماء في عروق الأحياء ..

الثلج يكسو سهل غرناطة ، فيحيله صحراء بيضاء ، بعد أن مسح العدو الغازي الخضرة عن سطحه ، وقطع كل ما فيه من زروع وكروم ..

على سفوح التلال المطلة على السهل، شرقي المدينة إلى الجنوب، ينهض قصر « الحمراء » الفاخر ، بطلائه القاني الذي يحاكي لون

الشمس بين الأصيل والغروب ، شامخاً برأسه في السماء على الرغم من سني عمره الطويلة التي قاربت ثلثمائة ، متوجاً تراث حضارة عظيمة ، نضرت وجه أسبانيا ثمانية قرون ..

من بابه الكبير ،يخرج الموكب السلطاني يحفه البذخ والجلال، يرود أمامه الطريق غلمان الحرس ، ويحيط بـه الجنود الأشداء شاكي السلاح ، وكأنما السلطان على موعد مع شعبه للاحتفال بذكرى يوم مشهود أو عيد ديني، لعله المولد النبوي الشريف..

فنحن في شهر ربيـع ..

ذهاباً بلا إياب..

رحيلاً بلا رجوع !..

فحين غادر أبو عبد الله ، آخر سلاطـــين بني نصر ، قصر الحمراء في ذلك اليوم القارس من الشتاء ، كان يعلم تمـام العلم أن الباب الذي أُغلق وراءه ، لن يفتح مرة ثانية له ..

فالموكب ، هو آخر موكب ..

واليوم ، هو آخر يوم ..

والشتاء ، هو آخر فصل ، في آخر عام ..

آخر فصل في كتاب « أندلس الإسلام » !..

* * *

ويمضي السلطان ، بلا سلطان !..

إلى النفي يمضي ، وإلى الهوان والضياع .

حوله آل بيته وسراريه .

بين يديه رجال الحاشية والبلاط ..

من ورائه صف طويل من الأتباع ..

في قلبه ندم ، وفي فمه علقم ، وفي عينه ضباب ينتشر سحائب ، ويتفرق قطرات ، مسجلاً أسى المعذب المقهور ..

والدموع التي راحت تبلل خديه ليست ، مع هذا ، دموع عين ، بل دموع ضمير !..

الآن ، آن أن يدفع الحساب ..

أن يلقى الجزاء العادل لاستعدائه الغريب على القريب ..

لقد أضله الهوى .. أزله الجشع .. استذلته شهوة الحكم فحالف الشيطان ليظفر بالسطوة ، ويمتلك السلطان ..

حالف فرديناند « ملك قشتالة » واتخذه ولياً يعينه على استلاب ملك أبيه ..

وانتصر ..

استولى على غرناطة . واقتعد العرش . وأمسك الصولجان.. ولبس التاج ..

لكن حليفه ما لبث أن خان عهده ..

انقلب عليه ، والتهمه فريسة سهلة ..

دك تحته العرش ، وحطم الصولجان ، وهشم التاج ..

بسيف الغدر والخيانة طعن أبو عبد الله أباه وأخاه ، فإذا هو بعد قليل بنفس هذا السيف المسموم طعين !..

* * *

وتحين لحظة الفراق ..

الموكب الحزين يتمهل في سيره ، وكأنه لا يسير ..

الخيل تضطرب خطواتها القصيرة من أمام لوراء ، ومن وراء لأمام كأنها تنوء بالفرسان ..

الأقدام لا تكاد تتحرك ، كأنما التصقت بالأرض .

القلوب في الصدور ثقيلة . والدموع في العيون ثابتة ، والأنفاس بالأنوف ملتصقة كأنما جمدها جميعها زمهرير الشتاء ..

ويتقدم السلطان المخلوع على ونى وإعياء كمن يمشي على الشوك أو يطأ النار ..

ويرتقي مرتفعاً صخرياً ، يشرف على الحمراء ، وسهل غرناطة ، والوادي الأخضر ، ومراتع التاريخ النضرة ، ومواطن العز العربي التليد الذي ضاع .

يرتقي آخر مرتقى – بآخر أرض « عربية » .. في آخر يوم من عمر الإسلام ..

يرتقي الصخرة الأخيرة ، لينظر النظرة الأخيرة ، ويذرف الدمعة الأخيرة ..

ومن فوق مرتقاه، تلك الصخرة الحزينة التي سماها الأسبان، منذ ذلك اليوم : « آخر حسرات العرب ».

يلقي أبو عبد الله آخر بنى الأحمر نظرة الوداع ..

ويخنقه الندم .

ويعصره الألم ..

وينتهبه البكاء ..

وكأن ضميره هو الذي يذرف الدموع !..

* * *

خطب ولا كالخطوب ..

ومحنة يجل فيها العزاء ..

فإن يكن من بين حاشيته من واساه ..

أو تكن زوجه السلطانة هونت عليه بعض ما يقاسيه ..

أو يكن أمل كاذب راود نفسه في هذه اللحظة القاصمة من يأس الأبد الذي لا يحول أو يزول قد ألقى بروعه أنها لن تكون النهاية ..

ان يكن هذا كله ، وغيره ومثله ، فان عائشة أمه ، قد أبت أن تجامله أو تصب الرجاء في قدحه المثقوب !..

في صرامة الجد ، وقسوة الصراحة ، اكتسحت وجهه بنظرة غاضبة ، وقالت بصوت يقطر السم والمرارة :

« ابك ، مثل النساء ، ملكاً مضاعاً ..

لم تحافظ عليه مثل الرجال » !..

ثم أسدل الستار !..

طويت الصحف ..

جفت الأقلام ..

أطبق إلى الأبد سجل أندلس الإسلام ..

وكان هذا والقرن الميلادي الخامس عشر ، يهم أن يمحو بقايا أعوامه عن وجه التقويم !..

* * *

القسم الخامس :

(١)

٩٠٤ هـ

قرن هجري يزحف إلى النهاية ..

وقرن ميلادي مقابل لم يبق من عمره غير عام ..

غرناطة لم يكد يمضي على استسلامها إلا القليل ..

عهد الامان الذي ختمه فرديناند بخاتمه لابي عبدالله : آخر ملوك بني نصر ، سادة الحمراء ، ما زال طري المداد ..

الملك الطريد لا يهدأ باله في مقاطعته « البشرات » فيفر منها — وجلده عليه ! — إلى افريقية لائذا منها بمدينة فاس ..

المسلمون بملكه الضائع ، وبكل مواطن المسلمين في أرض الأندلس ، يهيمون في ضياع !

تعصرهم الحسرة على ما كان، وينهشهم القلق مما سيكون ..

فالأفق فوقهم غيوم على غيوم ..

والجو حولهم عواصف وأعاصير ..

والهواء الذي يستنشقونه سموم ..

والدنيا كلها ظلام ..

* * *

عام واحد باق ، ثم ينطوي القرن الخامس عشر الميلادي في الأفول ..

عام حالك .. طويل .. مرير ..

يتعثر على أرض الزمن ..
يسير في تثاقل مخمور ..
كأنه ليل بلا نهار ..
كأنه عبء الهموم ..
كأنه الأبد لا يزول !..

* * *

قبل هذا بنحو عامين اثنين. أرسل « مانويل » ملك البرتغال ثلاث سفائن كبيرة ، بأسماء ثلاثة قديسين : « سان جبرائيل ، وسان رافائيل ، وسان يجييل » وبقيادة الميرانتي — أمير البحار — فاسكو دي جاما ، لينطلق بها صوب الجنوب ، إلى سواحل افريقية ، وبحر الهند ، وسحر الشرق الذي تفوح منه روائح القوابل ، وعطر الرند ، وعبير البخرة العود .. وتلفه روعة الخيال ، وضباب الأساطير ؟..

قبل هذين العامين بنحو خمسة ، أرسل فردينــاند وإيزابلا ملكا اسبانيـــا المسيحية « الناشئة » !.. ثلاث سفائن شراعية صغيرة : « نينا، وسانتا ماريا ، وبنتا » مع كريستوفر كولمبوس البحّار الجنوبي الإيطالي، ليمضي بها صوب الغرب، في مياه المحيط الأطلسي ، إلى عالم بعيد مجهول ..

قبل هذه الخمسة بنحو عام ، كانت الأرض الأندلسيــة قد مزقت عروبتهـا ، وغيرت وجهها ووجهتهـا ، وتنكرت لعز مؤثل ، وغربت عن أفقها ، إلى الأبد ، شمس الإسلام ..

* * *

حينذاك بدأ الاوروبيون، من مهد الحضارة العربية بأيبيريا، عصر الكشوف والمغامرات ..

الخير الذي عاصروه في الأندلس ، وذاقوا طعمه الشهي ، على مدى قرون وقرون ، جعلهم يَصْبون – جشعاً ونهماً – للاستيلاء على كنوزه المطمورة في ذلك الجانب الآخر من العالم : بلاد الأسرار ..

الشمس الغاربة منذ قليل عن الأفق الإسباني ، حفزتهم على الخروج من حدود الزمهرير والظلام لارتيــاد مواطن الدفء ، ومنابع الشروق ..

المعرفة التي حملتها إليهم الثقافة الإسلامية ، من زمان طويل عبر زقاق سبته ، وصخرة طارق ، وجزيرة طريف ، مسحت

على نواظرهم المطموسة بيد شافية نورانيـــة ككف المسيح ، فأزالت عنها غشاوة العمى والجهل والخرافات ..

وها هم أولاء بغير خوف من الخفي المجهول، يهبون للكشف عن دنى جديدة ..

يركبون الأخطار ..

يجوبون البحار ..

يشقون في المياه مسارب غير مطروقة ..

* * *

الآن استضاءت عقولهم بنور الحقيقة ..

تحررت من أوهامهم الموروثة ..

لم يعد يفزعهم الابحار غربا في المحيط المترامي: بحر الظلمات، الذي لقنتهم أوروبا أنه طلسم كبير ..

دنيا مائية شاسعة من الهلاك والتيه ..

حافة للعالم تنتهي بهاوية تسقط فيها كل سفينة تترحـل على موجه الجياش بالأسرار ..

أيضاً ..

لم يعد يفزعهم السفر في بحار الجنوب التي علمتهم أوروبا أنها تفيض بالفواجع ..

مياهها تغلي وتلتهب كالنار ..

بها جبال من المغناطيس تجتذب المسامير من السفن لتتركها بقايا ممزقة من الخشب والقلاع والحبال ..

من حيوانها نوع رهيب يستطيع ابتلاع سفينة ضخمة ، بكل من عليها ، وما فيها ، كما يزدرد الثعبان الهائل العصفور الصغير ..

أيضاً :

لم يعد يفزعهم ما حذرتهم إياه أوروباهم الغارقة في الجهل ، من مخاطر الملاحة في البحار المفتوحة ..

أن يخشوا اليم العملاق ، فسفنهم فيه دود على عود !..

أن تجرفهم إلى الهلاك بالقاع هذه الدوامة ، أو إلى التهشم على الصخر هذا التيار ..

أن يضلوا الطريق ، حتى الموت على الماء الأخضر ، كما يضله على الرمل الأصفر ، راكب الصحراء ..

* * *

كل هذه الأهوال ، كانت من نسج خيالٍ جبان مريض ..

من غرس جهالة عمياء رعناء ..

وليدة خزعبلات ..

وكل هذه المخاوف انجابت الآن ..

لم يعد لها في اذهانهم اليوم حساب ..

تحت دفء المعرفة العربية انقشعت كضباب ..
فإشعاع عقول أهل الإسلام هداهم إلى طريق الحقيقة ..
أزاح عن عيونهم عصائب الأوهام ..
ملأ صدورهم ثقة ، وقلوبهم طمأنينة ..

الجامعات ومعاهد العلم الاسلامية الأندلسية بلشبونه وقرطبة واشبيلية وطليطلة وغرناطة ، أعلمتهم ما جهلوا وجهل الأسلاف عن الكون: بروجه وأفلاكه ،نجومه وأقماره ،أراضيه وبحاره..

دراسات أساطين الفكر العربي ، كالخوارزمي وابن حوقل والبيروني ، كشفت لهم عن معالم الجغرافيا الفلكية والرياضية والوصفية ..

كتابات المحققين والرحالة العرب ، كالأدريسي والمسعودي وابن بطوطة ، جعلتهم يرون – برأي العين الشاهدة لا برأي الظن المتوهم – أماكن الثغور والبلدان ، والرؤوس والخلجان ، والبحار والانهار ،وأجناس الانسان وأنواع الحيوان ..

بحوث العلماء المسلمين في الفلك والطبيعات زودتهم بالكثير عن المسافات والمواقيت ، ومواقع النجوم ، وخطوط العرض والطول ، وحركة الرياح، ومساقط المطر ،وتقلب المد والجزر، ومسار العواصف والأعاصير ..

الخبرة العملية العربية بفنون الملاحة وعلوم البحار ، قدمت لهم عظيم الأبحاث : كتب الإرشاد الملاحي ، والخارطات البحرية ، والجداول الفلكية . ومختلف الأجهزة والادوات

الملاحية المستخدمة في الرصد والتوجيه، كالاسطرلاب ،والبوصلة البحرية ، ووردة الرياح ..

* * *

من خلال هذه الموارد الغنيـــة بثمرات الذهن العربي ، في المشرق والمغرب ، اكتسبوا معرفة مكنتهم من مجابهة البحر ، وتحدي أخطاره ..

ومع ذلك فقد ظل افتقارهم إلى مهارة العرب العمليـــة ، ودربتهم الدقيقة . قائماً إلى ذلك اليوم الذي بدأوا فيه حركة الكشف والمغامرات ..

حتى « الاميرانتي » أمير البحار :فاسكو دي جاما — الذي أرسله ملك البرتغال بالسفن الثلاث — كان في حاجـة إلى هـذه الدربة ، وإن تصدى لاختراق ميـاه الجنوب ، وهو واثق من النجاح ..

فما أن بلغ بحر الزنج في شتاء ذلك العام ، بعد التفافه حول رأس العواصف ، أو رأس الرجاء الصالح ، كما نسميه الآن ،حتى بدا كالمبهوت ..

وألقى مراسيه بثغر ماليـندي ، على الشاطىء الكيني ، وراح يتفكر ، وهو حيران ..

كيف عساه يتابع سيره إلى الهند ، مناط رحلته التي أعد لها هذا الاعداد ؟.

متى يبحر .. وأي مسرب يسلك .. وكم من الفراسخ عليه أن يسير ؟..

وعندما أخفق عِلْمه ، وخانته خبرته ، ومضت به الأسابيع مغلول الحول ، مشلول التفكير ، سعى إلى سلطان ماليندي العربي ، بالود والثناء والهدايا الفاخرة ، لعله أن يجد عنده الخلاص ..

ووعده السلطان ملاحاً عربياً يرشده إلى الطريق ..

* * *

غير أن الأيام توالت عليه ، والوعد وعد لم يجاوز النية المضمرة إلى عالم النور !..

وقلق فاسكو ..

فالزمن يتسرب من بين يديه ..

ومصير سفنه ، هكذا ، معلق بالمجهول ..

عندئذ أقبل على ما يقبل عليه « قرصان » !..

دعا رجلاً من أهل السلطان إلى وليمة بسفينة القيادة ، ثم حبسه رهينة حتى يبر السلطان بوعده ويبعث إليه بالمرشد المنشود..

ونجحت الحيلة ..

فقد جاءه بعد قليل « معلمو كانا » .. كما تقول لغة تلك المواطن ، أو « خبير ملاحي » كما نحن نقول ..

وكان شيخاً يجاوز الستين ..

* * *

اللحظات الأولى من اللقاء بين الملاح العربي الشيخ وبين «الاميرانتي» البرتغالي الشاب، خلت من شعور هذا الأخير بالرضا ..

لكن حديثاً قصيراً تبادلاه عبر مترجم، غيّر رأي فاسكو، بعد قليل، في نفسه وفي الدليل ..

إنه حقاً أميرال، ولكنه أمام هذا العربي «صغير» !..

والعربي ملاح، ولكنه في عين الحقيقة والخبرة كبير !..

وعلى الأثر وكل الأميرال إلى الملاح قيادة الأسطول ..

ووصلت السفن ميناء فليفوت «كلكتا» بسلام بعد نحو ثلاثة أسابيع ..

بلغت الرحلة أربها المنشود ..

والتقى الشمال بالجنوب ..

* * *

منذ تلك اللحظة في حياة الكشوف، شقت أوروبا المنهومة طريقها في «البحر الكبير» – الذي يعرف الآن باسم المحيط الهندي – إلى ذلك الجزء من الشرق المجهول ..

سفنها أخذت تتوالى على بلاده وجزره، سنة وراء سنة، بل يوماً في إثر يوم ..

بعوثها راحت تتزاحم، في طمأنينة، فوق مياهه التي عاشت قروناً طويلة وهي تظنها تغلي وتضطرم بالحرارة كالنار !..

رجالها عرفوا – ونهبوا ! – مواطن التوابل والبهـــار ، والعطور والبخور !..

فلما آب فاسكو إلى البرتغال ، حتى انطلق من مواطنيـــه آخرون نحو هذه الأرض الجنوبية الغامضة ، السابحة في أريج البخور ، كما تنطلق إلى الفريسة الغافلة أسراب الذئاب !..

فتحت ستر الاتجار ، أقبل أولئك الجشعون يخفون الاستعمار..

وبالقهر والغدر ، أخذوا ما لم يثمنه مال ..

وعندما انقضى على الرحلة عام ، ضربوا ميناء « فليفوت » بالمدافع ، إرهاباً لأهـله – ومن وراءهم من المواطنين والتجار – أن يعترضوا تسربهم إلى داخل البلاد ، أو يحولوا بينهم وبـــين انتهاب ثروات أرضهم ، وأولها العطور والبهار ..

وعندما انقضى عام آخر ، كانوا قد بدأوا الزحف – بالقوة الباغية ، وبالسلاح الجديد المتفجر – على ساحل الزنج : « شرق أفريقية » ، وجزيرة القمر : « مدغشقر » ، وبضعة مواقـــع وجزر ، لتكون لهم قواعد ، تؤمن طريقهم إلى شبه القـــارة الهندية ، في البحر الكبير : « المحيط الهادي » ، وبحر هرقند : « خليج البنغال » ..

وعندما انقضى عام ثالث ، عاد الاميرانتي : فاسكو دي جاما ، على رأس قوة حربية بحرية ، وفي بزة رسمية مزركشة ، كأول حاكم عام للهند من لدن صاحب الجلالة البرتغالية ، معلناً ضمها لأملاك التاج ..

وعلى نفس النهج الايبيري : نهج جيرانه الاسبان في الاندلس الاسلامية ، سار في الهند أميرال البرتغـال ، فنهب متاجر المسلمين ، وأحرق سفنهم ، وأشاع فيهم القتل وأعنف فظائع النكال ..

* * *

منذ تلك اللحظة أيضاً ، لحظة بلوغ البرتغال ساحـل الهند علا نجم فاسكو في سماء الكشوف ..

بدا وهو قاهر بحار الجنوب ..

دخل سفر التاريخ كأول فاتح لمغاليق عوالم التوابل والبهار ، ودنى العطور والبخور ..

وفي وسط هذه الضجـة المدوية التي تهافتت باسم الاميرانتي البرتغالي الشاب ، لم يكد أحد يسمع همسة بحرف واحـد من اسم الملاح العربي العجوز ..

هالة النور التي أحاطت التابـع «وضعت المتبوع في الظلال ! ..

الذي قاد الاميرال والاسطول ، أغفلهم النـاس وذكروا المقود ! ..

ومع ذلك فبحار الجنوب تكاد تذكره إلى الآن ..

ربابنتها وملاحوها الوطنيون ما زالوا يقرأون الفاتحة لروح هذا العجوز ، مخترع البوصلة البحرية ، ترحماً عليـه ، وعرفاناً بفضله ، كلما ركبوا البحر ، وهمت سفنهم أن تشق الامواج ..

إنهم يحققون له رغبة عزيزة اوصى بها في مؤلف من مؤلفاته، إذ كتب يناشد قارئيه :

« ثم اسأل الرحمن يا معـــواني
إذا تلوت النظم والمعـــاني
واقرأ لي «الحمد» مع « الاخلاص»
تنفعني في العرض والخلاص! »

* * *

ومدينة « مالنيدي » على ساحل كينيا – التي التقى الملاح العربي العجوز فيها بفاسكو ، وقاد منها سفنه إلى البحر الكبير وشاطىء الهند – ما زالت أيضاً تذكره ..

فحين ينزل المسافر بهذا الثغر الافريقي ، الذي شهد حيرة الاميرانتي البرتغالي ، ووقوفه في مياهه بسفنه وهو مبهوت ، لا يعرف إلى أين يسير ..

حين يطأ هذه البقعة من الارض ، التي وطئتها منـــذ خمسة قرون قدما « معلمو كانا » وهو يخف ، بدعوة السلطـــان إلى هداية الاميرال ..

حين يجول بشاطىء « بحر الزنج » على كثب من المكان الذي رسا فيه « القديسون الثلاثة ! » أسابيع عديدة في انتظار الملاح العربي العجوز ..

عندئذ قد تقع عينه على نصب أقيم على مقربة لتخليد ذكرى « معلمو كانا احمد بن ماجد » خبير الملاحة الفلكية ، وربان البحار الساخنة ، الذي قاد، إلى هدفهم المجهول،ذلك الاميرانتي البرتغالي الشاب ، ورفاقه القديسين !..

(٢)

١٤٩٩ م

مرة أخرى إلى الوقت الذي أخذ فيه القرن الميلادي يلفظ آخر أنفاسه ..

إلى اللحظات القصيرة الحاسمة في تاريخ أوروبا« العربية » !

إلى الأفق الأندلسي وشمس الاسلام الغاربة عن سمائه ..

إلى موعد انطفاء النور ..

في كتابه : « العرب في اسبانيا » يعلق المؤرخ الغربي لين بول ، على المحنة التي أحاقت بالدولة العربية والمسلمين ، في تلك البقعة ، وفي ذلك العهد ، فيقول :

« .. .. وقد طرد العرب .. وبزغ نجم اسبانيا المسيحية ، فترة من الزمن .. ولكنه أضاء كما يضيء القمر بضوء مستعار ليس منه ؟.. ثم تلا هذا خسوف ، أعقبه ظلام دامس ، ما زالت اسبانيا ، منذ ذلك الحين ، تتخبط فيه إلى الآن » ..

* * *

ورجعة إلى الوراء ..
إلى مقدمات المحنة التي عاناها في اسبانيا المسلمون .
قبل موعد اغتيالهم بأكثر من أربعة قرون ..
في القرن الحادي عشر ..
عندما ارتفعت الدعوة المحمومة ،في القارة الأوروبية للجهاد « المقدس ! » :

لاعزاز شأن « الصليب » ..
لاسقاط « الهلال » ..
للقضاء على الاسلام والمسلمين ، في الشرق العربي ..
تساءل عندئذ مسيحيو أوروبا :

« كيف نترك الأندلس الاسلامية ،وهي على مسيرة خطوات منا ، وعلى مرمى السهم .. ونجتاز الجبال والقفار ، والبحار والأنهار ، والمشقات والأخطار ، لنضرب المسلمين والاسلام في ذلك المكان البعيد » ؟..

لكن البابا كشف لهم عن الحكمة الخفية ..
قال :

«ضرب المسلمين في الأندلس ، تحرير لاسبانيا .. أما ضربهم هناك في الشرق : فقضاء على موطن الاسلام ، ونبع حياته ، واجتثاث له من جذوره ! .. »

وحانت الآن لحظة الأندلس ،بعد أن عجز الغرب ، قروناً طويلة ، عن هدم القوة ، وردم النبع ، واقتلاع الجذور ..

وبدأت الصليبية الاسبانية ..

* * *

لم تكن أشهر قلائل تمر على العهد المبرم بين ملك قشتالة ، وسلطان غرناطة المخلوع ، حتى تنكر العاهل المسيحي الظافر لموثقه ..

نقض عهده بالأمان للمسلمين في المال والنفس والدين ..

كسنة الغرب مع الشرق، في العصر القديم والعصر الحديث ..

كأي غربي حيال أي عربي ..

ككل صليبي أضله الهوس الديني ، وأعماه عن القيم الانسانية ، التعصب المقيت ..

وكانت له أحلك الصحائف في سجل البغضاء المسعورة !..

كان أشد تعصباً ، وأثقل وطأة على المسلمين من باباوات الكنيسة مبتدعي التعصب . وأفظع ضراوة من جودفري دو بويون ، سليل شارلمان ، ومن هولاكو الرهيب سيد المغول الوثنيين !..

* * *

وشنها صاحبا الجلالة الكاثوليكية فرديناند وايزابلا على « رعاياهما » مسلمي الأندلس ، حملة صليبية مزدوجة :

صليبية إبادة ..

وصليبية تنصير ..

وقاد هذه الحرب الهمجية الرعناء ، كاهن الملكة الخاص ، وصاحب اعترافها ، الكردينال دي سيسنيروس ..

فهي « مقدسـة » فيما رأى مشعلوهـا ، يجب أن تنطلق بنفحات « الدين » ، ويتولاها رجال الدين ..

وهي لهذا ينبغي أن تطارد الاسلام والمسلمين، وآثار الاسلام والمسلمين ، بالافناء والتدمير ..

ولم يسلم منها، في إطار ما هدفت إليه أحد أو شيء له صيغة اسلامية ، أو يذكر بالاسلام من قريب أو من بعيد ..

لم يسلم منها إنسان ..

ولا تراث ..

ولا مظهر ..

ولا أسلوب حياة ..

* * *

تعقبوا بالنكال ، في الناس – من جميع الأجناس – الاسلام وظل الاسلام ..

في العرب .. بقايا السلالات القديمة من عهـد الفتح ، التي تناثرت على الأديم الاسباني الشاسع ، تناثر حفنة من الحصى في خضم من الرمال ..

في الأفارقة والبربر .. الذين وفدوا على البلاد مـع الغزو الاسلامي الأول ، أو لحقوا بها غزاة آنا ينشئون فيهـا الدول

أو الدويلات ، ومهاجرين آنا يحيون فيها رعيــة ، واستقر بهم على أرضها المقام منذ أجيال ..

في المدجنين .. أولئك المسلمين الذين تعثر بهـــم طالعهم ، ففدوا تبعاً للأمراء والملوك الكاثوليكيين . يدفعون لهم الجزية . ويعيشون مندمجين في الحياة الاجتماعيـــة لمواطنيهم المسيحيين إندماجاً غلّب على ألسنتهم لغة الاسبان ، بعد لغة القرآن ..

في المورشلوس .. الاسبان الذين اعتنقوا الاسلام ، وتوالت عليهم الأعصر ، وهم على هذا الدين ،يؤدون شعائره،ويسلكون مسلك أهله ، حتى لقد لقبهم بنو جلدتهم : « العرب الصغار »..

في المستعربة .. أهل اسبانيا من المسيحيين ، الذين صبغتهم الحضارة الاسلامية بصبغتها ، فاتخذوا اللسان العربي لغـــة ، واللباس العربي زياً ، وتسموا بأسماء مزدوجة شطرها اسباني ، وشطرها الآخر عربي ، وكتبوا لا تينيتهم بالحروف العربية ..

* * *

في كل هؤلاء تعقب الحكيم الكنسي الاسباني الاسلام ومظاهر الاسلام ..

الآثار الثقافية ، وتراث الفكر الاسلامي ، مزقت والقيت طعمة سائغة للنار ..

النظم الاسلامية نقضت من الأساس ..

مظاهر السلوك الاسلامي الشائعة في المجتمع ، من شخصية أو عامة ، كالعادات والتقاليد ، حوربت بضراوة ..

وشهدت غرناطة كيف كان الاضطهاد الصليبي الجديد يحتفي بحرق الكتب والمخطوطات ..

وشهدت ، على الأثر، بقية المدن، في طول اسبانيا وعرضها، المحارق تنصب ، في كل مكان ، لثمرات العقول والأفهام ، التي نشرت على أوروبا النور ..

وشهد التاريخ كيف راح المسلمون ، وربمـــا أيضاً مستنيرو المسيحيين في ذلك العصر ، يخبئون هذه الكنوز تحت الأرض فراراً بها وبأنفسهم من الدمار .. وآية ذلك ما قد كشفت عنه الحفريات ، أخيراً ، من مجموعات المخطوطـات تحت بلاط بيت قديم في « أرجون » ..

بل الحمامات الأندلسية ، التي عممهـــا المسلمون في مختلف أرجاء اسبانيا ، وكانت آية في روعة الفن،وعنواناً أنيقاً لشعب نظيف ، وتعبيراً عن سلوك اجتماعي سوي ، أمر أحـــد ملوك الدولة المسيحية الجديدة فهدمت، لأنها أثر من آثار الكفار !..

* * *

تعصب مسعور ..

تفه تفكير ..

نكسة للعقل البشري ..

غلبة للظلمة على النور ..

* * *

على أن التفه الفكري ، والتعصب المسعور ، ارتبطا بحلف « مقدس » ! للقضاء على الشعب الأندلسي المسلم ، وعلى عقيدة الاسلام ، بكل الوسائل والأساليب ..

بالقتل ..

بالحرق ..

بالتعذيب ..

بكل فنون الابادة والتدمير ..

أُحرقت ذخائر العلم ..

أُلغيت اللغة العربية ..

حُرمت الشعائر الاسلامية .

قلبت المساجد كنائس ، وارتفع فوقها الصليب ..

أكره المسلمون على الخضوع لمراسم التعميد والتنصير ..

أجبروا ، في زواجهم ، على ممارسة الطقوس الكنسية ..

ومن أبى منهم ، فموتاً يموت ! .

* * *

ثم تلظى سعير الاضطهاد ..

استحدثت الصليبية الاسبانية نوعاً مبتكرا من أجهزة القهر والاكراه ، وأدوات الارهاب والعذاب ..

انشئت « محاكم التفتيش » ..

ووكل أمرها – من ألف الشبهة والاتهام حتى ياء القضاء والتنفيذ – إلى جماعة من الآباء الكاثوليكيين ..

كانوا ، بالمظهر ، رجال دين ..

من الأولى ينتسبون إلى المسيحية السمحة ، عقيدة الحب والطهر والسلام ..

يرتدون مسوح الرهبان ..

يعلقون على صدورهم الصلبان ..

يحملون في أيديهم الأناجيل .

أما في الجوهر ، بالقلوب والعقول ، فكانوا زبانية جحيم !..

وتساقط المسلمون باسبانيا ، على يد هذه الصليبية العاتية ، صرعى في ميادين الاستشهاد ..

في النفس والعقيدة كانت المثلة والابادة ..

وفي التراث والأثر كان الحرق والتدمير ..

* * *

كما لم يذق قط أحد من البشر عذاباً على هذه الأرض من عدو أغلف القلب ، أصم العقل ، معتم الروح ، ميت الضمير ، ذاق مسلمو الأندلس من طغيان السلطة ، وتعصب الكنيسة ، ووحشية محاكم التفتيش ..

فالملوك والأمراء يغرقونهم بقرارات النسف والقهر والاضطهاد .

والكرادلة والأحبار يفتون فيهم بحكم «الدين» ـ المزعوم ـ! وكلمة «الصليب» ـ المظلوم ـ!

ورهبان التفتيش وجنوده ينفذون فيهم القصاص كما تقضي به شريعة «التطهير»!..

وأدوات المحاكم، في الأقبية والسراديب، كفيلة أن تصهر عناد العنيد، فتدرأ شرها عنه بالخضوع للتعميد، أو بالنزول في قبر مجهول!..

وكانت هذه الأدوات ذات قدرة على النكال لا تخطر ببال..

منها «السيدة الحسناء».. وهي تابوت على هيئة فراش استلقت فيه صورة غانية حلوة وكأنها تتأهب لاحتضان عاشق ولهان.. فإذا دفع إليها زبانية التفتيش من أرادوا من ضحاياهم، أطبقت عليه ذراعها تضمه بمثل شغف مشتاق، بينما تبرز من جسدها ومهدها أسنة حادة تخترق جسده لحظة العناق؟..

منها أيضاً غرف بحجم الانسان. بعضها عمودي وبعضها أفقي، يحشر الضحية فيها وهو قائم أو وهو نائم، ثم يُغلق عليه، فلا يزال فيها، بلا طعام ولا شراب، حتى يقضي ويتحلل إلى تراب..

منها كذلك آلات خاصة، تدور ببطء ومهل، وفيها من كتب عليه أن يلقى بها حتفه. فماذا هي تضغط ضغطاً شديداً وئيداً على قدميه، فساقيه فبطنه فصدره فذراعيه فرأسه،

حتى تدق عظمه ، وتسحق لحمه ، وتحيل جسده كله عجينة طرية شوهاء ..

منها ، إلى جوار هذا « كلاليب من حديد ، بعضها يسل من الأفواه ألسنة من يتأبون على الاعتراف أو الارتداد ، وبعضها ينتزع الأظافر ، وبعضها يخطف الأثداء من صدور النساء !..

منها قيد كحلقة يلتف بالعنق فيشل حركته ،ويجمد الرأس معه في موضع ثابت . ثم يقطر الماء البارد بانتظام ، قطرة كل دقيقة ، على نقطة واحدة من جلد الرأس بعد حلق شعره ، حتى تتحطم أعصاب المتهم ، ويصاب بالجنون ..

ومنها .. ومنها .. ألوان من الهمجية وألوان ..

* * *

مع هذا كله ، فلم يكن المسلمون أعداء الحكام الاسبان ، بل رعية ..

لم يرفعوا سيفاً ..

لم ينقضوا طاعة ..

لم يؤججوا ثورة ..

فما عسى كان مصير فئتهم خليقاً بأن يصبح لو انها تلاقت في حرب مع جيوش أولئك الحكام في ميدان قتال ثم حاقت بها هزيمة ساحقة وعوملت معاملة عدو مغلوب !..

ما عسى كانت صليبية اسبانيا تفعل بالمسلمين أكثر مما فعلته، وأقسى وأفظع ، ومـا هم سوى مواطنين يخلصون المواطنـة ، ويبرون بقسم الولاء،ولا يرجون إلا الحياة مع رفاقهم المسيحيين في سلام ، كما عاش أولئك المسيحيون ، من قبـل ، آمنـين في ظل الاسلام ؟..

(٣)

٦٣٢ م

أبو بكر الصديق خليفـة رسول الله ، يأمر بإنفـاذ بعث اسامة ..

يشيّع الجيش إلى خارج المدينة .

يوصي أسامة بن زيد ، قائد المسلمين في هذا البعث ، أن يرأف بعدوه وان كان خروجه لقتال ..

يقول للجند وقائدهم ، في وصيته :

« أوصيكم بعشر فاحفظوها على :

لا تخونوا . ولا تغلوا . ولا تغدروا ..

ولا تمثلوا . ولا تقتلوا طفلاً صغيراً . ولا شيخـاً كبيراً . ولا امرأة ..

ولا تعقروا نخلاً ، ولا تحرقوه. ولا تقطعوا شجرة مثمرة..

ولا تذبحوا شاه ، ولا بقرة ، ولا بعيراً إلا لمأكلة ..

وسوف تمرون بأقوام قد فرغوا أنفسهم في الصوامع، فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له .. .. »

هكذا هو الاسلام ..

وهكذا هي سيرته في الناس، كل الناس ..

فللإنسان، كيفما كان، حرمة تصونه عن المثلة به، وانتهاك كرامته البشرية، ولو في القتال..

بل للحيوان والشجر حرمة، تجلها عن العبث ونزوات التدمير التي تسير عادة في ركاب أي جيش مغير ..

قوة نفس، من قوة دين ..

* * *

يذكر العقاد في « عبقرية الصديق » :

« .. وليس أكثر من الشواهد التي تشهدنا على قوة الدين (الاسلامي) في نفوس من آمن به ! إلا أننا لا نعلم بينها شاهداً أصدق في الدلالة على تلك القوة من أن يدين المرء نفسه بالدين أمام أعدائه، كما يدينها به أمام إخوانه في اعتقاده. ومن شواهد ذلك في إسلام الصديق أنه كره المثلة بأعدى الأعداء في ميدان القتال .. .. »

وقدم شاهداً قصة عمرو بن العاص مع « بنان » بطريق الشام ..

تقول القصة :

انتصر المسلمون ، على عهـد خليفـة رسول الله أبى بكر الصديق ، في فتوحهم للشام . وسقط صريعاً في إحدى معارك الفتح ، البطريق « بنان » قائد الروم ..

وعلى مألوف تقاليـد الحروب ، ومـا جرت عليه عـادة الجيوش من كل الدول ومختلف الأجناس في ذلك الزمان، أرسل عمرو بن العاص ، القائد العربي ، رأس بنان إلى أبي بكر في المدينة بشيراً بالانتصار ..

واستاء الخليفة . وأنكر فعلة عمرو أشد انكار ..

عندئذ انبرى له عقبة بن عامر، محاولاً تهدئة غضبه ، ومبيناً « مشروعية » ما فعل ابن العاص ..

قال :

« انهم يصنعون ذلك بنا ، يا خليفة رسول الله » ..

فازداد غضب الصديق . لم يرتض هـذا التبرير الذي يخالف شرعة الانسانية، ولا يساير مبادىء الاسلام، ورد مستهجناً يقول :

« أتستنون بفارس والروم !.. »

ثم أصدر أمره صريحاً واضحاً بلا ابهام :

« ألا لا يُحمل الي رأس .. إنما يكفي الكتاب والخبر »..

* * *

وعلى هذا النهج الخلقي ، الذي أستنه دينهم ، سار المسلمون في الشعوب التي استظلت بحكمهم ، بكل البلاد وفي كل العهود..

فالناس سواسية ..

ولا إكراه في الدين ..

يقول ووزي ، المؤرخ الغربي ، وهو يتحدث عن سياسة العرب في اسبانيا ، بعد الفتح :

« أبقت الدولة الاسلامية بالأندلس على السكان المسيحيين دينهم ، وقوانينهم ونظامهم القضائي..وقلدت بعضهم مناصب هامة ، منها قيادة الجيوش » ..

بل اعتبر الفتح الاسلامي نعمة على الاسبان :

« .. فقد حطم نفوذ الطبقة الممتازة ومن بينها الأشراف ورجال الدين . وأصلح حالة الطبقة المستعبدة . وأباح لملاك الأرض المسيحيين التصرف في أملاكهم وهذا ما لم يكن يسمح به القوط الغربيون » ..

واستمسك المسلمون بهذه السياسة السمحة أشد التمسك ، حتى لامهم عليها مفكرو الغرب ، وعزوا إليها انهيار الدولة الاسلامية الأندلسية التي ما كانت لتنهار لو أنهم اشتدوا على مسيحيي اسبانيا وحملوهم قهراً على اعتناق الاسلام ! .

يقول الكونت هنري دي كاستري :

« ان مبالغة المسلمين في الاحسان إلى خصومهم هي التي مهدت للثورة عليهم ، إذ أتاحت للمتعصبين (المسيحيين) أن

يجمعوا أمرهم على العصيان ، وأن يستغلوا الفرص للقضاء على الدولة التي منحتهم حق الحياة وحرية التدين .. ولو أن المسلمين عاملوا الاسبان مثل ما عامل المسيحيون الأمم السكسونية ، لأخلدوا للإسلام واستقروا عليه .. .. »

* * *

فهل كان أولى بالمسلمين ، حقاً ، أن يكرهوا عدوهم على اعتناق الاسلام ؟..

إن تكن هذه هي نظرة « النفعية » التي تتلمس الغلبة في كل سبيل ، فهي ليست بنظرة دين جاء منادياً بتحرير البشرية ، ومكرّما الانسان أن يستعبده إنسان ..

فالحرية حق لجميع الناس ..

ولا عبودية إلا لله ..

ولغير ذاته الالهية لا يُقبل خضوع ..

حتى الايمان به تعالى ينبغي أن ينبع من حرية الانسان دون ولاية عليه من امرىء سواه ..

فمن شاء آمن وهو حر . ومن شاء كفر وهو حر ، ليثبت في روع الناس أن من يمارس حريته مكتملة أمام الله ، أولى به ثم أولى أن يمارسها حيال العباد !..

فأما الجزاء فعلى الله ..

* * *

غير أن صليبية الاسبان هذه ، ككل صليبية غربية من قبل ومن بعد ، لم تكن تعرف هذا المبدأ الرفيع الأمثل الذي سنه الاسلام ، ولا تؤمن به ولو شبهة إيمان ..

فإيمانها الحق ليس بالله ..

ولا بأخوة البشر ..

ولا بالقيم الخلقية ..

ولا بكرامة الانسان ..

لكأنما أبناء الغرب هؤلاء – وإن عاشوا طويـلاً في كنف سماحة الاسلام ، وتمرغوا في رفقـه وأريحيتــــه – قد أبوا إلا الارتداد ثانية إلى همجية آبائهم الأوائل ، آخذين أخذ الضواري بشريعة الغاب ، أوفياء غاية الوفـاء لغريزة الحيوان وإن أقلعوا عن ارتداء جلود الحيوان !..

لكأنما عقولهم ظلت على نفس حال عقول الأسلاف جهالة وظلمة ووحشية ، وإن استعاضوا كساء بكساء، وغطاء بغطاء، فلبسوا الثياب بعد الاهاب ، ووضعوا القلانس على الهـام بدلاً من رءوس الثيران والثعالب والدببة والذئاب ..

لكأنما كهنوتهم شاء لهم أن يكونوا أوليــــاء على القلوب والضمائر ..

قوامين على عباد الله من دون الله ..

أكثر غيرة من الله على الله !..

وعندما بدأت الكنيسة ، باسم مسيحية السلام والمحبة ، مهمتها الصليبية ، كان حالها كما قال شوقي :

« ورُبّة بيعة[1] عزت وطالت
بناها الناس أمس مسخرينا
مشيدة لشافي العمى : عيسى
وكم سمل[2] القسوس بها عيونا » !..

* * *

لكنهم سملوا ومثلوا ، وفتكوا وأبادوا ..

افترسوا « مواطنيهم » المسلمين افتراس الوحوش للحملان ..

نهشوا لحمهم حتى العظم ..

مضغوا عظمهم حتى النخاع ..

جرعوا دمهم حتى الارتواء ..

أكلوهم وشربوهم إلى الشبع .. بل الامتلاء .. بل التخمة .. بل الانتفاخ وانبعاج البطون !..

ويوم فرغوا من وليمتهم الشهية ، كان عدد « الذبائح » التي التهموها قد بلغ – بتقرير بعض المؤرخين – ثلاثة ملايين ..

ومع ذلك فهو ، فيما نرى ، تقدير مخسور ..

---

(١) ورب كنيسة .
(٢) سمل : يخرق العين

الوقائع البشعة خليقة بأن تضاعف ضحايا هـــذه الصليبية بضعة أضعاف ..

أسوار غرناطة وحدها ، عند سقوطها في يـد فرديناند ، كانت لا تضم أقل من نصف مليون ..

فكم بقرطبة .. واشبيليـة .. وطليطلة .. وبلنسيــه .. ومالقة .. وغيرها من المدائن الممتدة في اسبانيا من أقصى الشمال عند البرانس حتى الجنوب على ساحل المضيق !..

* * *

القسم السادس :

(١)

١٩٦٧ م

الفصل : الصيف .

الشهر : يونيه .

المـدة : بضعة أيام ..

بل بضع ساعات !..

الجو سعير .

الهواء شعلة ..

النهار حريق ..

والليل رماد ..

* * *

ليس الحر وحده هو الذي كان يرسل اللهيب ..

الأنفاس نفسها كانت تشتعل ، حين الشهيق وحين الزفير ، كأنها لهثات الغضب الاسطورية التي تندلع ناراً من منخري تنين !..

الأعصاب أيضاً ، في ثنايا الجلود والعضلات ، كانت تحترق، كأعواد حطب جاف يتغذى بها أتون !..

جهنم كانت تضطرم في القلوب ، كأنهـــا الحمم الثائرة في بطون البراكين ..

الجمر كان يترجرج كقطر الزئبق قطرات حمراء حيرانـة في العيون ..

على الأفق الدامي كانت تسبح بقايا من دخان البارود ..

وفوق الأرض المجروحة كان يتناثر غبار الدمار ، وتزحف رائحة الموت ، وتسرح زهمة الدم المسفوك ..

* * *

في عمر الزمن كانت المدة قصيرة قصيرة ، لا يـــكاد يحسب لها حساب ..

وبحساب المشاعر كانت طويلة طويلة ، كأنها الأبد .. ثقيلة ثقيلة ، كأنهاالجبال ..

كانت بضعة أيام ..

ستة أيام ..

لكنها بدت متخمة بالأحداث والوقائـع الكبار ، كأكثر ما تحفل بها أعوام عديدة مديدة طوال ..

لكأنها قرون وأجيال ..

لكأنها الأيام الستة الأولى التي تم خلالهـــا انشاء الكون ، وخلق الأراضي والسموات وما فيهن من أشياء وأحياء !..

ففي إبانها انتهكت حقوق ..

وتحطمت مبادىء ..

وتغيرت أمور ..

وانقلبت أوضاع ..

وتخلقت نطفة صليبية جديدة ، في لحظة نشوة « عنصرية » مهووسة ، ومن اتصال « جنسي ! » داعر بين الغرب وابنـــة صهيون !..

حدث تخليتها في « البيت الأبيض » .

وسويت جنينا في « البنتا جون » ..

وكان المخاض على أرض القدس ، والضفة الغربية للأردن ، ومفاوز سيناء ، وهضبة جولان ..

* * *

عندئذ عاشت المنطقة العربية محنة العمر ..

أياماً سوداء ..

نهارها ليل ، وليلها ويل ..

صحوها ذل ، ونومها كابوس ..

أينما مشت عليها قدم تعثرت في الوجوم والسهوم ..

كانت في غشية ولا خمود ..

في يقظة ولا شعور ..

في سكر ولا خمر ..

أهلها كلهم أغرقهم الذهول ..

لكأنهم أسارى دوار ..

لكأنما يتيهون في الضياع ..

لكأنما يهوون في الفراغ ..

عيونهم مليئة بالحسرة ..

أهدابهم مشدودة إلى التراب ..

رءوسهم مدلاة ..

في قلوبهم همّ الدهر ..

في حلوقهم طعم المر ..

والشرق كله ، من حولهم ، حزين حزين ..

* * *

ليست الهزيمة المريرة التي باغتتهم هي التي أورثتهم هـــذا الاحساس ..

لا ضياع الأرض ..

ولا هلاك الأفراد ..

ولا تحطيم العتاد ..

فالحروب دائماً حروب : خسار وموت وخراب ..

والمعارك دائماً معارك : قتلى وجرحى ودمار ..

أحياناً فر وأحياناً كر ..

أحياناً هزيمة وأحياناً نصر ..

والصراع الذي خاضوه ، هذه الأيام الستة — وما كادوا — ! إن هو إلا مرحلة من مراحل الصراع الكبير الذي كتب عليهم أن يخوصوه ..

إن هو إلا جزء من قدرهم المقدور ..

إن هو إلا حلقة في سلسلة كفاحهم الطويل ، ضد التعصب العنصري الأحمق والهوس الديني المجنون على تعاقب الأجيال ومر العصور ..

إن هو إلا موقعة من مواقع « صليبية الأبد » ! التي يشنها عليهم أبناء الغرب ، منذ قديم ، بين حين وحين ، وإن بدوا الآن في مسوح أحبار صهيون !..

ولا ريب ..

فالغرب هو الأصل ..

وما عداه من صنائعه وعملائه ، ومن الوجوه والمخالب المستعارة التي يستغلها ، فروع ..

* * *

كلا !..

ليست الهزيمة الحربية هي التي سقت العرب المر.بل الغدر .

ليست الضربة المباغتة التي فاجأتهم بها اسرائيل هي ما أفقدهم التوازن ، وأسلمهم إلى ذهول الدوار بل التغرير ..

ليس تفوق العدو ما طوح بهم في قلب هاوية الضياع إلى القاع ، بل الخداع ..

فحين لاح أن الأزمة على أرض الشرق الأوسط توشك أن تفجر الحرب بين العرب واسرائيل ، وقف الغرب كله يناشد الفريقين ضبط النفس ، ويترنم بانشودة السلام ..

ونشط « الخط الساخن » بين البيت الأبيض والكرملين للاتفاق على أنجح الوسائل ، وأفضل الحلول التي تحول دون تفجر البارود ، ووقوع الصدام ..

وانبرت الأخت الغربية الكبرى : امريكا ، تحذر طرفي النزاع أن ينزلقا إلى استخدام السلاح . وصاحت بهما في حزم قاطع :

« لاقتال » !..

وبادر رئيسها ليندون جونسون ، يمسك بين أصابعه خيوط الأمور ، ويعلن للعالم أجمع أن بلاده سوف تتصدى – بغير توان ، وبكل ما تملك من قوى الردع الجبارة – للوقوف في وجه من تحدثه نفسه من الفريقين بإطلاق أول قذيفة ..

واستبق السفير الروسي الأحداث ، فانطلق في هدأة

السحر ، قبيل الفجر ، إلى باب عبد الناصر ، يدقه عليه ، ليوقظه من نومه ، مهيباً به ، باسم أمن المنطقة ،بل أمن العالم، أن يملك غضبه ، ويأمر الجيش المصري المتحفز في سيناء أن يمتنع عن الهجوم ..

وأسرعت الدوائر السياسية الامريكية ، فدعت على عجل مندوباً من مصر إلى الالتقاء بأساطينها خلال يومين اثنين ، للتفاوض من أجل فض النزاع الملتهب بالحوار ، لا بالنار ..

وقضى العرب ليلتهم تلك ، دون سائر ليالي شهر انصرم ، وقد استرخت منهم الأعصاب المشدودة ..

بَعد الخطر ..

هدأ الحذر ..

انفتحت في الأفق الغائم كوىً تبعث النور ..

فلأول مرة تجتمع على رأي واحد ، ازاء أزمة ساخنة ، كلمة القوتين العظيمتين في العالم : الاتحاد السوفييتي والولايات المتحدة الامريكية ، ومن ورائهما « الغرب الشرقي » والغرب الغربي ، أو الكتلة الشرقية والكتلة الغربية ..

* * *

وبات الوطن العربي على طمأنينة ..

ولم لا ؟ ..

لقد بدا ، بما لا يدع مجالاً للشبهة ، أن الهـدوء تغلب على الانفعال ..

وأن مارد السلاح العربيد أدخل القمقم ، وأحكم عليه الرتاج ..

وأن « مارس » الجبار أحنى رأسه لحمامة السلام الوديعة ..

* * *

لكن هذا كله لم يكن ، في حقيقته ، سوى حقنة مخدرة !..

كان حيلة ماكرة ..

كان خدعة محبوكة ..

كان لعبة قذرة !..

وابتلع الوطن العربي – ساهياً غافلاً – هذا الطعم الغربي ، فوقع في الشرك المنصوب ..

لم تعلمه عبرة القرون الخوالي ..

لم ينتفع بتجاريب ماضيه ..

وعلى حين فجأة ، وهو غارق في أحـلام السلام ، ودهمت أرضه ، في كل مكان ..

دكت مواقعه ..

اغتيلت ، وهي نائمة في حظائرها الآمنة ، طائراته ..

حطم عتاده وسلاحه ..

مزقت جيوشه القابعة مطمئنة على حدوده ..

وطىء شرفه ، وديست مقدساته بنعال الدولة اللقيطة !..

* * *

آفة الأمة العربية سلامة الطوية ..

سليقتها الشرقية الصافية .. التي تنتظر دائماً من الإنسان ، أي انسان ، في أي زمان ، وبأى مكان ، التزام مبـــادىء الانسانية .. وتتوقع دائماً إخلاص كل بشري لكل البشرية .. ثقتها العميقة في البسمة ، وفي الكلمة ..

إيمانها الراسخ بأن ما يقال ما كان ليقال إلا لكي يُفعل ..

ولا غرو ..

وهل القول إلا التعبير الصوتي عن ثمرة التفاعـــل بين حس العاطفة ووعي الفكر ؟..

وهل الفعل إلا التعبير المادي عن هـــذه الثمرة العاطفية الفكرية !..

* * *

وكان حتما ، بعد تلك الخدعة الغربية الاسرائيلية ، أن تصيب العرب ، مع الصدمة الحربية ، أعنف صدمة نفسية ..

فما حدث جاء مخالفاً في النتيجة عما تؤدي إليه المقدمة ..

مبايناً بين الواقع والمنتظر ..

مغايراً بالفعل عن القول ..

كان حتماً أن تنتكس فيهم الثقة بالنفس وبالغير ..

ويهتز الإيمان بالقيم ..

ويضطرب بأيديهم الميزان ، ويختل بهم الاتزان ..

وعندما انقشعت عن عيونهم سحائب الغبار والدخان بعض انقشاع ، استطاعوا أن يتبينوا ، بنظرة جوفاء ساهمة تتسلل خجلاً من وراء الجفون المدلاة ، انهم ريشة في يد إعصار ..

هائمون في دوار ..

دائرون في فراغ ..

سابحون في تيه ..

فما تلوح لهم أرض ثابتة ترتكز عليها الأقدام ..

وما تبقت لهم قيمة مدخرة تعصمهم من الضياع ..

والمهوى تحتهم سحيق .. سحيق .. سحيق القاع !..

* * *

وترنحت اسرائيل نشوة وخيلاء ..

أسكرها الغدر ..

رشفت الدم ..

سرها النصر ..

وقهقهت طرباً وعربدة ، ملء الحناجر ، وملء الأفواه ..

ومن حولها الغرب المـادي – إلا ندرة بلا أثر – سدنـــة وأولياء وعشاق ..

منه من يحرق في محرابها البخور ..

منه من ينثر في طريقها الزهر ..

منه من يغسل قدميها بالعطر ..

منه من يرتل فيها الثناء أناشيد ..

منه من يجدل لها أكاليل الغار ..

ومن هاود بينهم في مجاهرة العرب بعدائه لهم وشماتته فيهم، كان يحاول ، رياء ، أن يكحل عينيه بأدمع التماسيح !..

عرس في كل مكان !..

* * *

أما العرب فقد طحنتهم الخديعة ..

تقلبوا على النار ..

اقتاتوا الحسرة ..

بلعوا الشوك ..

مضغوا الصبار ..

ومن حولهم الشرق الروحـــاني بكلا جناحيه : القاصي والداني ، على ترامي حدوده، وامتداد رقاعه ، وتباعد بقاعه، حزين حزين ..

فأينا تسامع بمحنتهم أحد من أهـله .. مسلم أو مسيحي أو بوذي ، أو كيفما كان من العقائد . والنحـل والأديان .. أبيض أو أصفر أو أسود ، أو كيفـما كان من اللغـات والأجناس والألوان – جرى الخبر جرحاً في قلبه ، وشجا في حلقـه ، ودمعة في عينه ،أسفاً على ما أصاب فيهم القيم والروحانيات على يد الغدر والماديات ..

مأتم في كل مكان ..

* * *

في أقصى الشرق وأدناه كان في كل نفس بشرية مأتم للإنسانية .. للمبادىء المثلى .. لقيم الأخلاق ..

في الهند كما في أفغانستان ..

في باكستان كما في سيلان ..

في اندونيسيا كما في إيران ..

في غانا وغينيا وليبيا والسودان ..

في الملايو وبورنيو والتبت والفلبين ..

في غابات افريقيا السوداء ، وفي هضبات الصين الصفراء ..

ويوم حلا للقيطة الغرب المدللة : اسرائيل أن تقتحم آفاقاً جديدة من الاعجاب ..

أن تجتذب ، ببريق نصرها اللامع ، أنظار هـذا الشرق « الساذج » لتختلب أفكاره وتقديره اختلاب الوهج للفراشات .

يومئذ أوفدت عجوزها « جولدا مائير » في رحلة دعائية طويلة ، إلى الحافة الشرقية للعالم القديم ، لتكون لسانها للترويج ، وأداتها لكسب التأييد ..

* * *

وبلغت جولدا الشاطىء الأسيوي للمحيط الهادي حيث تتناثر على مياهه الزرقاء جزر حمراء وخضراء وسوداء ، تعانق الساحل ، وتتألق في وهج الشمس كقطع ثمينة بين الياقوت والزبرجد والماس النادر ترصع عقداً في جيد حسناء !..

وتبخترت في منابع الدفء والشروق ..

ثم اجتازت اليم إلى الفلبين ..

وعندما ظنت السيدة أن مفاتن دولتها ستلوي اليها أعناق الناس ، وتحمل عيونهم على الركوع والسجود ..

عندما همت أن تعيد على الاسماع بعض ما دار بالشرق العربي منذ قليل ، مدلة بما حققت اسرائيل ، يوم النكسة ، من نصر ، غدت به ذات صولة ومنعة وجبروت ..

عندما بدأت تحسر ثوب المباهاة عن ساقي الغرور ، كما حسرت ثوبها بلقيس ملكة سبأ عن ساقي الفتنة الأنثوية في ذلك الصرح الممرد بالقوارير لتخلب لب سليمان ..

عند ذاك اجتاحت العجوز عاصفة من الاستهجان ..

ضج أحرار جزر الفلبين حولها بالصفير والزئير ..

أبت عليهم « شرقيتهم » السوية الاصغاء لحديث الفخر بنصر هو الغدر ، وغلبة هي للشيطان على الانسان !..

وابتلعت المرأة لسانها السام ..

قهرها القوم على الخرس والسكوت ..

ثم قهروها على الفرار من ثورتهم ، بعد بضع ساعات ، وكان في خيالها ، حين أقبلت ، أن تعيش بينهم في حفـاوة وتكريم عدة أيام ..

* * *

ولم تغفر العجوز !..

لم تنس لأهل الجزر السبعة آلاف ، الملتفة بالساحل الشرقي لسيد المحيطات كالعقد المنظوم ، هذا الموقف المذل المهين ..

لم تستطع هضم الاهانة التي جعلت أنفها الشامخ تيهاً وصلفاً في الفضاء ، المعقوف كمنقار النسر ، يهبط من علياء كبريائـه ليتدلى إلى التراب ، بين ساقيها ، كخرطوم الفيل !..

وعلى الأثر ، شنت الصهيونيـة الموتورة على الشعب الوادع الصغير حرباً شعواء حمراء ..

في بضعة أيام نشط زبانيتها وعملاؤها من أبنـاء صهيون إلى تحريك الرماد الخامد ، ليؤرثوا الجمر المدفون ..

وضعوا الحطب ، ونفخوا في النار ..

أيقظوا الفتنة النائمة منذ سنين ، وأعادوا الى الحيـــاة ذلك الخلاف الدموي بين المسيحيين والمسلمين في الفلبين ..

مرة أخرى أعادوه ملتهباً حاراً ، كما كان منـذ قرون ، في عهد الاسبان ..

(٢)

١٩٧٠ م

الفلبين ..

دولة السبعة آلاف جزيرة ..

الجنوب الاسلامي من هذه القطرات الأرضية المتـناثرة على مياه المحيط ، في محنة تشد أذهان أهله ، والعـــالم معهم ، إلى الوراء نحو خمسين وأربعمائة عام ..

تسير القهقري بهم ، عبر الماضي ، إلى أيام فرديناند وإيزابلا وماجلان ..

تعود بالذاكرات إلى حياة العرب بالأندلس الاسلاميـــة في ظلال صليبية الكثلكة ووحشية رهبان التفتيش ..

تطلع على مسلمي هذه المناطق بحملات ارهابيـة مدمرة من الابادة والافناء ..

وفي خلال ثلاث سنوات – ثـلاث فقط .. يسقط نصف مليون شهيد ، ويهيم على وجوههم مائتا ألف شريد ..

وكانت أصابع الصهيونية وراء هذه المأساة ..

* * *

الذين نجوا من هذه المذبحة، كانوا يضربون، على غير هدى، في الأحراش والغابات والجبال والمستنقعات، ونحوها من مجاهل البلاد، فراراً من مصير مجهول، طرفه قتل، وطرفه الآخر اضطهاد ..

يهربون من المعلوم والمجهول، إلى مجهول مجهول !..

يعايشون الذعر والضواري والأوبئة والهوام ..

يقتاتون بذور عباد الشمس، وجذور النبات، وأوراق الأشجار ..

والذين لاقوا منيتهم، لم تهدأ جثثهم في القبور ..

لم يعصمها موتها من التنكيل .

لم تسلم من التشويه والتمثيل ..

زبانية الحقد والتعصب لاحقوها بالتمزيق، يبقرون البطون، ويبترون الأوصال، ويجدعون الأنوف، ويقطعون الأثداء، ويصلمون الآذان ..

فلكل قطعة من هذا اللحم الآدمي ثمن يدفعه مشعلو الفتنة، راضين سعداء، إثارة لشهوة الكراهية والغل الأعمى، في كل نفس مريضة لمتعصب سفاح جلاد مصاص دماء !..

وكانت أثماناً مجزية ، تحفز الجشعين ، بلا ريب ، على الولوغ في الدم ..

مثلا :

أذن الرجل المسلم بمائة جنيه ..

مثلا :

ثدي المرأة المسلمة أيضاً بمائة ..

وربما كانت هناك قائمة « رسمية » ! تصنف قطع هذا اللحم الآدمي « الشهي » ! مراتب ودرجات ، وفقاً لجودة النوع ، بحسب المكانات ، أو بحسب الأعمار ، أو بأي تقدير ومعيار ، وتحدد لكل قطعة منه أنسب الأسعار !..

* * *

أصابع الصهيونية كانت وراء المأساة ..

اسرائيل اللقيطة — من خلال عميلها اليهودي اليساندي مستشار الرئيس الفلبيني ماركوس لشئون الأقليات — ترسم الخطط الكفيلة بالقضاء على مسلمي الفليبين ، وتشرف على سلامة التنفيذ ..

تمنح الحكومة المساندة لنكسة التعصب عدة ملايين من الدولارات ، ترصد على تطوير أساليب الابادة ..

توزع أكداساً هائلةمن أفتك الأسلحة علىجحافل المتعصبين المسيحيين ..

يدرب خبراؤها اكثر من ثلاثين ألف مهووس على أحدث النظم الارهابية ، على غرار عصابات الهاجاناه التي نشرت الذعر والقتل والدمار بين عرب فلسطين ، منذ سنين ..

ثم تطلق هذه العصابات من فرق « الايلجا » أو « الفئران » على أهل الجنوب المسلم بالجزر السبعة آلاف ، ترهب منهم من ترهب ، وتقتل من تقتل ، وتستولي على أراضيهم التي تضم أغنى مناطق الفلبين بالذهب والنحاس والفضة والمنجنيز والحديد وغيرها من مطمور الثروات ..

* * *

أحد زعماء المسلمين بالجزر قال لاحدى الصحف العربية :

« .. جيش الفلبين هاجم مزارع المسلمين وممتلكاتهم ، ثم أجبرهم على الجلاء عنها .. أكثر من نصف مليون مسلم غدوا بلا مأوي .. في شهر واحد اضطرت إلى الهجرة الجبرية من أراضيها خمسون ألف أسرة .. وقوات الجيش تعارن جماعة الفئران لتنفيذ خطة الابادة .. .. »

آخر يقول :

« .. ما يحدث للمسلمين في الفلبين لا يمكن أن يصل إليه تصور إنسان يعيش في النصف الثاني من القرن العشرين .. والمجازر الرهيبة التي يتعرضون لها بالجنوب تجاوز مذابح المغول في بغداد .. »

صحفي مسيحي من الفلبين كتب تحقيقاً مصوراً جاء فيه :

« المسلمون ظلوا طويلاً ضحـــايا للاضطهاد ، محرومين من جميع الحقوق ، تتفشى فيهم الأوبئة ، ويعانون من حمـــلات إرهابية بشعة ما زالت تلاحقهم للآن..والحكومة نفسها تخطط لحرمانهم من اراضيهم ، فتستولى عليها باسم المنفعة العامة بحجة أن تقيم عليها مشروعات حيوية .. ثم لا تلبث أن تعيد توزيـع هذه الأراضي على المسيحيين .. »

إبادة وتشريد ..

تماماً كما فعل الاسبان في الاندلس بالعرب والمسلمين ..

وتماماً كما فعلوا أيضاً بمسلمي الفلبين ، قبل قرون ..

(٣)

١٥١٩ م

الى الوراء أكثر من أربعة قرون ونصف قرن من الزمان..

الى مدى تعصب الكثلكة في شبه الجزيرة الأيبيرية ..

الى العهد الذي استطاعت فيـه الصليبية الاسبانية بالحقـد والارهاب ومحاكم التفتيش ، اقتلاع جـذور الاسلام والمسلمين من الأراضي الاوروبية ..

مرة أخرى تفلت من يد الدولة البرتغالية فرصـة للتوسع والانتشار عبر البحار البعيدة، لتقع ثمرة ناضجة في حجر جارتها الاسبانية ..

كما أبت على كولومبس الايطالي أن يقوم – لحسابها – بحملة كشفية ، أبت أيضاً على ابنها البرتغالي : ماجلان ..

وكما اتجه كولومبس الى اسبانيا يناشدها معاونة على تحقيق حلمه ، اتجه أيضاً ماجلان الى فردينانـد وايزابـلا ، يستمدهما المعونة لتنفيذ مغامرته الكبرى للطواف حول العالم ..

وبخمس سفن اسبانية خرج المغامر البرتغالي – كما خرج قبله ببضـع سنين المغـامر الايطالي – يعبر المحيـط الاطلسي : بحر الظلمات ، الى المجهول ..

* * *

وأوغلت السفن في صحراء الماء الشاسعة ، بين هدير الموج ، وزمجرة الأعاصير ، وعصف الرياح في اتجاه شرقي ، حتى طالعت أرضاً تسد في وجهها فضاء المحيط الفسيح ..

هناك ، بعد أشهر ، ألقت مراسيها على شاطىء جديد ..

الشتاء : كان الفصل ..

والارض : امريكا الجنوبية ..

والشاطىء : ساحل البرازيل ..

وحينما نال الربان وملاحوه بعض الراحة ، عاودت السفن ابحارها صوب الجنوب ، وبمحاذاة الساحل ، تتحسس في هـذا الجانب من القارة منفذاً مائياً يفضي بهم الى الجانب الآخر ..

وتتابع التحسس ، وتوالت المحاولات ..

وكانت فترة بدوا خلالها كمن يدورون في ظلام ..

* * *

ثم عثروا على المنفذ المنشود ..

عند رأس « هورن » أو رأس القرن ، في نهـــاية الطرف الجنوبي المدبب للقارة ، ولجت السفن الحائرة ممراً مائياً — سمي من بعد « مضيق ماجلان » — يؤدي بها إلى الساحل الشرقي على بحر الجنوب الذي أطلق عليه ربانها اسم « المحيط الهادي » منذ لحظة العبور ..

* * *

ولم تكن الرحلة نزهة ..

كانت محنة ..

كانت دائماً محفوفة بالأهوال ..

سفينة من السفن الخمس تمزقت في العواصف وذهبت حطاماً إلى القاع ..

أخرى خافت الاستمرار ، فآثرت الفرار ، أثنـــاء مرور رفيقاتها بالمضيق ..

الثلاث الباقية عاينت ، مراراً مراراً ، الهلاك ..

ملاحو الحملة جميعهم — وهم متمرسون بالبحر ونزواتـه —

عاشوا أياماً سوداء ، وليالي رهيبة في ضيافة إعياء المرض ، ووجوم الوحشة ، وقلق الغربة ، وحرقة العطش ، وسعار الجوع ..

كثرة لقيت الحتوف ..

فريق أشفى على الجنون ..

كلهم زاغت منهم الأعين ، وساخت القلوب ، وجفت الحلوق ، وصرخت البطون فاحتواهم خواء وملأهم خواء .. يمصون الأصابع ، ويعتصرون الشفاه ، ويلوكون الألسن ، ويمضغون الأسنان !..

فما بقي لهم ما يحتسون أو يطعمون بعد أن شربوا كل قطرة « ماء » ! أفرزتها الأجسام ، وأكلوا كل ما ضمت السفن من هوام وجرذان !..

ولو طالت الرحلة قليلاً ، فربما لم يبق منهم على ظهر سفنهم سوى عظام ..

ربما شرب بعضهم دماء بعض ، وأكل من استطاع منهم أخاه !..

* * *

وغدوا رجالاً كأشباح ..

أناساً بلا مشاعر ..

أبداناً بلا عقول ..

هياكل بشرية بلا إنسانية ..

فصيلة غريبة من المخلوقات !..

وعندما آن لغمتهم هذه أن تنجاب، فبلغوا من أرخبيل الفلبين بعض الجزر ، انقلبوا قطيعاً من الوحوش ..

فما أن لمست الثرى أقدامهم ، حتى عـــاودهم التجبر ، إذ أيقنوا أنهم أقوياء وأهل المنطقة المكشوفة ضعاف ..

رأى طغاتهم كأنما ينبغي أن تكون لهم وحـدهم الدنيا .. الحياة ، وكل ما في الحياة ..

وعلى الأثر استأسدت ضراوتهم الاوروبية واستنسرت ، كما يستأسد بنات آوى ويستنسر البغاث ، فاجتاحوا من صادفوا في طريقهم من أهل البلاد العزل الآمنين ، وتعقبوهم بالدمار ..

بسلاحهم « الشيطاني» المتفجر من البنادق والمدافع، حصدوا كل من استطاعوا حصدهم من سكان هذه النواحي الذين لم يحملوا قط سوى الرمح والسيف، ولم يشهدوا أبداً سلاحاً يقذف اللهب، ولم يسمعوا في حياتهم دوي البارود ..

فهل ترى شاءت هذه الطغمة الطاغية من الاسبان أن تثـأر لأنفها، من نقمة الرحلة وهول البحر، في أشخاص هؤلاء الأبرياء؟..

أم لعلها طبيعتها العدوانية قد اشتهت الاستمتاع بإراقـــة الدماء ؟..

أم هو تعصبها الأعمى للجنس أبى عليها أن تدع من عداها من الأجناس يعيشون في سلام ؟..

أم لأن الذين صادفوهم آنـــذاك في تلك الأرض كانوا من المسلمين ؟..

(٤)

١٥٢١ م

لكن هذا الذي وقع منذ عامين لم يكن سوى بداية ..

رحلة ماجلان كانت ،في حقيقتها، فاتحة حملة إبادة جديدة..

كانت صليبية أخرى ضد الإسلام ..

ومع أن قائدها هلك إبان غزوة طغيانه ، فقــد أفرزت كثلكة اسبانيا من بعده « ماجلانين » ! كثيرين !..

ومع أن سفنها ، إلا واحدة، قد تبددت كالهشيم في الريح، فقد توالت على المنطقة الآمنة المظلومة سفائن عديدة وأساطيل..

فإن هو إلا عــــام وآخر حتى عـاود الإسبان رحلات « الكشف » ! الدموي في الفلبين ..

واصلوا ، على أرضها المسالمة ، الزحف الباغي لسحق سكانها المسلمين ..

اقتحموا « مانيلا » العاصمة على سلطانها المسلم سليم ..

ثم نشروا الخراب والقتل أينما بلغوا من الجزر السبعة آلاف، تحقيقاً لتلك الرسالة التي أدعاها أسلافهم للصليب ..

* * *

صورة أخرى لما حدث في الأرض الأندلسية، على يد ايزابلا وفرديناند ومن سبقهما من عواهل الاسبان ، للعرب والمسلمين ، تتكرر الآن في الفلبين ..

حملات إبادة ..

حملات إرهاب ..

حملات تنصير ..

لكأنما كانوا يرون أولئك المسلمين من سكان أقصى الشرق بقية من عرب الأندلس ، فلاحقوهم هنا ، كما لاحقوا من قبل إخوانهم هناك ، بالموت والتنكيل ..

فيما بدا رأوهم كذاك وإن تناءت المنازل، واختلفت الاصول عن الأصول ..

وما الفارق ؟..

أليسوا سواء ؟..

أليس أولئك كهؤلاء .. مسلمين كمسلمين ؟..

بل الثابت ، ولا جدال ، أنهم كانوا يرون عربياً في كل مسلم ، كما كانوا يرون مسلماً في كل عربي ، على نحو نظرة آبائهم

الصليبيين الذي لم يفرقوا ، في عداوتهم لأهـل الشرق العربي ، بين مسلمين ومسيحيين ..

فمنذ وضعوا أقدامهم فوق أرض الفلبين،أطلقوا على مسلميها نفس اسم: « الموروس »الذي كانوا يطلقونه في بلاد الأندلس على العرب والمسلمين ..

* * *

وتوالى الاضطهاد ..

توالت المذابح ، وتوالى التعذيب ..

على مدى الحكم الاسباني بهذه الجزر ، طوال قرابـة خمسة قرون ، استمرت حروب الإبادة والتنصير ..

انتقل إلى الشرق الأقصى طغيان الكثلكة وعـدوان محاكم التفتيش .

ضحايا التعصب العنصري الأعمى ، والهوس الديني المجنون ، تساقطوا صرعى بأسياف الاسبان يوماً بعد يوم ، وعاماً بعـد عام ، وجيلاً بعد جيل ألوفاً مؤلفة في اثر ألوف .

ملايين وملايين ..

في القرون المظلمة ، كما في القرن العشرين ..

حتى عندما انقضت مئات السنين على دعوة الكراهية التي تنادى بها البابا « أوربان » الثاني في كلير مونت ، ولونها أمـام

العيون المفتونة بلون الصليب ، بقي الغرب متعطشاً للولوغ في دماء الإسلام ..

فشجرة الكراهية الخبيثة العجوز ما زالت حيــة ، تفرع وتورق وتخرج الثمر الملعون !..

* * *

كراهية الغرب للمسلمين والعرب . دائمة الخضرة !..

تتجدد على الأيام ..

تواكب مسيرة الزمن،ومع ذلك لا تواكب تطور الأفكار..

أحياناً تقفز فوق سطح الأحداث.. تطفح كحمم البركان.. تندلع كألسنة النار ، تعربد كالأعاصير ..

أحياناً تقبع في القاع .. تجنح إلى الوداعة . تهــدأ حتى ليظن أنها تؤثر السلام ..

لكنه الهدوء الموقوت ..

الخمود الذي تمارسه الجرثومة حيناً ، لتعاود بعده هجومها ، وهي أشد ضراوة ونهماً ، على فريستها الآمنة من جديد ..

* * *

كانت رحى طاحنة ، لا تكف عن الدوران ..

وكانت تلف حول محور له قطبان : الصلف والتعصب ..

الاستعلاء بالجنس ، والاستعداء بالدين .

العنجهية العنصرية ، والعصبية الصليبية ..

فما ينسى الغرب ، ولا يستطيع ، أنه وحده الذي ينبغي أن يسود ..

أن يتملك الحياة ..

أن يتصرف – بلا منازع – في الأمور والاشياء ..

أن يجمد – إلا إرادته – كافة الارادات ..

أن يعيد صناعة عقول غيره من الاجناس ، وفق هواه ..

أن يملي الآراء ..

أن يسوق البشرية بعصاه !..

ولمَ لا ؟..

أليس هو الوريث الشرعي الاوحد لحضارة اليونان ، وحضارة الرومان ؟..

* * *

من وجهة نظره ، كان من الطبيعي أن يتشبث الغرب الاوروبي – بأسنانه وأظفاره – بتلك الهالة البراقة التي يضفيها حوله تراث أولئك الاسلاف ..

كان من الطبيعي أن يعمل – طوال حاضره المتجدد – على هدي ذكريات ذلك الماضي البعيد ..

في عهود ما بعد الميلاد ، عاش الغرب فيما قبل الميلاد !..

وفي إبان عصر المدنية : القرن العشرين ، عـاش في القرون الوسطى المظلمة .

على مدى تاريخه ، احتذى أسلوب حضارتيـه المورثتين في تقديرهما العجيب للبشرية .. فهم وحـدهم السادة ، ومن سواهم من الناس عبيد ..

فكذلك علمتهم فلسفة اليونان ..

وكذلك أخذوا عن الرومان الذين نسجوا على نفس المنوال..

* * *

حكمة أرسطو « المعلم الاول » ! هي – فيما يلوح – التي « ابتكرت » العنصرية ، أو على الاقل صاغتها كنظرية اجتماعية ..

الفيلسوف اليوناني الشامخ لم يكن – بمدلول رأيه هـذا – يعرف معنى الاخاء في الانسانية ..

لم يكن يقر بالمساواة بين البشر ..

لم يكن يؤمن بوحدة « الانسان » ..

رأيه أن الناس صنفان ..

فصيلتان مختلفتان ..

عنصر متفوق « مختار » . كامل الانسانية . اختصتـه وحده الآلهة بالعقل والارادة واستنـارة البصيرة ، هو جنس اليونان ..

وعنصر دنىء « منبوذ » .. ناقص التقويم ، قدراته آليـة وعشوائية هو « البرابرة » أو جميع من عـدا اليونان من رعاياهم ومن بني الانسان ..

أولئك لهم الحقوق ، وعلى هؤلاء الالتزامات ..

أولئك هم السادة ، وهؤلاء هم الرقيق ..

ولا احتمال للمساواة بين الفصيلتين. ولا للتقريب أو التوفيق..

وانتقلت الفكرة من اليونان إلى الرومان ..

ثم من الرومان الى الاوروبيين الحديثين ..

* * *

ولم يكن إلى اليوم ليغير من هذه النظرة العنصرية ..

لا تقدم الزمن ..

ولا تبدل الظروف ..

ولا تقارب المسافات ..

ولا تطور الافكار ..

حتى تلكم العناصر البشرية من بني الشرق والعرب والمسلمين، التي شاء لها إيمانها بإخاء البشر – أو... قل شاءت سذاجتها! – أن تحسن الظن بالغرب ، فتصادقه ، أو تعاونه وتواليه ، إبان الشدة والرخاء ، وفي السراء والضراء ، لم يشفع لها صدق ولائها أن تجتنب الاكتواء بنقمة الصلف والاستعلاء ..

بل لعل ذلك السلوك منها كان دافعــاً للغرب وإغراء على المغالاة في ركوبها بأعنف ألوان الامتهان، منذ القدم، والى الآن.. والامثلة كثيرة ..

(٥)

٦٣٠ م

كمثـــال :

كصورة لعنصرية الغرب متمثلة في الروم ..

الزمن : مستهل حياة الاسلام ..

المكان : المدينة ..

الحدث : محمد رسول الله كان قد بعث بكتبه ورسله لمختلف أنحاء الدنيـا ، الى ملوك الدول وأمرائها ورؤسائهـا من عرب وأعاجم ، يدعوهم الى دين الله ..

ويعود مبعوثوه ومعهم الردود ..

من أولئك الاقيال والحكام والعواهل من أحسن الخطاب..

منهم من هادن وداور ..

منهم من هزأ وسخر ..

منهم من استكبر وتجبر ..

أما هرقـل : قيصر الروم ، فقد ضمن كتابه مـا ينم عن استجابة « حذرة » للدعوة ..

كتب يقول :

« إلى محمد رسول الله ..

إني مسلم .. ولكنني مغلوب على أمري .. .. »

ولم ينخدع محمد بهذا الرد الرقيق المعسول الذي بعث به الامبراطور .. لكأنما أدرك يومئذ أن القيصر يخفي أمراً وراء كلماته اللينة ، فقال لمن قرأ عليه الجواب :

« كذب عدو الله » !..

وصدقت فراسة الرسول ..

أصاب فيما قال :

فما شاء هرقل – كما يلوح – بعبارته المائعة تلك إلا أن يشيع الطمأنينة في قلب محمد وأصحابه ، ويشعرهم أنهم في جواره بمأمن ، ثم يأخذهم على غرة ..

وها هو ذا لا يلبث أن يحشد على الحدود جيشاً كثيفاً قوامه مائة ألف مقاتل من بني جلدته الروم ، ومائة ألف مثلهم من من حلفائه نصارى العرب من لخم وجذام وقضاعة وغيرها من القبائل الضاربة في تلك الانحاء ..

وأسرع محمد على الفور ، يمسك بزمام المبادرة في يديه ، ويخف الى مهاجمة الروم قبل أن يهاجموه ..

* * *

بثلاثة آلاف رجل يقتحم المسلمون الحدود على الروم ليباغتوا قيصر وجحافله في عقر دارهم عند بلدة « مؤتـة » ليتيقن العدو المدل بالكثرة الساحقة أنه أمام خصم عنيد إن يكن في قـلة فإنه – في سبيل إعلاء كلمة الحق – لا يبالي الموت ، ولا يرهب وفرة العتاد ، وكثرة الحشود ..

ويلتقي الجمعان ..

وتقع الواقعة ..

ومع أن المعركة لم تكن متكافئة بحال من الاحوال فقـد كانت من جانب المسلمين ضارية ضراوة آثر معها الروم الانحياز عن الميدان ، وإطفـاء نيران الحرب ، عندمـا رأوا من القوة الصغيرة المناجزة ما ينبىء أنها تهم بالانحياز ..

كفت الروم عن القتال ..

بل تركت المسلمين يعبرون الحدود عائدين إلى بلادهم بسلام..

بل لم تجرؤ كثرتها المزودة بأعتى الاسلحة أن تتعقبهم أو تعترض طريقهم للرحيل وإنهم ، أمام جحافلها الضخمة ، لنفر قليل كقطرة في محيط ، أو كريشة في إعصار ..

أخذتها هيبة تلك الكتيبة الصغيرة من كتائب الايمان التي جاءت من وسط الرمل كهبـة ريح صرصر عاتيـة ، يتحدى رجالها جبروت الامبراطورية الطاغيـة غير هيابين ، يبحثون عن الموت كأنه لقية ثمينة ، ويحرصون عليه أكثر من حرصهم على الحياة ..

وكانوا في تحديهم واقعاً صادقاً يفوق غلواء الأساطير !..

يقتل قائدهم فيتصدى للقيادة آخر .. والمعركة تدور ..

ويقتل الآخر فيتصدى ثالث .. والمعركة تدور ..

ويقتل الثالث ، فيتصدى للقيادة جندي من بين الصفوف ، يحمل اللواء ، ويقود الرجال .. والمعركة تدور ..

بطولة تتحدى البطولات ..

وواقع يتحدى الأساطير !..

فعندما يقتل القائد : زيد بن حارثة ، يسرع جعفر بن أبي طالب فيحمل اللواء ، ويقود ..

وعندما يقتل القائد : جعفر ، يبادر عبد الله بن رواحة ، فيرفع اللواء ، ويقود ..

وعندما يقتل القائد : عبدالله ، ينبري الجندي خالد بن الوليد ، ويأخذ اللواء ، ويقود ..

وتتكشف ، في تلك الآونة ، أستار المجهول لرسول الله ، وهو في المدينة على مبعدة أيام من ميدان المعركة ، فيرفع وجهه إلى السماء ويقول :

« اللهم انه سيف من سيوفك » !..

ويداور خالد ويناور بمن بقي معه من قلة قليلة ، فإذا الروم عندئذ تخشى المغبة ، وقد حسبت أن المسلمين تلقوا أمداداً هائلة .. فتحتال ما وسعها لتجتنب الخطر « المظنون » !..

ثم توقف القتال ..

ثم تنحاز عن الميدان ..

* * *

وعندما انجلى الغبار ..

عندما آب الجيش الجبار إلى معسكره يلعق الجراح ، وقد استشعر السلامة ، وفاء إلى الطمأنينة بعد انسحاب أولئك المجترئين الصغار ..

عندما راح القائد الروماني يوزع الرواتب على رجال جيشه ، فيؤثر بالمال بني جلدته ، ويحرم من عداهم من الجنود ..

عندئذ تقدم إليه حلفاؤه نصارى العرب ، وهو يهم بالانصراف ، يذكرونه ما لعله – كظنهم – قد غفل عنه دون نية معقودة على الإغفال :

« رواتبنا ، أيها الأمير » ..

فلا جدال في حقهم من المال المفروض للجنود ، إذ هم محاربون خاضوا المعركة مع زملائهم الرومان ، حلفاء حرب ، ورفاق سلاح ، فضلاً عن الإخاء في عقيدة المسيح ..

لكن القائد تساءل ، كأنما في استنكار :

« رواتبكم » !..

ثم شحذ عنصريته ..

ثم صاح بهم في ترفع غاضب ، وسخرية صلفة :

« انصرفوا عني !.. ألا تعلمون أن ليس لدى الامبراطور ما يوزعه رواتب لكلابه » !..

* * *

صورة أخرى لهذه العنجهية العنصرية ..

صورة مماثلة ماثلة ..

حديثة المظهر قديمة الجوهر ..

في أربعينات القرن العشرين ..

الصهيونية العالمية التي زحفت لالتهام فلسطين تحاول أن توسع طاقتها - إلى أبعد مدى مستطاع - ليتم الالتهام ..

دكتور وايزمان ، يستغل ظروف الحرب العالمية الثانية ، فيقترح على الحكومة البريطانية أن يتولى تأليف فيلق يهودي يسهم على أرض الشرق الأوسط ، في الكفاح المسلح ، كتفاً إلى كتف ، مع الانجليز ..

الغرض الظاهر من تحقيق هذه الفكرة ، هو نصرة قضية « الحرية » ! التي يدافع عنها الحلفاء ..

والغرض الخفي ، بطبيعة الحال ، هو نصرة قضية الصهيونية ، وتمكينها - بالفيلق وسلاحه - عندما تنتهي الحرب ، من القضاء على أية مقاومة عربية منتظرة ، تحاول التصدي للحيلولة دون إنشاء اسرائيل ..

ويتبنى ونستون تشرشل ، رئيس الحكومة البريطانية القائمة آنذاك ، الاقتراح ..

وما كان الرجل إلا ليتبناه ..

وكيف لا ؟..

ألم يكن هذا الاستعماري ، قبل ربـــع قرن ، من أقوى العناصر التي أيدت ، وعملت جاهدة،على إصدار « وعد بلفور » بإقامة وطن قومي لليهود في فلسطين ؟..

* * *

لكن اقتراح وايزمانقوبل – فيبعض الدوائر البريطانية – بنوع من المعارضة والاستنكار ..

فالوقت غير ملائم لاخراجه إلى حيز التنفيذ ..

من الوجهة السياسية : الحكمة تقضي بتوثيق صلات بريطانيا بأصدقائها ، لا بتنفيرهم منها وقلبهم أعداء ..

والعرب هم الأصدقاء ..

من الوجهة المنطقية أيضاً : الحكمة تقضي بألا يشترى القليل بالكثير ..

واليهود حفنة من شذاذ الآفاق،بينما العرب عشرات الملايين..

من الوجهة الحربية : قوات المانيا تكتسح الحلفاء في مختلف الميادين الاوروبية بضراوة ، والحكمة تقضي بتوفير هدوء نسبي بمنطقةالشرق الأوسط،يضمن سلامة ما بها من الجيوش المتحالفة..

والعرب خليقون ، إن تحقق اقتراح وايزمان ، أن يحولوا هذه المنطقة جحيما من الثورة على جنود بريطانيا ومن يوالونها ، قد يؤدي إلى انهيار سيطرة الحلفاء على هذا الميدان الذي يعتبر خط مقاومتهم الثاني للغزو النازي ، بل خطهم الأخير ..

وأمام هذه الاعتبارات ، رأى المارشال « ويفل » قائد القوات البريطانية – كرجل حرب – وخشية إثارة غضب العرب أن ينصح لرئيس حكومة بلاده بإهمال الاقتراح..

غير أن تشرشل أبى النصيحة ..

بل لعله سخر من مخاوف المارشال ..

وفي مذكراته سجل الرجل سخريته تلك ، وكأنه كان يستعيد نفس أسلوب ذلك القائد الروماني الصلف في «شدته».. فكتب يقول :

« .. .. لكنني تحديت ويفل ..

وكتبت إلى الدكتور وايزمان أوافقه على تشكيل الفيلق اليهودي ..

ولم ينبح كلب عربي واحد » ..

* * *

على أي حال ،جرى الغرب في سلوكه مع العرب والمسلمين، في هذا القرن العشرين ، على نفس نهج أجداده الصليبيين ..

على نفس سنة أسلافه العظام : الرومان واليونان ..

على فلسفة المعلم الأول « أرسطو » التي شطرت البشرية « فصيلتين » ! متباينتين ، أو عنصرين لا يلتقيان: سادة هناك، وهنا عبيد !..

ويتساءل متسائل :

أكانت فكرة أرسطو تلك ، أو نظريته الاجتماعية ،صورة فلسفية للعقيدة القديمة لليهود !..

تكاد تكون ..

فالفكر الاسرائيلي يرى ، من البدء ، أن اليهود هم « الانسان » !.. أما غيرهم فلا ..

هم شعب الله المختار ..

هم العنصر الذى له وحده الصدارة بين الناس ، والعلو فوق كل الأجناس ..

أليسوا – بنص توراتهم – من نسل سام الذي فضله أبوه النبي نوح على العالمين ، ودعا له أن يسود ؟..

أليس دعاء النبي بمستجاب !..

* * *

الأسطورة اليهودية الدينية تقول :

بعد الطوفان ، غرس نوح كرمه ، ولما نضجت وأثمرت ، اعتصر من عنبها شراباً احتساه ، لينقع صداه ..

ولم يكن يدري ، فيما يلوح ، أن النبيذ المعتصر من ثمر كرمته الحلو يذهب بإدراك نفسه !..

أم قد شاء أن يغيب عن وعيه !..

أم قد آثر أن يخلع وقار النبيين !..

وسكر ..

واختل توازنه ..

واضطرب سلوكه كما يمكن أن يختـل ويضطرب سلوك من يذهب برشده الشراب فإذا هو يعربد كأي مخمور ..

وإذا هو ، دون أن يدرك ما يفعـل ، يتعرى وتنكشف سوأته ..

وإذا هو عندئذ في هيئة تثير عليه سخرية ولده « حـام » أبي كنعان ..

أما ولداه الآخران : سام ويافث ، فقد أشفقا عليه ، وترفقا به ، وأسرعا فستراه ..

وعندما أفاق ، وعرف ما كان ، غضب غضبـاً شديداً ، ودعا على نسل ابنه الهازيء حام :

« ملعون كنعان !.. عبد العبيد يكون لإخوته » ..

ودعا لسام :

« مبارك الرب إله سام !.. وليكن كنعان عبداً لهم » ..

وبهذا انشطرت البشرية شطرين : سادة وأرقاء ..

تماماً كنظرية المعلم الأول : أرسطو ، فيلسوف اليونان ..

تماماً على نقيض نظرة الإسلام ..

(٦)

١٠ هـ

الشهر : ذو الحجة ..

البلدة : مكة ..

الموقع : عرفة :

الحدث : حجة الوداع ..

رسول الله يخطب حشود المسلمين الغفيرة الذين حجوا معه حجته الأخيرة ، وقد هم أن يعود للمدينة ..

يقول فيما قال :

« أيها الناس ..

إن ربكم واحد ..

وإن أباكم واحد .. كلكم لآدم ، وآدم من تراب ..

ليس لعربي على عجمي ، ولا لعجمي على عربي ، ولا لأحمر على أبيض ، ولا لأبيض على أحمر فضل إلا بالتقوى » ..

ثم يتساءل وهو يدور فيهم بعينه :

« ألا هل بلغت » ؟ .

فيضج المكان باستجابة الجماهير :

« نعم .. نعم » ..

وما أن يتردد هتافهم هذا حتى تطيب نفسه ، فيرفع بصره إلى السماء ، يشهد ربه أن قد أدى الأمانة ، وبلغ الرسالة :

« اللهم فاشهد » !..

ثم يلتفت إلى الجموع الحافلة التي تطلعت قلوبهـــا نحوه من خلال عيونها المشدودة إليه ، يرمقها بنظرة ثابتــة آمرة ، وهو يقول :

« فليبلغ الشاهد منكم الغائب » !..

ويقفل راجعاً إلى المدينة ..

* * *

يومئذ تمت رسالة الاسلام ..

رسالة التحرر من الخرافة ، ومن الاستبداد ..

رسالة النور والإخاء والسلام :

الإله واحد .. فلا شرك .

الانسان واحد .. فلا عنصرية .

* * *

ولم تكن كلمات محمد تلك مجرد تعبير لفظي عن « شعار » يراد به استهواء عواطف الجماهير ..

ولا مجرد « مثالية » ملائكية أنجبها خيال حالم لتعيش في دنيا الوهم أملاً حلواً تهفو إليه الرغبات ..

ولا مجرد « نظرية » اجتماعية أو سياسية أفرزها تفكير فيلسوف ، لتقبع في صومعة التجريد مع التأمل والمناقشة والجدال ..

إنما كانت شعاراً يرسم الطريق .

ومثالية تعبر عن الواقع .

ونظرية أخضعها المسلمون دائماً للتطبيق ..

ذات يوم اشترك بلال بن رباح وأبو ذر الغفاري في حديث استرسل بهما إلى نقاش ، أدى إلى جدال وخلاف ..

واحتد أبو ذر فأفلت لسانه وهو يعنف ببلال :

« يا ابن السوداء » !..

هنا أنكر رسول الله على أبي ذر تعييره رفيقه بلونه ، وصاح به غاضباً ينتهره :

« طف الصاع !.. طف الصاع !..انك امرؤ فيك جاهلية . ليس لابن البيضاء على ابن السوداء فضل إلا بالتقوى أو عمل صالح » ..

وفاء أبو ذر إلى رشده ..

ندم أبلغ الندم على ما بدر منه ..

وأسرع يمتثل التطبيق .

وفي انكسار وإيمان ، وضع خده على التراب، ثم استحلف صاحبه بلال بن رباح « ابن السوداء » أن يأخذ حقه منه ، فيطأ وجهه ، عسى أن يغفر الله زلة « ابن البيضاء »!..

* * *

لكن الغرب ظل دائماً أسير الاستعلاء ..

ظل مؤمناً ، كأسلافه ، بالعنجهية العنصرية ..

ثم بالعصبية الدينية ..

فكلاهما يشعره الامتياز .

وكان ضحايا هذه « الثنائية » الاسلام وأهل الاسلام ..

في القرن السادس عشر ، ومذابح الاسبان تجتاح مسلمي الفليبين ، ارتفع من بين المسيحية رأي يدين هذه الثنائية ..

وكان رأى كبير من أساقفة الكنيسة ، لا شك في أنه كان يؤمن حق الايمان برسالة السيد المسيح .

سالازار ، أسقف مانيلا في ذلك الحين، أنكر أشد الانكار سلوك إخوانه في الدين ، المتسترين بالصليب ، وعاب انحرافهم عن روح عقيدتهم السماوية السمحة ، فكتب يقول :

« إن الوعظ والبندقية في يد الواعظ ، ليس هو الوسيلة التي يأمر بها الرب للتبشير بانجيل السلام ..

كم أحسسنا العار حين دخل دين محمد ، ورأينا الشعوب تستقبله أعظم استقبال ..

فما كان سر إقبالها عليه أن وعاظ المسلمين جاءوها وهم يحملون السلاح ..

بل لأنهم كانوا يحملون رسالة سلام وإيمان ينشرونها بالوداعة والقدوة الحسنة ، وكان أجدر بمبشرينا الانجيليين أن ينهجوا نفس السبيل » ..

* * *

القسم السابع :

(١)

١٢١٢ م

الكراهية الغربية للعرب والمسلمين سياسة تقليدية .

أينما أدار المرء بصره ، في الزمن ، وفي المسافات .. عبر التاريخ ، وعبر الأرض ، طالعته بالبسمة الصفراء .. بالناب الكاشر .. بالحديد والنار ..

كأنها هواء وماء ..

كأنها أسلوب حياة ..

كأنها خصائص وراثة ..

في كل يوم ، وبكل مكان تسرح وتتنمر .

تحتال . تمكر . تغدر . تقهر . تدمر ..

* * *

كانت علامة للغرب على طريقه « الحضاري » ! الطويل ..

كانت وسيلة ، وكانت غاية ..

كانت هم الصغير والكبير . الذكر والأنثى . الشاب والشيخ . . رجل السياسة ، ورجل الحرب ، ورجل الشارع على السواء . .

بل الغلمان أيضاً اتخذوها عقيدة ودينا ، أو اتخذوها لعبة وملهاة ! . .

ولا مغالاة ! . .

ففي هذا العام تألفت في أوروبا « صليبية » الأطفال ! . .

حملة عجيبة من الكراهية للمسلمين ، تألفت في أوروبا من صبية لم يبلغوا الحلم ، أولى بأن يلعبوا بالدمى في أعمارهم تلك المبكرة ، من أن « يلعبوا » بالبغضاء ، ويحشدوا حشودهم لغزو الأرض الإسلامية وإغراقها بالدماء . .

عندئذ كانت دعوة الحقد والتعصب ، التي أطلقتها بابوية الكثلكة ، قد ملأت – بأرجاء أوروبا المسيحية – كل أذن وسوسة إغواء ، وترددت على كل شفة ترتيلة صلاة ، وارتسمت على كل صدر صليب فداء ، وتجسدت في كل كف سيف دمار لضرب الشرق العربي المسلم حتى الإبادة . .

وكانت أيضاً قد اقتحمت براءة الصغار الأطهار ، لتغرس في قلوبهم الغضة هذه الكراهية التقليدية ، كما تغرس النواة الصلبة في طينة طرية لتنبت العوسج وشوك القتاد . .

وبدأت صليبية الأطفال . .

* * *

فلعلها أغرب حملة « عسكرية » نظمها الإسبـــان في عمر البشرية ، وعرفها التاريخ ..

ألوف من الصغار تدفقت من فرنسا ، بقيادة غــلام منهم لم يجاوز الثانية عشرة ، هو « ستيفن » أحد أبناء فندوم ..

وألوف أمثالهم تدفقت من المانيا ، على رأسها صبي في سن غضة هو نيكولاس ، أحد أبناء كولونيا ..

وكان مركز تجمع هذه الحشود : ميناء مرسيليا ..

وكان هدف حملتهم الحربية : الأرض المقدسـة ، حيث ولد الصليب .. ؟!

وعلى ساحل البحر ، وقف هذا الجيش « الطري » الضخم ، يتأهب للحظة العبور ..؟!

* * *

كانوا في الحق ينتظرون معجزة ..

وكان الأمل في حدوثها لا يبارح القلوب ..

ولِمَ لا !..

من فرط ما رسخت في أذهانهم الفكرة الصليبية التي لقنها إياهم آباء الدم وآباء الكنيسة ، بدا لهم أن صوتاً قدسياً من وراء الأبعاد والمسافات ، يسري إلى ضمائرهم ، مهيباً بهم : أن هلموا إلى تخليص مهد المسيح من أيدي « الكفار » !..

لكأنه نداء الفداء !..

لكأنـــه نفس الصوت الذي انطلق في البرية – كما تروي التوراة – من وسط النار ، ينادي رسول نبي اسرائيل :

« موسى !.. موسى !..

أنا إله أبيك . إله ابراهيم ، وإله اسحق ، وإله يعقوب ».. ثم أمره :

هلم إلى مصر ، لتخليص شعبي الأسير من يد المصريين !..

* * *

لِمَ لا ؟..

في خلد ستيفن ، قائد الحملة الصغير ، وربما في أخلاد كثيرين ممن احتوتهم حشوده الكثيفة ، أن الله لن يبخل عليهم – وقد عقدوا النية على نصرة الصليب – بمثل ما منّ به ، قبل عشرات المئات من السنين ، على بني اسرائيل ..

كما انشق البحر الأحمر أمام موسى وقومه ، حين الخروج ، ليعبروا بين لججه على قاعه الصلب إلى أرض الميعـــاد ، أيقن الصبية أن البحر الأبيض سينشق لهم ، ليعبروا أيضـــاً ، بين لججه ، على قاعه الصلب ، إلى نفس أرض الميعاد ..

أليسوا مجاهدين في الله ؟..

أليسوا ، كبني اسرائيل عند خروجهم من أرض النيل إلى الأرض المقدسة ، يلبون أيضاً دعوة الله ؟..

عن ذلك الحدث القديم ـ حدث بني اسرائيل ـ تورد التوراة :

« فقال الرب لموسى .. ..

قل لبني اسرائيل أن يرحلوا ..

وارفع أنت عصاك ، ومد يدك على البحر وشقه » ..

وعن حدثهم هذا الجديد ، ها هوذا ستيفن يهيب بهم :

« إلى مهد المسيح هلم نعبر » !..

وها هم أولاء الآن ، أولئك الصبية ، يلبون النداء ..

وأخذوا الأهبة لرحيل كذلك الرحيل ..

* * *

وتقول التوراة :

« ومد موسى يده على البحر .. فأجرى الرب البحر بريح شرقية شديدة ، كل الليل . وجعل البحر يابسة ..

وانشق الماء . فدخل بنو اسرائيـــل في وسط البحر على اليابسة ، والماء سور لهم ، عن يمينهم ، وعن يسارهم .. .. »

وتم العبور بأمان ..

حدث كحدث . ويوم كيوم . وجماعـة « اجتباها !.. » الله كجماعة قبلها اجتباها الله ..

فالمعجزة إذن على الباب !..

* * *

تجمع الصبية على حافة الميناء ..

عيونهم على الماء . وقلوبهم على السماء ..

وانتظروا ..

انتظروا الليل ، والريح ، والقاع يظهر من بين الأمواج !..

* * *

غير أن صفحة البحر الأبيض لم تتغير ..

لم تنشق كما انشقت صفحة الأحمر ..

المعجزة « السماوية » لم تتحقق .. لم تتكرر .

لكن معجزة غيرها هي التي تحققت آنذاك ..

معجزة « بشرية » !

غربية لا شرقية ..

فإلى الساحل خفت ، عندما ثقل الانتظار ، طائفة من الملاحين الغربيين نحو الأطفال ، تعرض أن تنقلهم جميعاً على سفنها إلى الشرق العربي المسلم ، وبيت المقدس ، بغير أجر ، إسهاماً في الكفاح المبارك ، ابتغاء وجه المسيح ، ومحبة للصليب ..

وتهيأ الجيش للسفر ..

وتهيأت السفن للابحار ..

بضعة من الصغار ، على رأسها الصبي الألماني نيكولاس ، بدا كأنما خاب أملها حين بخلت عليها السماء بمثل معجزة موسى ، فنكص أفرادها على أعقابهم عائدين ..

أما الكثرة الغالبة من الحملة ، فقد تدافعوا تحت قيـــادة الغلام الفرنسي ستيفن ، في نشوة الحالم ، وبلهفة المشوق ،يركبون السفن ، لتجري بهم إلى نهاية المرحلة ..

وكانت النهاية !

وأعجب نهاية !..

* * *

بجيش الخلاص والفداء الطري الأعواد ، لم تنطلق السفـائن الغربية نحو الشرق ، إلى الجهاد المقدس ..

بل انطلقت إلى المجهول الذي لم يجل لطفل من الحملة ببال..

إلى الضياع كان الانطلاق .

إلى الرق والعبودية والاستذلال ..

أبناء جنسهم الملاحون نكثوا العهد الذي قطعوه في مرسيليا على أنفسهم ، ونسوا وجه المسيح ، ومحبة الصليب ، واتخذوا في البحر ، بشحنتهم الغضة الخضراء ، طريقاً إلى أرض أخرى سوى الأرض الموعودة ..

وهناك .. حيث طاب لبحارة السفن أن يلقـوا المراسي ، ويطووا الشراع ..

هناك في أرض الغربة .. باع البحارة الأوروبيون بني جنسهم المجاهدين الصغار ، في أسواق الرقيق ، بيـــع السلعة بأبخس الاسعار !..

* * *

نهاية حزينة ..

ملهاة انقلبت مأساة ..

خاتمة كخواتم الاساطير ..

تماماً كخاتمة خرافة « الزمار » ..

تقول قصة قديمة ، تعددت بها واختلفت الروايات ، تنتقص منها في آونة ، وتضيف إليها في آن :

فى ذات يوم ..

هبط قرية من القرى رجل غريب ، زري الهيئة ، لا يملك من حطام دنياه سوى مزمار ..

كان ، فيما يلوح ، يرجو أن يجد بمهبطه الجديد حياة هادئة ، ورزقاً قليلاً أو كثيراً أوصدت دونه ، في موطنه الاصلي ، كل الابواب ..

لكن رجاءه خاب ..

* * *

وحاول أن يتألف قلوب الناس بالبلدة الصغيرة ، عسى أن يظفر من أحدهم بترفق ييسر له معيشة الكفاف ، فـإذا هو لا يبوء إلا بنفور ، لا يعرف مأتاه ، واجهته به قلوب النــاس ..

كد ما استطاع ..

عرق ما وسع جلده أن يعرق ..

سعى ينقب في كل مكان عن عمل يقيته ويؤويه ، فدميت قدماه دون مشتهاه ..

وعندئذ ركن إلى مزماره كأداة للارتزاق ..

أرسل من خلاله نغمات عذبة شجية ، لعله أن ينفذ بهذا الترويح عن نفوس أهل القرية إلى بعض التقدير ..

كان من ألحانه ما هو زاخر كأمواج البحر، وما هو دافىء كشعاع الشمس ، وما هو ناعم كنور الفجر ، وما هو صاف كماء الينبوع ..

كان منها ما يهز القلوب أو يرقص الابدان . وكان منها ما يثير الضحكات أو يسيل الدموع ..

لكن القوم لم يزيدوا – أقبلوا عليه أو انفضوا عنه – عن أفئدة خواء ، وعيون جوفاء ، وأسماع صماء !..

ثم رأى أن يؤجرهم خيرا عسى أن يؤجروه ، وينفعهم نفعاً عسى أن ينفعوه ..

نفخ في مزماره ما تردد كنداء خرجت له من جحورها الحشرات الضارة ، فمضى الرجل بأسرابها وهي تتبعه، إلى حيث بددها بعيداً في المستنقعات والاحراش ..

وعاد وحده بدونها ، وهو مزهو فخور ..

لقد طهر القرية من الآفات ..

وجنب أهلها شرها المستطير ..

ومع ذلك فلم يقابل السكان إحسانه بإحسان ..

لا أثابوه مثوبة ، ولا أسمعوه كلمة امتنان ..

عندئذ ضاق الزمار ذرعاً بما لقي من جحود ومن جمود ..

وعلى الاثر استعان قواه الخفية ..

نزع إلى « الكراهية » ..

وقع على مزماره لحناً غريباً استهوى جميع أطفال القرية ، فأقبلوا عليه ، يلتفون به ، وقد سحرهم توقيعه ..

حتى إذا أيقن أنه لم يبق منهم فرد في بيت ، انطلق مبارحاً القرية وهو يزمر ، والغلمان المأخوذون بسحر نغماته ، يتبعونه حيث سار ، كأنما يجرهم وراءه ، أو كأنما اللحن قيد : ربطهم بالمزمار !..

ومضى الزمار بالموكب المسحور صوب البحر الكبير ..

ومنذ ذلك اليوم ، لم يسمع أحد في البلدة الجاحـــدة بخبر أولئك الصغار ..

* * *

هكذا كما أودت كراهيــة الزمار ببراعم القرية الخضر، التي استهوتها نغماته السحرية ، أودت أيضاً كراهيــة أوروبا بجملة الاطفال الذين استهوتهم دعوة الصليبية ..

الغرب الحاقد جنى آنذاك ثمرات غرسه الخبيث الذي أودعه نفوس أبنائه،وتولاه بالرعاية والسقيا والإنماء عاماً وراء عام .

جناه ثكلاً لكل أم ، ودمعة بكل عين ، وحسرة في كل قلب ، ومأتماً بكل دار ..

ومع ذلك فلم يفد شيئاً من الدرس الذي لقنته إياه الاحداث ..

لم ترده النكبة الى الصواب ..

لم يحاول العودة إلى انسانيته ، فيقلع عن الصلف والانانية والاستئثار وما إليها من نزعات همجية ، تجافي شريعة الإخاء البشري ، وتلتزم شريعة الغاب ..

إنما زاد تمسكاً — عن استكبار وبغي وخيلاء — بتعصبه المجنون ..

باستعلائه العنصري وعنجهيته الدينية ..

تماماً كالباشق — حينما يحس كأن فريسته تهم بالافلات من بين أظفاره — يعض عليها بمنقاره !..

حتى بعد أن توالت السنون تفني القرون ، وتغيرت معالم الزمن ، وانكمشت أطوال الابعاد ..

حتى بعد أن أخذ العالم يقترب — بالعلم والعمل والامل — من عصر النور ..

حتى بعد ان ازدهرت بحوث المفكرين ، وآراء الدعاة ، وبشارات الفلاسفة والمصلحين عن الاخاء والسلام والمساواة ، ظلت اوروبا ، على مألوف عادتها في تاريخها الطويل ، تحشد كل قدراتها العملية والروحية لاستثمار البغضاء !..

(٢)

١٨٧٨ م

القرن التاسع عشر ..

حضارة ناشئة تأخذ في التخلق ، مع الأيام ..

الثورة الفرنسية ما زالت مبادؤها الإنسانيـــة تسرح على ملامح الدنيا بالتغيير .. تلهب المشاعر ، وتذكي العقول ، وتلهم الأرواح ، وتفتح آفاقاً جديدة وراء آفـــاق ، لتأكيد قيمة الإنسان ..

في مجال المعنويات ، كانت تنضر الأمـل ليزهر ، وتقدح الفكر لينير ..

كانت إنجيلا حديثاً يبشر بالمساواة .. وتنبىء آياته بقرب انهيار الحدود والفواصل التي تميز بين طبقات الناس ..

والثورة الصناعية ، بهداية العلم ، وبقيادة ملـكات الإبداع ما ونت تتابع خطاها الوليدة بثبات ، لتنمية موارد الطبيعة ، وتنشيط طاقات البشر ..

في مجال الماديات ، كانت تخصّب تربة العمل لينمو ويثمر ، وتشحذ قوى الابتـكار لتغيّر وتطور ..

كانت — بالعلم المسخّر ، والمال المستثمر ، والعرق المستقطر — ترتفع بنواتج الجهد وأصول الثروات إلى الوفرة التي تكفل كفاية

تسد الحاجات..وتومىء مسيرتها إلى سعيها الحثيث نحو حضارة بديلة تتحقق فيها الرفاهة لكل الناس ..

وبينما الثورة الفكرية تسير إلى التبصير والتنوير ..

وبينما الثورة المادية تسير إلى التطوير والتيسير ..

بينما هذه وتلك تدرجان ، كل على طريق يؤدي بهـا إلى الالتقاء بأختها للانطلاق معاً ، يداً في يد ، وكتفاً إلى كتف نحو الغاية التي يتحقق عندها رجاء البشرية في عـالم من الصفاء والرخاء ، كانت السياسة الاوروبية تعد عدتهـا لفض المسيرة ، ونسف الرجاء !..

* * *

على نقيض ما بدا من تحرر الفكر .

وبخلاف المنتظر من روح العصر ..

دول اوروبا ذات السطوة آنذاك ، تحاول أن تحقق مـا فوتته عليها القرون ..

تستوحي حقدها الموروث ..

تنفض الغبار عن شعارها القديم ..

تجتمع لتتناقش وتتباحث .. لتخطط وتـدبر .. لتتشاور وتتآمر ..

وكان الزمان : ذلك العام ..

وكان المكان : مدينة برلين ..

وكان المجمع الذي لمَّ وفودها مؤتمراً عقدته في هذه العاصمة الألمانية لإعادة « رسم » خرائط أوروبا وآسيا وأفريقيا من جديد ، وفقاً لما وضعته ، قبل أجيال ، سياسة أسلافهم ، وحاولت مراراً إخراجه من متاهة الأحلام إلى واقع الوجود ..

وحول مائدة « مؤتمر برلين » كان أوروبيو العصر الحديث يخفون وراء الظهور صليب التعصب الذي كان آباؤهم في العصور الوسطى يبرزونه على الصدور !..

* * *

ولم يكن مؤتمراً ، بل كان مؤامرة ! .

فما لم تستطع أن تنتزعه الحملات الصليبية لهم بالسيف من المسلمين، راح أولئك المؤتمرون يعملون على أخذه بالحيلة والابتزاز .

باسم تحرير بعض الشعوب الأوروبية ..

وباسم تنظيم العلاقات بين اوروبا وبين الدولة العثمانية ..

وباسم السلام الذي ينبغي أن يسود بين دولهم بعضها وبعض ، تجنباً لعقابيل التنازع والخلافات ..

باسم هذا وغيره اتفقوا على « تشريح » الفريسة الاسلامية التي طالما تهافتت أيدي أسلافهم الصليبيين ، عبر الأعصر ، على بدنها السمين بالخناجر والسكاكين !..

اتفقوا أخيراً على تفتيت وحدة الاسلام ..

على تمزيق دولة الخلافة التي تجتمع في كيانها السياسي أقاليم المسلمين ..

وقرر المؤتمر أن تقتسمها دوله قطعاً وشرائح :

الفخذ لهذه ..

الكتف لتلك ..

الزند لثالثة ..

الخصر لأخرى ..

وللبقية البقية : من كبد وكلية ، وشحم وإليـة ، وأكارع وأمعـــاء !..

* * *

منذ ذلك العام ، غدت الشعوب الاسلامية الممزقـة أنصبة معلومة ، رصدت على الدول الاوروبية المسيحية ، لكل واحدة منها نصيبها المعلوم المقسوم ..

منذ ذلك العام بدأ الالتهام !..

منذ ذلك العام طأطأ المسلمون رأسهم للتقسيم ، فلم يستقم عمود الاسلام !..

وكان أعضاء المؤتمر ، أو أفراد عصابة المؤامرة :

بسمارك : عن المانيا ..

اندراسي : عن النمسا ..

دزرائيلي وسالسبوري : عن بريطانيا ..

وادنجتون : عن فرنسا ..

كورتي : عن إيطاليا ..

جورشاكوف وشوفالوف : عن روسيا ..

بل قل :

كان مندبو الدول المؤتمرة :

البابا اوربان ، وفردريك باربروسه ، وريتشارد قلب الأسد ، وفيليب أوجست ، ولويس القديس ..

بغير جدال ، هؤلاء الآباء كانوا الأعضاء !..

وكان معهم أيضاً غيرهم كثيرون من باباوات الكنيسة الغربية ، والأباطرة والملوك والأمراء والفرسان والرهبان ..

ولكنهم كانوا في زي اوروبي حديث !..

* * *

مؤتمر برلين الذي قضى بالتهام أراضي المسلمين في قـــارات العالم القديم الثلاث ، لم يكن آخر المحاولات الاوروبية للالتهام ، ولا أول المحاولات ..

كان حلقة في سلسلة إبادة الاسلام ..

كان ضربة سبقتها ضربات ، ولحقتها ضربات ، ومـا زالت تتبعها إلى اليوم ضربات ..

مسيرة الزمن ، طوال قرون وقرون ، لم تستطـع أن تعفي على آثار الحقد العنصري في نفوس الاوروبيين ..

وتقدم الفكر الانساني على طريق محو الفوارق الطبقيـة ، وتوحيد البشرية، لم يستطع أن يجد مكاناً في عقول أولئك الغلاة في الاستعمار والاستئثار : نخاسة الأمم والشعوب ..

ودعوات التسامح الديني التي تتردد بين حين وحين على أفواه بعض الفلاسفة والروحانيين ، لم تخفف شيئاً من غـلواء الهوس الذي ما زال يسيطر على قلوب حفدة الصليبيين ..

فالنظرة نفس النظرة ..

والسلوك نفس السلوك ..

وانما تغيرت الأساليب ..

* * *

والكراهية الغربية للمسلمين والشرق العربي ، تسير ..

إن موكبها لطويل ، طويل ، طويل ..

ذيله هناك عند اليونان والرومان الأقدمين، ورأسه هنا عند القرن العشرين ..

قبل مؤتمر برلين بنحو مائة عام ، على سبيل المثال، انتفض

وحش التعصب الرهيب من غفوته ، مكشراً عن نابه ، لأهل الاسلام ..

في القرن الثامن عشر ، وبعد سبعة قرون مضت على أولى الصليبيات ، تتردد في أرجاء اوروبا صيحة تهيب بدولها « المسيحية » أن تهب إلى تسيير صليبية جديدة ..

« دار جنسون » ينادي بتأليف حلف « مقدس » ! ينتظم في نطاقه كافة الدول الاوروبية ، لالتهام أرض المسلمين ..

يدعو إلى إشعال حرب مزدوجة على أهل الاسلام :

حرب إبادة ، وحرب تنصير ..

ثم يفصح عن مشروع متكامل لتحقيق ما يرومه ويرومه بني جلدته ، وضع أصوله ، ورسم تفاصيله ..

فإذا المحور :

« حملة صليبية تشترك في تمويلها وإعدادها وتنفيذها الدول الاوروبية » ..

وإذا المقصد :

« غزو الدولة العثمانية » ..

وإذا الغاية ثلاثية ..

في المقام الأول :

« فرض الدين المسيحي » ..

ثم :

« تحرير الأراضي المقدسة من أيدي المسلمين » ..

ثم :

« تنصيب أمراء اوروبيين متحضرين ، مسيحيين بطبيعة الحال ، على هذه الأقاليم » ..

وتتعدد الدعوات ،من قبل ومن بعد،على نفس هذا المنوال، بلا تغيير ..

فالتعصب العنصري هو هو التعصب العنصري ، والهوس الديني هو هو الهوس الديني ..

والغاية نفس الغاية ..

والنظرة كالنظرة . والسلوك كالسلوك . وهذا المشروع كذاك المشروع وإن تغيرت الهياكل،وتباينت أساليب الاعداد، أو أدوات التنفيذ ..

(٣)

١٦٧٢ م

مثال آخر :

فرنسا ..

لويس الرابع عشر على العرش

الملك الذي عرف فيصفحات التاريخ مقترناً اسمه بشعاره

المشهور : « أنا الدولة » كان منهوماً غاية النهم بكل مظاهر القوة والنفوذ والاستعلاء ..

كان كلفاً كل الكلف بمد سلطانه خارج نطاق دولته إلى أبعد البلاد ، وأقصى الحدود ..

كان متعطشاً إلى امتلاك مزيد من الأرض كضيعة يغرس فيها راياته .. وإلى احتواء مزيد من الخلق كرعايا يمن عليهم بصولجانه !..

أما طريقه الذي رأى انتهاجه لتحقيق مشتهاه ، فكان نفس طريق الاسلاف الذين عملوا على بناء مجدهم على أنقاض حرية الشعوب ، وأشلاء غيرهم من الأجناس ..

وأما سلاحه فكان « الكراهية » التي جردها الغرب وأهله على المسلمين والاسلام ، ردحاً طويلاً من الزمان ..

ولا غرابة ..

فالكراهية التي غرسها التعصب الغربي من قبل في صدور جنود « حملة الأطفال » كانت قد ترعرعت وفرعت وطالت، بلا جدال ، على توالي الأجيال ..

* * *

وتابع هذا الملك سياسة سلفه ، التي كان يرسمها وينفذها ذلك الوزير الكاهن المتآمر : الكردينال ريشيليو ..

الشرق العربي المسلم كان ، بداهة ، قبلة جهود لويس ،

ومهوى أطماعه ، وهدف بغضائه ، وفريسة استعلائه ، بلوغاً إلى غرضه السياسي بإنشاء امبراطورية فرنسيـــة على الأرض العربية الثرية ، وتحقيقاً لأربه الصليبي بالقضاء على الاسلام ..

فيما يلوح ، لم تتوان عندئذ أجهزة دولته على اختـــلاف أشكالها : بين مدنية ودينية ، اجتماعية وعسكريـــة .. ولا رجالها على تنوع قدراتهم : من كهنة لعلماء ، ومن ساسة لقادة حربيين، عن المبادرة إلى العمل الدائب لتفريخ الخطة التي تكفل حصول ذلك « الملك – الدولة ! » على أرض الأحلام ..

لكأني بها خطة ذات شعب ، عديـدة الفروع والمسالك ، بعيدة المرامي والغايات ..

مثلاً :

خطة للانتقال عبر البحار ..

خطة للغزو والقتال ..

خطة للاستيلاء والاحتواء ..

خطة للتصبىء والتنصير ..

خطة للإبادة والافناء ..

ثم خطة للتعمير أو الاستعمار ..

وكلها حلقات تتابع ، الواحدة بعـــد الأخرى ، في سلسلة المشروع الموضوع لاستئصال الاسلام ..

* * *

« ليبنتز » الفيلسوف المعاصر للحقبة ، في رسالة بعث بها إلى لويس الرابع عشر ، يكاد يرسم لنا صورة مكتملة المعالم ، واضحة الظلال ، جلية الأضواء ، لأحلام الغرب الصليبي التي تداعب خيال الملك الفرنسي الكبير ..

في رسالته تلك، يكشف عما خامر عقول الأجداد ، ثم الابناء ، ثم الاحفاد من أهداف تعصبية ، دينية وعنصرية ، كانت ، وظلت ،وإلى الآن ، محور تفكير الاوروبيين، القدامى والمحدثين : ورثة اليونان والرومان ، وخلفاء الصليبيين ..

يرفع الستار عن ذلك الذي أفلت من أيدي أوروبا وفات على مدى أجيال عديدة ، وما كان ينبغي أن يفلت ويفوت ..

يقدم لمليكه مشروعاً مدروساً يجمع في سطور نصه المعروض طموح السياسي ، وحقد الصليبي ، وعمى العنصري ، وهوس الاستبدادي النزاع إلى البطش والتسلط بلوغاً بسلطانه إلى أقصى الابعاد ..

كان المشروع يعبر ، بلا ريب ، فيما رسمته عباراته ، عن نزعات لويس الحالم آنذاك بلقب : « الامبراطور » ..

كان أيضاً يعبر عن روح اوروبا المعادية للشرق العربي ، أصدق تعبير ..

كان كذلك يعبر عن التصاق « الفيلسوف » – كقومه – بماضي الاسلاف ، القريب والبعيد ، وانفعاله العميق بما أدعوه

قديماً من كفاح « مقدس » ! مزعوم ضد أهـل الاسلام من أجل نصرة الصليب ..

* * *

والرسالة ليست بقصيرة ..

وما احتوته يفضح العنجهية العنصرية والعصبيـــة الدينية كيف يلتويان بالمرء إلى أنانية خرقاء تهدم كل تراث البشرية من القيم والمبادىء الإنسانية الكريمة، لتحتكر لجنسها ودينها الحياة دون بقية الأجناس والأديان ..

وكفي بياناً لما وعته أنها تبـــدأ فتلهب التعصب الديني في نفس لويس ، ثم تنتهي فتلهب النهم بالسلطان ..

يستهلها الفيلسوف فيدعو العاهل الفرنسي :

« مولاي .. الملك المسيحي !.. »

ويختتمها فيثير جشعه الذي يشبعه المشروع المطروح ،فيقول :

« .. .. وإنه لمشروع ميسور التحقيــق . خليق بأن يعبّد الطريق تحت أقدام الفاتحين الغزاة ، لاستعادة أمجـــاد الاسكندر الأكبر ! .. »

أما الهدف الأعظم للخطة المعروضة ، وهو القضـاء المبرم على العقيدة الإسلامية ، فليس له ، كما يرى « ليبنتز » غـــير سبيل واحد ، لا سواه ..

فما هو السبيل الوحيد المنشود ؟..

يقول :

« غزو مصر » ..

لماذا ؟..

يعلل :

« لأنها وكر الدين الإسلامي ، وملاذ المسلمين الأشرار »!..

ولم تكن بغضاء ليبنتز الفيلسوف غير علامـــة على الطريق الثعباني الطويل : طريق الكراهية الغربية للإسلام ولأهـــل الإسلام على امتداد التاريخ ..

وكم لهذه الكراهية من ألوان !..

(٤)

١١٨٣ م

أوائل العام ..

قبيل موقعة حطين ..

ناحية من سواحل الجزيرة العربية ..

بقية من الشتاء ما زالت تتلكأ ، ثقيلة الخطـا ، على مسيرة الأيام نحو الربيع ..

ها هنا علامة من علامات الكراهية الأوروبية ، قديمـة .. قد دقها الغربيون بالأرض الطاهرة .. مهبط الوحي ، ومركز

إشعاع الإسلام – على الحافة الشرقيــة للبحر الأحمر ، حيث يتسابق موجه ليغسل أقدام شاطىء الحجاز ..

ها هنا حملة بحرية صليبية ،تعبر من ميناء« عيذاب » المصرية على الجانب المقابل لليم ، وتلقي مراسيها على كثب من «ينبع» ميناء البلدة الطيبة مدينة الرسول ..

ها هنا نوع من العدوان جديد ..

* * *

في العام السابق ، استولت بعض قوات حمــلة الصليب على « أيلة » ميناء خليج العقبة ، ثم على جزيرة « فرعون » الواقعة بين فكيه ، وأتموا هناك بناء أسطول الحملة ..

في العام الأسبق ، انحدرت قوات غيرهـا من الشمال ، ومن حصن « الكرك » ، موغلة في الصحراء العربية إلى واحة «تيماء» التي تتوسط الطريق البري : طريق الحج ، بين الأردن والمدينة المنورة ..

ومع ما كان من نشاط هؤلاء الصليبيين التخريبي ، خــلال هذه المحاولات العدوانية المسفة في البغضــاء والتعصب ، على البر ، وفوق الماء ..

مع ما نهب أولئك القراصنــة « الفرسان » ! من أموال ومتاع ، وأغرقوا من سفن مؤونة وركاب، ودمروا من مرافىء وبلدان على القلزم والعقبة ، وقتلوا من عشرات المئات من أبرياء

وعزل كان منهم كثيرون يسعون ، في مواسم الحـج ، للطواف ببيت الله الحرام ..

مع ما أقاموا من مذابح ومجازر ، وأتوا من فظائع وويلات، وارتكبوا من آثام وموبقات ..

مع هذا وغيره مما قارفوا ، فلم يكن مـــا فعلوا هو الذي أشعل آنذاك في نفوس المسلمين النار ..

بل الذي أشعلها ، وأحماها لظى من السخـــط عليهم كما لم يتسعر قبل يومهم هذا لهيب ، هو ذلك الذي عقدوا نيتهم على أن يفعلوه ..

* * *

ما عزموا ، بحملتهم تلك . على إنفاذه ، جـاوز تصور أي إنسـان ..

جاوز المعقول في ذهن العاقل ، والخبال في وهم المخبول !..

جاوز الفجر والغدر، والصلف والتجبر، والبغضاء والضغينة..

جاوز حدود الإنسانية ، وإن تكن إنسانية الصليبيين ..

فلقد كان الهدف الحربي المنظور لهذه الحملة الباغية ، المتهيئة للانقضاض ، هو ضرب الحجاز ، مهد الإسلام ..

وفي شرعة الحروب يباح الغزو والتدمير ، وقد يباح أيضاً — من أجل النصر — مـا هو محظور إبان السلام ، إلا أن يتخطى هذا المحظور السياج الذي أقامته التقاليد والأعراف ، فضلاً عن الشرائع والقوانين ..

أما أولئك المنهومون بالدم ، الذين تسابقت جحافلهم إلى البقاع الإسلامية المقدسة ،مندفعين من أيلة وغربي القلزم وجزيرة فرعون ، فلم تكن غايتهم المرتجاة من التشرع لهذا الهجوم مجرد الاستيلاء على أرض عربية « معادية » ، كل جريرتها في تصورهم المخبول أن قد نمت في أرضها ، وترعرعت ، وأثمرت شجرة التوحيد خير الثمرات ..

كلا . ولم تكن أيضاً الرغبة في الاستيلاء على مكة والمدينة قبلتي الإسلام ، ابتغاء خنق الحياة الروحية للمسلمين ..

ولم تكن ، كذلك ، تدمير الحرمين الشريفين : الكعبة بيت الله ، والمسجد النبوي مثوى رسول الله ، إشباعاً لهوسهم الصليبي ، وتعبيراً حاقداً لانتصار دين على دين ..

إنما أخذتهم العزة بالاثم فاعتزموا — تشفياً وشماتة — العبث بقبر محمد نبي الإسلام ..

وكان مبدع الفكرة ، وواضع الخطة ، وقائد الحملة هو المغامر الفرنسي ، صاحب حصن الكرك : رينو دي شاتيون ، أو بالتسمية العربية في ذلك الأوان : « الأبرنس أرناط » ..

* * *

من القصص المأثور عن هذه الحقبة الممتلئة بالأحداث ، والمعاصرة لحملة أرناط ، قصة تفصح عما كان يخالج نفوس المسلمين آنذاك من قلق جاوز الجزع ، ولهفة فاقت الهلع ، خشية على

الكعبة الغراء ، وقبر الرسول ، وجثمانه الطاهر أن ينالها بسوء عبث هذا الصليبي ، وحقده الأحمق المأفون ..

الناس من خوف وقوع تلك الكارثة في ذهول ..

في هول يتجدد كل لحظة من ليل ومن نهار ..

يتساءلون مبهوتين :

« أهي النهاية » !..

« أنذير بقيام الساعة » !..

« أفناء البشرية على الباب » !..

وتراكبت وتزاحمت تهاويل هذا الذعر الضارس حتى اوشكت أن تسحق القلوب ، وتشل الألباب ..

ثم غدت ويلاً ، في اليقظة ، يطاردهم ، ويكاد يشل التفكير ..

ثم تجسدت صوراً نابضة حية ، تطالعهم بها الرؤى والأحلام في المنام ..

* * *

تلك القصة المأثورة تقول :

أحد أمراء آل البيت الزنكي في سورية ، الذين كان لهم يد طولى في مقاومة موجات المد الصليبي المتوالية عبر السنين ، يهب ذات ليلة مذعوراً من فراشه وهو يحاول أن يتحقق مما رأى في منامه بالتعوذ بالله ..

ولم تكن هذه أولى ليالي فزعاته ..

كانت الثالثة ..

ففي سابقتيها أيضاً رأى نفس رؤياه ..

والصورة الحية التي ألحت عليه وهو نائم، ثلاث ليال سويا، بدا فيها رسول الله ، وكأنما على محياه مسحة ألم ، وكأنما في صوته رنة حزن ، وهو يهيب بالأمير الزنكي : أن امنع عني شر هذا الأذى الذي يهم أن يلحقه بي هذان !..

وأشار إلى رجلين غريبين ، كثعلبين دلفا من الظلام ، يتلصصان ..

ولم يتردد الأمير هذه المرة عن المبادرة بتلبية نداء رسول الله..

ولم يشك أيضاً في صدق رؤياه ..

وكيف يتردد ويشك ، وقد تكرر الحلم بإلحاح .. وإنه ليؤمن ، فوق هذا ، أن رؤية النبي في المنام رؤيا صادقة ، محال أن تكون أضغاث أحلام ، أو وسوسة شيطان ..

وعلى الأثر هب يدعو ، تلك الليلة ، من خاصته رجلاً فاضلا ثقة ، ذا علم وبداهة وحيلة ، يقص رؤياه عليه ، ويشاوره ، ثم يوفده إلى الحجاز ..

وهناك ، في المدينة المنورة ، مكث هذا المبعوث يستقصي خفية ، ويرقب الأمور ، وهو يفيض على الناس الهدايا والعطايا

ويجزل المنح والهبات ، حتى لأوشك أن يغمر بفيضـــه الكبير والصغير ..

وتساءل بعد حين :

أفي البلدة أحد لم ينل مما أعطانا الله ؟..

قيل له :

ناسكان .. زهدا الدنيا ، وانقطعا عنها وعنا إلى ذكر الله.. وما نظنهما إلا في غنى عن كل عروض الحياة .

* * *

وحث سعيه حتى التقى بالزاهدين ..

وأعمل الفكر والحيلة حتى أنسا إليه ..

كان يلاقيهما في المسجد النبوي ، فـلا يرى منهما سوى تقى وورع وصلاة ..

وكان يحادثهما فيعزفان إلا عن ذكر الله ..

وكان يراقبهما فيجدهما مختليين ، يذرفان الدموع عند قبر رسول الله ..

ومع ذلك فقد ظل بنفسه أثر من ريبة فيهما لا يدري مأتاه..

وعندما أوشك أن يستغرقه يأسه ..

وكاد يستيقن إخفاقه دون ما بعثه فيه الأمير ..

وهم أن يؤوب عائداً إلى الشام ..

حينئذ ، وهو يتهيأ الرحيل ، خطر له خـاطر عجيب ، لم يطف له من قبل ببال ..

ولم لا ؟..

لماذا لا يقطع الشك باليقين ؟..

حزم متاعه ..

وهيأ راحلته ..

ومضى إليهما بالمسجد ، يعلمنهما بسفرد ..

وذهبا فودعاه ..

لكنه ما انطلق في طريقه إلى خارج المدينـــة ، حتى كر عائدا ، على استخفاء ..

وفي الدار الصغيرة القائمة على كثب من المسجد ..

في تلك الصومعة التي انقطع فيها الزاهدان للذكر ، وكانت لهما بمثابة حرم لم يطأ عتبتها غيرهما إنسان ..

في جانب منها خفي عن العيون ..

كشف مبعوث الأمير عن سرداب سري حفراه ، يـــكاد ينتهي إلى قبر رسول الله !..

وانهتك الستر .

صدقت الرؤيا ..

وأعدم الجاسوسان ..

* * *

كيفما كانت هذه القصة المعاصرة المأثورة ، فإنها لا تقل عن أن تكون دلالة على ما راود آنذاك نفوس طائفة من الصليبيين، إن لم تكن محاولة جادة على نفس الطريق الذي شقه « الأبرنس أرناط » !..

فهذا « الابرنس » كان كتلة من الشر ..

فيه استشرت أدنأ الغرائز ، واستفحلت أوضع الصفات ..

كان يتلذذ بارتكاب أفحش والموبقات .. يتنكر المكارم ، ويستبيح الحرمات ، ويدوس أقدس المقدسات ..

بلا ضمير ، ولا شعور ..

اجتمع له من خسة النفس ، ولؤم الطبع ،وهوس التعصب ، وجنون البغضاء ، وصلف العنصرية ، والتواء التفكير مـــا لا يتاح مثله لأمير ولا لحقير ..

وهل من عجب !..

إنه امرؤ مغامر ، مشى من فرنسا وطنــه الاصلي ، وراء دعوة الصليبية الحمقاء ، نهماً بالشهرة ، وجشعاً للمـــال ، وكلفاً بالبغي ، وسعياً للسلطة ، وتنفيساً عن الحقد الذي يفور بصدره ويكاد يخنقه ، نقمة عشواء من الاسلام ، وحسداً طاغياً لاهل الاسلام ..

ولا مبالغة ..

فقد وصفه قومه الغربيون ، فاذا هو ، في رأيهم ، بالكلمة وبالحرف :

« نموذج الفارس اللص » ..

قمة اللصوصية في فارس !..

لكأنه ، بتصوير نعتهم هذا الذي دبجوه ، يتبدى عفناً كريهاً مقززاً ، وضع في صندوق من الذهب أو الماس !..

ووصفه خصومه العرب والمسلمون ، الذين خبروه ، فاذا هو المثالب والنقائص ، والشرور والآثام ، أقيمت على هيئة إنسان ..

مما قالوه فيه ، وهم يوازنونه بغيره من غلاة الصليبيين :

« .. .. كان أغدر الفرنجة وأخبثها .. وأفحصها وأبحثها عن الردى والرداءة .. وأنكثها وأحنثها .. وأنقضها للمواثيق والايمان .. »

فلا غرابة إذن أن يسير سيرته ، ويقوم على إعداد حملة تلك لهدم الكعبة ، ودك المسجد النبوي ،والعبث بجثمان رسول الله .

لا غرابة لانها فعلة أليق بطبعه : خبيثة لا تصدر إلا عن سيد الخبائث ، فليس لها في العالمين سواه !..

فهل يا ترى ، وهو يقدم عليها ، قد شاقه - ضالاً مفتراً مفتوناً - أن ينتشل ، من تحت أنقاض الزمن « قليس صنعاء » ويعيدها ثانية الى الحياة ؟..

* * *

(٥)

٤٠ ق. هـ.

مكة ..

عام الفيل ..

منذ ألف وأربعمائة عام ..

قبل حملة « الابرنس أرناط » تلك على الحجاز بأكثر من ستة قرون ..

البلدة الآمنة تعيش في هول أكبر ..

جيوش ضخمة من الاحباش تتراءى على مشارف هذه المدينة العتيقة ، مستقر بيت الله الحرام ، الذي وضع قواعده ابراهيم واسماعيل ، مثابة للناس وأمناً ، ومطافاً للركع السجود ..

القوات الزاحفة السمراء تهول السكان الآمنين ، بما ضمت من أعداد ، وحملت من عتاد ، لا طاقة لها بها ، ولم يستهدوا مثلها من قبل ، لا بين الواقع ولا بنظرة الخيال ..

المشاة والرجالة كالموج تتوالى صفوفاً وراء صفوف ..

الحراب الطويلة في أيديهم مشرعـــات ، تكاد تخفيهم عن الاعين المبهورة ، وكأنما – اذ ينطلقون صوب مكة – يزحفون اليها من خلال أشجار غاب كثيف !..

الفرسان والركبان يتصدرون الزحف ممتطين ظهور فيلة ضخمة قد أدلت أمامها الخراطيم ..

في المقدمة ، على رأس الحملة ، قائدها « أبرهة » فوق فيل أبيض عظيم كأنه قلعة تسير ..

وعندما بلغ الغزاة من تقدمهم موضعاً ارتضوه، ثبتوا حيث كانوا تهيؤاً للحظة الحاسمة .. وبعث كبيرهم الى « عبد المطلب » سيد مكة وشيخ قريش ، رسولاً من لدنه يدعوه للمثول ..

* * *

ولم يرتعب الشيخ الكبير الوقور ..

لقد تعمدوا – ارهاباً له – أن يطوفوا به ، وهو في طريقه الى الالتقاء بقائدهم ، معسكرات الجيش العرم كالسيل المتحفز للانصباب ، ومرابض الفيلة الشامخة كالاطواد ..

لكنه بدا كأنه لم يهزه هذا الهول المحشور ..

ودخل على صاحبهم ثابت القلب ، رابط الجأش ، راسخ اليقين ..

وما يروعه ؟..

ان تكن الحرب ما يريدون ، فقد حمل الضعاف والنساء والاطفال الى رؤوس الجبال يعتصمون بها من المغير ..

وجمع الفتية والرجال الاجلاد بمنى يعسكرون فيها بما يملكون من سلاح ، تأهباً لساعة القتال ..

وان يكن هدم الكعبة ما يريدون ، كما أعلمه رسولهم ، فقد استصرخ الله أن يحمي بيته ، وهو لا بد حاميه ..

والدائرة لا محالة على من يحارب الله !..

* * *

وأصغى عبد المطلب الى حديث أبرهة الحبشي ..

ان هذه الحملة الحربية القادمة من الجنوب، انما أقبلت لتهدم البيت الحرام ، ولن تنال أحداً من الناس بسوء الا أن يحولوا بينها وبين ما تريد ..

ولماذا عسى أهل مكة يحولون ، ويعرضون بلدتهم الآمنة للتدمير ، وقومهم وذراريهم للقتل طعناً بالحراب ودهساً تحت أقدام الافيال ؟..

لقد شاد لهم « الملك » بيتاً خيراً من بيتهم هذا وأجمل في « صنعاء » .. بديلاً عنه ، يستطيعون وكافة عرب جزيرتهم أن يؤموه ويتخذوه مطافاً وقبلة ..

شاد كنيسة « القليس » ..

سامقة شماء ..

آية في الفخامة والابداع ..

جدرانها من رخام مجزع بأبهى الالوان ، ومن حجارة منقوشة بالذهب واللجين ، ومن مرمر صاف شفاف ..

منابرها من العاج والابنوس .

مبناها يضم أثمن الحلي وأروع التحف ، التي كان يضمها قصر الملكه بلقيس ..

* * *

والتفت أبرهة،بعد أن فرغ من حديثه،صوب الشيخ يسأله:

« فما ترى ؟.. »

ولم يزد عبد المطلب عن أن قال :

« أرى ان ترد علي ابلي التي أصابها رجالك .. »

« ابلك !.. »

ملكته دهشة غامرة . بدا في وجهه كأنما قد فجع في نظرة اكباره لهذا الشيخ .. واستطرد بازدراء :

« قد كنت أعجبتني حين رأيتك ثم ها أناذا قد زهدت فيك !.. اتكلمني في مائتي بعير لك ، وتترك بيتاً هو دينك ودين آبائك قد جئت لهدمه ، لا تكلمني فيه !.. »

وفي هدوء وثقة، علق عبد المطلب على عبارة القائد الحبشي التي تحمل الاستهانة والتقريع ..

قال :

« اني أنا رب الإبل . أما البيت فله رب يحميه » ..

عندئذ ملك نفس أبرهة الغيظ ، وملأ قلبه غضب جامح ، فصاح في غضب واغترار :

« ما كان ليحميه مني !.. »

« أنت وذاك » ..

* * *

لكن الله حمى بيته ، كما استيقن الشيخ ..

وكيف لا يحميه ومكة عندئذ، في نفس العام، كانت تستقبل وليداً لن يلبث، اذ يشب، أن يحمل منها الى العالم رسالة النور !..

رسالة الحرية والسلام ..

رسالة الاسلام ..

آنذاك كان « محمد » في حضن أمه آمنة ، يتلقف أولى نسمات الحياة ..

وكانت « الكعبة » تتطلع اليه كباعث لمناط مجدها الروحي القديم : دين ابراهيم ..

وكانت الانسانية ، تتطلع في رسالته المرجوة لغد مأمول ..

وكان أولو العلم ينتظرون أن يتحقق وعد الله في التوراة والانجيل بمبعث رسول ..

وكانت القلوب النقية ، والقدر منها ، تتعجل على لهفة وشوق مرور الاعوام !..

* * *

وأسرع أبرهة ، بعد خروج عبد المطلب من لدنـــه ، إلى مواصلة رحلة الدمار ..

انطلق الى هدم بيت الله ..

همّ بأن يحارب الله !..

وتقدم ، مدلاً بجبروته ، فدخل مكة ، ومن ورائه تتبعه قواته ، الفرسان ثم المشاة ، تتوالى في أرتال ..

كانت الأرض تحت وقع خطوات الجيش: وحشه وإنسانه، ترتجف كأنما يرجها زلزال ..

وكان صوت الفيلة ، وصليل السلاح ، وصخب الجند كهدير شلال ..

ومن أعالي الجبال ، حول البلدة ، كان أولئك الضعـــاف المكيون من الذراري المعتصمة بعيداً عن هول الغزو ، يرقبون بالقلق ما يكون ..

وفي منى كان مقاتلة قريش من الشبان والرجال على أهبة ..

غير أن الله شاء أن يكفي بلدته الحرام القتال ..

* * *

ما أن غدت الجحافل الحبشية على كثب من الكعبـــة ، وهمت بأن تخطو أولى خطواتها إليها، حتى ثبتت حيث بلغت، كأنما قد غاصت أقدامها في الرمال ..

توقفت فجأة عن الزحف ..

برك أمامها « مركب » ! قائدها ، ذلك الفيـــل الأبيض الكبير ، دون البيت العتيق . .

وأعداها بروكه ، فبركت المطايا من خلفه ،ووقف الجنود . .

وترجل أبرهة ، يحاول ورجاله أن يحملوا الفيل ، بالحيـلة والقوة ، على النهوض ومواصلة السير . .

لكنه ، في عناد عجيب ، أبى الانطلاق . .

جمد ، وجمد الجيش كله من ورائه ، على الطريق . .

وحار أبرهة ورجاله . .

ما السر !. .

إنهم يوجهون الفيل ، والمطايا الأخر ، شطر الكعبة فيجمد وتجمد ، ويحولونها عنها ، فيسير وتسير !. .

فإن يكن عمر حيرتهم قصر أو طال . .

أو يكونوا تبينوا السر أو جهلوه . .

فقد بغتتهم عندئذ أمر الله !. .

أخذهم أخذة اقتدار . .

« أرسل عليهم طيراً أبابيل . .

ترميهم بحجارة من سجيل . .

فجعلهم كعصف مأكول » . .

وغدوا في الغابرين !. .

* * *

ذهبوا عبرة لمن يريد الاعتبار ..

لكن المغامر الفرنسي « رينودي شاتيون : الأبرنس أرناط كان أحمق من أن يعتبر ..

كان مفتوناً بنفسه وجبروته ، فأعمته الفتنة عن الله وجبروت الله ..

الحكمة التي يفيض بها انجيل السيد المسيح ، لم تحرك عرقاً في قلبه الأغلف الجحود ، فأغفل – صلفاً وعنتاً وطغياناً – عواقب الطغاة المتجبرين أمثال « أصحاب الفيل » ، وسدر في شوط غيه إلى منتهاه ..

أصر على أن يحارب الله !..

وكما وطىء جيش الحبشة ، قبل بضع مئات من السنين ، أرض الحجاز ، وطئها أيضاً جيشه الصليبي ، السابح إليها على الماء ، عبر القلزم ، بعد ستة قرون ..

وكما دهمت الطير الأبابيل : ما خرات الأثير والمجهول « دعاة القليس » بمكة عند البيت الحرام .. فقد دهمت السفن المصرية : ماخرات العباب والأمواج « أدعياء الصليب » بشاطىء الجزيرة العربية ، قرب مثوى الرسول ..

فحين تفجرت في قلوب أولئك المتعصبين فرحة الحقد ، تضطرم وتتعالى كألسنة النار ، زهوا بنصر قريب خسيس ..

حين غدوا من هدف بغضائهم على مسيرة نهار ..

حين حسبوا أن لا عاصم اليوم من جبروتهم وبشطهم لقبر رسول الله ..

آنذاك بغتهم ، كما بغت سابقيهم — أمر الله .

« حسام الدين لؤلؤ » قائد أسطول مصر ، جعلهم عـــبرة وأمثولة ..

فاجأهم كأنه قضاء نازل ..

وقطّعهم كأنه « حسام ! » بتار ..

ومن لعله نجا منهم ، بلعته رمال الصحراء كقطرة ماء !..

* * *

القسم الثامن :

(١)

١١٦٧ م

مستهل الربيع ..

مدينة الاسكندرية ..

الثغر المصري الذي زرعه « الأسكندر الأكبر » في تراب قرية « راكوتيس » منذ أكثر من ألف عام ، ليستولي على عرش الساحل الجنوبي لبحر « الروم » ، على موعد مع حدث كبير ..

مع بشائر الخضرة والنضرة والزهر ، التي يحملها إليه الفصل الباسم ، أطلال برد ورياح وغيوم ، تخلفت عن شتاء عبوس ..

ومع نسائم الأمل الحلوة التي تتفتح لها الصدور في أوانه ، لفحات ضيق اضطربت بها النفوس ..

ففي مشاعر الناس هزات حيرة ..

وفي قلوبهم رجفات ترقب ..

وفي عيونهم نظرات تحفز ، بعضهـا يلتقي بصفحـة اليم

الزرقاء ، المنبسطة كالسهل ، عند آخر مدى تستطيع أن تبلغه الأبصار .. وبعضها يمتد إلى الجانب الآخر ، نحو البر ، بوادي الرمل ، عبر الأسوار ..

ولا غرو ..

فأفق الأحداث يشي بدنو عاصفة ..

عاصفة « صليبية » .. ربما بحرية .. ربما برية .. تهم بالهبوب ! ..

* * *

ولم يكن بالمدينة من يحميها ، ذلك اليوم ، من الهول المنتظر ، سوى ألف مقاتل ، هم كل من بقي بها من الجيش المصري الذي انشغلت فرقه بالتنقل في البلاد ، من الشرق إلى الغرب ، ومن الشمال إلى الجنوب ، لملاقاة الصليبيين ، منذ وطئوا بأقدامهم الأرض الخضراء ..

فقد أسرعت إليهم كتائب الدفاع في مواقعهم بمنطقة الدلتا ، غربي النيل ..

وتبعتهم إلى الصعيد ..

وضربتهم في الميناء قرب قرية الاشمونين ، بمعركة البابين ..

وطاردتهم حتى الفسطاط ..

وها هي الأنباء تجيء بأنهم ينحدرون شمالاً مع النهر إلى البحر ..

مدينتهم إذن هي مقصد الغزاة ..

ولم يكن بها سوى ألف مقاتل كحامية دفـــاع ، مقابل جحافل جرارة ، من أدعياء الصليب ، تتهيأ للهجوم ..

* * *

غير أن أهلها بادروا إلى تلبية داعي الفداء ..

وقفوا أجمعين صفاً واحداً ، مع حاميتهم الصغـــيرة ، قوة صلبة ، كزرد الفولاذ ، لا يخترقه سلاح !..

أصروا على الثبات في وجه العدوان ..

غلقوا على المدينة الأبواب ..

عززوا ما بها من مخارج ومداخل بالمتاريس ..

سدوا ما بجدرانها من فروج وثغرات ..

نشطوا إلى حركة الكشف والاستطلاع ، من خلال المراقب والفتحات ، ومن فوق الأبراج والمنائر ، وفي ظلال الأسوار ..

وعندما غدا « عموري الأول » من الأسكندرية على مسيرة خطوات ، عسكر خارجها ، ولم يبادرها بالهجوم ..

ولماذا عساه يبدأ القتال ؟..

يكفي أن يفرض عليها الحصار ..

إنه ليرى أن يجنب رجاله الاشتباك الآن ، ضنــاً بهم ، وادخاراً لقوته الحربية إلى معارك قادمة ، لا حيلة له في خوضها على أرض النيل ..

هو اليوم يؤثر التريث ..

وهو اليوم واثق أن فريسته لن تجد بـــداً من الخضوع ، وستسقط حتماً في يده بلا جهد يذكر ، إلا أن ينتظر ويصبر بضعة أيام ..

فلا عاصم لها منه ..

لا نجدة تستطيع أن تأتيها من هنا أو من هناك ..

كل المسالك إليها مسدودة ..

الطريق البري الذي تسده قواته مقطوع ..

والطريق البحري محال أن يصلها من خلاله مـــا هي بحاجة اليها من رجال وسلاح وطعام قبل ان تخضع للاستسلام ..

* * *

غير أن عمر الحصار طال ..

على كثرة ما جرب « عموري » مع الاسكندرية من أساليب التوعد والتخويف ، ومن وسائل التهديد والارهاب ..

على وفرة ما قام به بعض رجـاله من مناوشات ترمي إلى الإثارة والاستدراج ، ومن محاولات تهدف الى فتـــح الثغرات ونقب الأسوار ..

على فرط ما لقي أهل المدينة ـ نتيجة لضيق حلقة الحصار ـ من ضغط الجهد المبذول ، ومعاناة سغب الجوع ، ومقاســـاة لشعور المرير بالعزلة والانقطاع ..

مع هذا كله ، فلم تلن لهم قناة ..

استمسكوا بالصبر والعزم ..

ظلوا على يقظة وتحفز ..

لبثت العيون ساهرة، والأعصاب مشدودة، والقلوب راسخة، والعقول واعية ، والسيوف مشرعة والأقدام ثابتة ، والقامات شامخة ، والأعناق متلعة ، والرؤوس مرفوعة إلى السماء في إباء وكبرياء ..

وثقل على « عموري » الانتظار ..

فالوقت يتسرب من بين أصابعه كالماء ..

ومملكته الصليبية في بيت المقدس لن تسلم، أثناء غيابه بهذه الحملة إن طال فوق ما طال ، من عبث الأعداء ..

ومصر نفسها – كما يخال – أخذت أخيراً تلعق الجراح ، وربما تفاجئه بما ليس بحسبان ؟..

فهل من الخير أن ينتظر ؟..

أم الخير أن يسارع إلى الهجوم ويقتحم الأسوار ؟..

* * *

كلا !..

لا هذا ولا ذاك !..

إنما دله تفكيره على طريقة إن يتبعها جاءته بالنصر.. النصر العاجل الهين الرخيص !..

لكأني به قد تساءل :

ولماذا لا يكون الهجوم على الاسكندرية من داخلها، وليس من خارجها باقتحام الجدران والقلاع والحصون ؟..

لماذا لا تُكسر وحدتها الشعبية بالانقسام ؟..

لماذا لا تُحطم مقاومتها بأيدي أبنائها ، لا بأيدي حملته هذه التي يدخر رجالها وسلاحها للأيام ؟..

فلو ضرب بعض شعبها ببعض !..

لو أثار فريقاً من أهلها على فريق !..

إن من بين مواطني المدينة طائفة كبيرة « مؤمنة » أدنى بلا ريب الى أن تعينه ، وتكون معه ومع جنوده يداً واحدة ، وقلباً واحداً ، على أعدائه المسلمين « الكفار ! » حتى إحراز النصر ..

وكان أولئك المواطنون الذي تعلق بهم أمله : طائفة « الاقباط » ..

وكيف لا ؟..

انهم بقية المسيحية في مصر ..

انهم تماماً مثله :

رفاق في الدين ..

واخوة في المسيح ..

وحماة للصليب ..

* * *

وبدأ عموري ، من فوره ، حملة التفتيت ، يشنهـــا على المقاومة العسكرية ،وعلى الوحدة الشعبية للاسكندرية.. المدنية التي لم يفل عزمها كل ما عانت من شدائد الحصار ..

وكان سلاحه أقذر سلاح : اثارة نعرة الدين ..

وكان مشهرو هذا السلاح من رجـاله بضعة مختـــارة من المغامرين ، لعلهم من الفرسان الرهبان ..

وشهدت المدينة رسله أولئك يتسترون بالظلام ،ويستخفون في الظلال ، ويتمسحون بالجدران في محاولات للتسلل الى داخل الأسوار ، بلوغاً للتسلل الى داخل نفوس الأقباط ..

ولا شك في تعدد المحاولات ..

ولا شك أيضاً في تعدد اللقاءات ..

غير أن البذرة الخبيثة التي رأى « الملك الصليبي » غرسها لتنبت شجرة تطلع ثمرة لم تكتب لها الحياة لأنه زرعها في غير التربة التي تصلح للانبات !..

فقد خذله القبط آنذاك ..

أبوا عليه ما شاء كل الإباء ..

فالدين – كما لا ريب يوقنون – لله ..

والوطن لأبنائه أجمعين ، من أقباط ومسلمين،وعلى اختلاف الملل والنحل ، وتباين النظرات والمعتقدات ..

وإذا كان « عموري الأول » – من أجـــل اجتذابهم الى صفوفه – راح يتمحل بالمسيحية ، فالمسيحية الحقـة ، التي بها يؤمنون ، دعوة وفاق ، ومحبة ، وتسامـــح وسلام ، وليست دعوة شقاق وخصام ، وتنازع وانقسام ..

واذا كان قد أخذ يخايل شعورهم الديني بالصليب ، فالصليب أيضاً ، في اعتقادهم ، شعار تضحية وفـــداء ، لا شعار أثرة وبغضاء ..

* * *

وهكذا ذهبت خطة الملك مع الريح !..

تبددت كأضغاث أحلام نسخها النهار !..

فلعلها – في ضوء هذا الادراك – قد تجلت ، أمـام نواظر الأقباط ، عارية مفضوحة ، بكل قيمها وخبثها ، وبكل مـا أودعها صاحبها من خسة ومكر ، ومن نفاق ورياء ..

بل لعلها بدت لهم حيلة محتال لا يخش الاحتيال !..

بل عبث أطفال !..

أم حسب هذا الثعلب الصليبي أن هؤلاء الذين يحاول اليوم اثارتهم باسم الدين ليعطفهم لجانبه ، ويستدرجهم الى وجـاره ، قد نسوا ما كان منه بالأمس في حق طائفتهم ، وليس الأمس ببعيد لتمحي سطوره من الذاكرات ، وتذوب وقائعـــه في النسيان !..

خلال عهده الذي ورث فيه عرش مملكة بيت المقدس الصليبية من شقيقه « بلدوين الثالث » ظل يرنو الى تحقيق حلم أخيه بالاستيلاء على أرض النيل ..

سعى الى الاستيلاء على مصر، بحملته هذه وبغيرها أخريات، بضع مرات ..

ست مرات ..

كان دائماً يمشي اليها في عناد واصرار ..

يقتحم حدودها فيأخذ على الساحل ، أو يجتاز صحراءها فيخترق سيناء ، أو يجيئها بحراً من ناحية دمياط .. ثم يمضي عبر الدلتا ، ويسير النيل آناً الى الجنوب ، وآناً الى الشمال ، حتى بلغ في احدى غزواته أواسط الصعيد ..

وفي كل مرة كان يؤوب الى ممتلكته بالاخفاق ..

لكنه ، في كل مرة ، كان يسلك مع الأقباط ، في المدن والقرى وحيثما دخلت ومرت قواته ، نفس مسلكه الوحشي مع اخوانهم المسلمين سواء بسواء ، دون تفرقة بين أولئك وهؤلاء ، ولا تمييز لأصحاب هذا الدين على أصحاب ذلك الدين ..

وفي كل مرة ، أيضاً ، كان شأنه مع الفريقين تماماً كشأن قومه الغربيين معهم في هذا الوطن ، من سلف منهم ومن خلف ، صليبيين أو غير صليبيين .

نفس القتل ..

نفس التعذيب ..

نفس الاضطهاد ..

فكلهم – في رأس الغرب – أعداء ..

كلهم مصريون ..

كلهم شرقيون ..

* * *

والصور عديدة لا يحصرها احصاء ..

صورة منها :

مسيحيو الشام اليعاقبة ، في هلع أكبر ، يخرجون من ديارهم جماعات ، كأرجال جراد مذعور .. فراراً الى مصر من الهول الأكبر الذي لاحقهم بويلاته ، ولاحق معهم مواطنيهم المسلمين من صليبية « جودفري دي بويون » ..

صورة منها :

المغامر الصليبي أرناط : « رينو دي شاتيون » يأمر بالأسقف « اميري » فيجلد بالسياط حتى يتمزق لحمه ، ثم يدهن جسمه بالعسل ويلقى به في الصحراء في وقدة الشمس ، ليكون فريسة مشتهاة للنحل والزنابير والذباب !..

صورة منها :

دوق لورين ، سليل شارلمان ، وأول ملوك الصليبية على عرش أورشليم ، لا يكاد يفرغ – بعد استيلائه على المدينة

المقدسة — من المجازر التي ذبح فيها عشرات الألوف من المسلمين حتى يولي وجهه نحو اضطهاد أهلها المسيحيين ، ولا يعف عن تناول رجال كنيستهم بالنكال والتشريد، بادئاً بأسقفهم العربي كنقطة انطلاق !..

صورة منها :

عموري يعبر الدلتا ، ويهاجم بلبيس . فلا يكاد يدخلها حتى يدعها نهباً لجيشه ، يقتل ويحرق ويدمر ، ثم يقيم فيها فرسانه الرهبان مذبحة بشعة ، تلتهم أهلها الاقباط التهاماً ، بغير وازع ديني أو خلقي يرد أولئك القساوسة الزهاد عن وحشيتهم ، ودون رحمة أو شفقة تأخذهم على شيخ فان ، أن امرأة ضعيفة أو وليد رضيع ..

وغير هذا كثير ..

* * *

والشهود أيضاً كثيرون ..

شهود من الغرب ذاته ، ان يكونوا تعللوا بالذرائع ، تبريراً وتفسيراً لسلوك عموري وأشباهه الصليبيين خاصة ، والغربيين عامة ، فمعاذيرهم وشروحهم هي ، في جوهرها ، أدنى الى الاعتراف والإقرار منها الى التعليل والاعتذار ..

فالمسيحية ، كما بدا من سلوك طغاة الصليبية وبني جلدتهم ، اثنتان :

مسيحية شرقية ..

ومسيحية غربية ..

وكلتاهما خصمان متنافران ..

فالاولى : إلحاد ..

والاخرى : إيمان ..

* * *

ويؤصل لنا محمد على الفتيت – في كتابه : «الشرق والغرب» – سر التنافر بين المسيحيتين على ضوء هذا السلوك ، فيقول :

« في رأي الغرب أن الشرق، على الرغم من أنه مهد المسيحية ومنبتها ، قد أصبح رمز انقسامها وانشقاقها وخروجها على سلطة البابا انشقاقاً متمثلاً في الكنائس اليونانية والارمنية والقبطية .. .. »

ثم ينقل بعض ما ورد ، في هذا الصدد بكتابات مفكرين غربيين ..

عن جوستاف لوبون :

« مسيحية الشرق تغاير مسيحية الغرب » ..

أما تعليل هذا التغاير فهو ، كنظر لوبون ، ان الشرقية تقوم على أسس عنصرية الساميين، اذ تشتق أصولها من اليهودية، بينما تقوم الغربية على القواعد التي وضعها بولس الرسول .. »

عن الفيلسوف رينان :

أن الغرب وحده هو الذي كان أهلاً للرسالة المسيحية وتعاليمها الحقيقية » ..

بل الغربيون أيضاً يرون حرمان أهل الشرق من نعمة « الخلاص » .

يدعون أن السيد المسيح ، حين حمل رسالة الفداء ، إنما أتى إلى الدنيا ليفدي مسيحيي الغرب بدمه، لا ليفدي المسيحيين الشرقيين ..

حتى في الدين يطغى عليهم جشع الأثرة ، وهوس العنصرية، وصلف الاستعلاء ..

لأنفسهم – دون سواهم – احتكروا غفران الله !.

(٢)

٥٨٦ هـ

المكان : عكا .

الشهر : ربيع ..

الفصل : الربيع ..

المدينة العربية الواقعة على الساحل الشرقي لبحر الروم تعاني من وطأة حصار شديد ضربته حولها جموع القوات الصليبية المتحالفة ، وعلى رأسها ملك بيت المقدس جاي لوزجنان تماماً

كذلك الذي ضربته – قبل بضعة وعشرين عاماً – قوات عموري على أختها الاسكندرية ..

الفصل كالفصل ..

والحدث كالحدث ..

والحامية اليوم هنا ، كالحامية بالأمس هناك ، قلة لا تكاد تغني شيئاً أمام الجيوش المتأهبة للانقضاض ..

القلق يسيطر على المسلمين ..

لكن الذي أسهد جفونهم ، وأقض مضاجعهم ، لم يكن هذا الحصار الذي يهدد الثغر الصامد ، إلى الآن، في وجه الأعداء..

بل الذي أثار قلقهم تلك الأخبار التي ترامت إليهم من القسطنطينية ، عن الجحافل المتدفقة من ألمانيا كالطوفان، لغزو الشرق العربي كله ، بقيادة بارباروسا ، امبراطورها العجوز ..

* * *

قيل آنذاك إن جيوشه ثلثمائة ألف مقاتل ، من المشاة والفرسان ..

وقيل مائتا ألف ..

وما تواضع من الأنباء ، ذكر أنها مائة ألف ، تخترق الآن قلب الدولة البيزنطية ،وتهم أن تنصب كالسيل على أرض الشام..

وكيفما كان عتادها وكانت أعدادها ، فهي محنة أي محنة ، تزلزل القلوب ..

إفصاح عن اعتزام الامبراطور اجتياح بــلاد الاسلام من الشمال للجنوب ، ومن الغرب إلى الشرق ، اقليماً بعد إقليم ..

ترجمة عملية لرسالة التهديد ، التي بعث بها إلى صلاح الدين، تنقل ما بها من كلام إلى أفعال ..

وكانت الرسالة تجري على مثل هذا السياق :

« .. .. دنستم الأراضي المسيحية المقدسةوهي ملك خالص للغرب ، فاستحق عليكم جزاء جرمكم هذا أشد العقاب .. .. »

ردوها لنا ، أو نغزوكم بقوة السلاح ، وببركة الصليب !..

أليس حقاً عليكم التماس العبرة من وقــائع التاريخ القديم والحديث !..

أما علمتكم دروسها أن بلاد الحيثيين والمغرب وفارس وسوريا وفلسطين وجزيرة العرب ومصر ، كلها ملكنا الخاص !..

إذن ، لسوف تعلمون ..

وليأتين اليوم الموعود بنصر المسيح ..

ولتدركن عندئذ أننا نجيد قطع الركاب ، ونحسن الضرب بالحسام » !..

* * *

ويمضي بارباروسا وما ارتآه ..

يأخذ في تنفيذ هذا الوعيد ..

يزحف بالآفه التي تحسب بالمائة ، أو المائتين ، أو الثلاثة ، عبر آسيا الصغرى ، نحو الشرق ، والأرض العربية ، ليهدم الإسلام ..

فما يكاد يوقن أن غايته غدت منه عند طرف بنانه ، حتى تنقلب الحال ..

ينتسخ حلم الشيخ المغرور ..

يتحرك القدر ..

لكأنما « المسيح » قد هاله ما كان يسعى إليه الطاغية من عدوان لا تقره المسيحية ، ولا ما عداها من شرائع السماء ، فحرمه تلك « البركة » التي كان يطمع أن تهديه إلى النصر ..

حدث ذلك وجحافل الموت الالمانية تكاد تندفع إلى الشرق العربي كالطوفان ..

* * *

حدث ذلك ذات نهار ، من صيف العام ..

الشمس حمراء ..

والأشعة التي تصبها على الناس من عليائها جمرات نار ..

الهواء بخار ..

ولفحاته للوجوه والأجسام لسعات سياط ..

ورأى الامبراطور ، الذي عذبه اللهب ، أن يطفىء ما اشتعل بجلده من حريق ، فأسرع يلقي بنفسه في نهر صغير ..

كان الماء بارداً كنسمة الشمال .

صافياً كالبلور ..

ناعماً كصدر حسناء ..

وانتعش العجوز ..

طفا وغاص ..

غطس وعام ..

داعبته المياه وداعبها ما شاء ..

وعندما شبع من المتعة ، وأحس أن بدنه قد ارتوى .. وهم بالخروج ، أبى عليه النهر الصغير ..

تشبث به التيار !..

وفي مثل لمحة الطرف كان قد جرفه ، ثم قذف به إلى جذع شجرة قريب سحق رأسه كما تسحق في قبضة كفك بيضة عصفور ..

وهلك ، على الفور ، الامبراطور ..

ثم تفرق – دون غايته – جيشه الكبير ..

* * *

أياً ما كانت نهاية باربروسا ، وكان مكانها من عبر التاريخ ، فقد مثل لنا في رسالته – برسم قلمه – على هيئة طاغية مدع ، ومتجبر مغرور ..

وأياً ما كان تمسحه بالمسيح ، واستتاره بالصليب ، فقد بدا وهو أبعد الناس روحاً من سماحة المسيح،وأجهل الناس إدراكاً لحكمة الإيثار التي يجسدها شعار الصليب ..

عن هدفه عبرت كلماته ، وعن نفسه نمت معايبه فإذا هي النفس المعتمة التي لم ينورها إيمان ، وإذا هو الهـــدف الظلوم الذي ينكره الحق ، وطبائع الخلق ، وكرامة الناس ، ومنطق الأمور ..

كما صدرت حروف عباراته ، لم يكن هدفه استعادة كنيسة القيامة ..

ولا مدينة اورشليم ..

ولا كل أرض فلسطين .

ليست هذه أو تلك ، هي الغاية .. لا قبل الصليبيات ، ولا بعد الصليبيات ..

لا في الماضي الغابر ، ولا في الحاضر الماثـــل ، ولا في الغد القابل ..

إنما الغاية التي أفصح عنها ، وعليها أصر ، ويصر قومـه ، كما يرسم لنا دائماً سلوكهم على صفحات التاريخ ، أكبر وأخطر من هذا بكثير ..

دائماً كانت :

امتلاك ما دون أرضهم من بلاد ..

استعباد ما دون جنسهم من أناس ..

إهدار ما دون معتقدهم من معتقدات ..

وإليها سعوا في كل زمان ، من كل سبيل ..

وكانت بلاد الشرقي العربي ، بنظرتهم التقليدية ،على الأعصر هي أولى أرض بالامتلاك ..

وكان شعبها هو أولى أناس بالاستعباد ..

وكان معتقدها هو أولى معتقد بالإهدار ..

بهذا نضح فكرهم ، وعليه أجمعت سياستهم ، وإليه مشت جهودهم ، توالت العهود ، أو تطورت الأفكار ، أو تغيرت الأساليب ..

يقول مؤرخ صليبياتهم ، غليوم دي تير :

« .. .. كان الصليبي يرى أن الشرقي ، وحده ، هو عدوه اللدود ، سواء أكان هذا الشرقي من المسلمين ، أم كان من المسيحيين .. »

كان ؟..

بل الى الآن ..

والى ما بعد الآن ..

فكلهم في الغرب – بالفكرة وبالخطة ، بالقول وبالفعل – صليبيون ..

* * *

برسم حروفه ، لم يكن خروج باربروسا العجوز إلى الشرق العربي ابتغاء تحقيق غرض نبيل ..

لم يكن درءاً لشر تمكيناً لخير ..

لم يكن دحضاً لباطل إقراراً لعدالة ..

لم يكن دفعاً لعبودية تحقيقاً لحرية ..

لم يكن نشراً لقيمة تسمو بالإنسانية ..

لا حمايةً لدين ..

ولا ذياداً عن قداسة مكان ..

ما أعلن أو أضمر من نواياه ، وما أنجز أو حاول من فعاله : كان محالاً أن ينبثق من « روحانية » ، تعي المبادىء الخلقية ، وتحس بكرامة الإنسانية ، وتؤمن بالمسيحية أو غيرها من الأديان ..

فوظيفة المبادىء الخلقية بناء الإنسان القويم ..

وكرامة الإنسانية في تآخي بنيها ، وتضافر جهودهم في السعي الى الخير العام ..

ورسالة المسيحية : محبة وتسامح ، وفداء وإيثار ، ووئام وسلام ..

أما مسعى باربروسا وقومه ، فإلى الهدم لا البناء ، والى التناحر لا التضافر ، والى القتال لا السلام ..

« المادية » هي التي تحرك خطاه ..

شعاره : « أنا » ..
طريقه : الكراهية ..
غايته : الاستئثار ..

وكان عدوه ، محور بغضائه ، وموضع نقمتـــه ، ومرمى سلاحه : الإسلام ..

* * *

فما الذي نقمه الامبراطور ؟..

ماسر بغضه ، وبغض غربه المسيحي لهذا الدين ؟..

فيم اجتماعهم على سحقه وسحق بنيه ؟..

هل الإسلام إلا كالمسيحية دين سماء ؟..

هل « القرآن » إلا من نفس نبع « الانجيل » ؟..

وهل « محمد » إلا على نفس نهج « المسيح » ؟..

لو أن هؤلاء البغاة عقلوا ، لأدركوا من حقيقة رسالة المسيحية ما تغافلوه .. ولرأوها كريمة صافية سمحة ، كما رآها — بقلب مؤمن ، وعقل واع ، وروح شفاف — مسيحي قبلهم تنزه عن عمى التعصب فرأى الحق ، وأقر به غير متلوم ولا منحاز ..

ذاك « نجاشي » الحبشة ..

المسيحي الذي سبقهم الى اعتناق دعوة ابن مريم بعدة قرون ..

وكان هذا قبل هجرة « محمد » الى يثرب بسنوات ..

(٣)

٥ ق. هـ.

مكة ..

قبل حملة بارباروسا على الشرق العربي المسلم بمئات الأعوام..

الإسلام في مستهل أيام عمره ..

الدعوة الى الله لا تزال تحبو في تثاقل ، وكأنها تحفر طريقها الى القلوب الغلف في الصخر .. بالأظافر !..

الطائفة التي آمنت من المكيين قلة مستضعفة ، ان تزد على آحاد ، فلا تجاوز عشرات ..

أهل بلدتها يلاحقونها بالاضطهاد ..

محمد نفسه كان يلقى من الشرك وعبدة الأصنام عذاباً تنوء به العصبة أولو العزم من الرجال ..

ويبلغ الأذى به وبصحبه مداه ، فيفكر في منفذ الى الخلاص :

ماله لا يجنبهم الهلاك الذي يترصدهم هنا بمكة ، ويكاد يتخطفهم تخطف الذئاب للحملان ؟..

ما لهم لا يفرون بدينهم أن يفتنهم عنه بطش الكفار ؟..

ليبعثن محمد بكثرتهم الى منجاة ..

وليبقين وحده ، في أقل بقية من الطليعة المؤمنة ، مناضلاً الشرك ، صابراً على أذاه ، حتى يحكم الله ..

* * *

ويأمر الذين آمنوا وأوذوا وعذبوا في الله ، أن يهجروا هذه القرية الظالم أهلها ، نجاء بأنفسهم ودينهم من عنت الكفار ..

يقول لهم :

« تفرقوا في الأرض » .

فيسألون :

« الى أين يا رسول الله » ؟ .

« ها هنا » !..

ويشير بيده الى ناحية الحبشة .

ويخرجون ..

فرداً فرداً ، وزوجاً زوجاً يبارحون دورهم على استخفاء ، متسترين بالظلال والظلام ..

رحالهم خالية من المتاع ..

أما قلوبهم فعامرة بالإيمان ..

* * *

غير أن فجار الشرك يطاردونهم الى ملاذهم الجديد ..

يوفدون في أعقابهم الى النجاشي رجلين يحملان له ولبطارقته ورجال بلاطه أنفس الهدايا، ويثيرانه ومن حوله على المهاجرين ليعيدهم الى المشركين ..

ويوغر الوافدان صدر الملك على ضيوف أرضه مـــا وسعهما إيغار ..

فهؤلاء اللائذون برحابه عصاة ..

صابئون عن عقيدة الآباء ..

أتباع نحلة غريبة ابتدعها « كذاب » ! لم يتبعه من قومـه إلا السفهاء ..

لا يؤمنون بدين الأحباش ..

يستكبرون على الملك، فلا يحيونه بمظاهر الإجلال والإكبار، على خلاف ما يفعل رعاياه، وبغير ما تحتم أصول الولاء ..

هم، فوق هذا أيضاً، يجدفون بالمسيح، ويقولون فيـه، وفي أمه، أفحش مقال ..

ويطرق النجاشي برهة يفكر ..

لقد سمع عن مهاجرة مكة ما يحرمهم الأمان ..

ويلتفت الى بطانته :

« ما تقولون ؟.. »

يقول بعضهم له :

« صدقا ، أيها الملك .. قومهم أعلم بهم . فأسلمهم اليهما ليردوهم » ..

لكن النجاشي يأبى الرأي ..

يهز رأسه :

« لا والله !.. حتى أدعوهم وأسمع منهم » ..

وجيء بهم إليه ..

* * *

جيء اليه بحزب الله ..

كانوا بضعة وثمانين رجلا من أتباع محمد ، غير عدد من النسوة يقارب العشرين ..

فما أن كادوا يمثلون بقاعة العرش ، ويلقون بالتحية ، حتى هب من بين بطارقة النجاشي من أنكر عليهم تحيتهم ، وصاح بهم :

« مالكم لا تسجدون للملك » !..

وقال صاحب التاج :

« ما منعكم أن تسجدوا لي ، وتحيوني بتحيتي التي يحييني بها الناس » ؟..

فبادره جعفر بن أبي طالب :

« إنا لا نسجد إلا لله » ..

وتعلقت الأنفاس !..

ساد صمت ثقيل في جو الغرفة ، تحولت فيه عيون الأحباش ورسولي قريش الى النجاشي تحاول أن تتسلل الى ما يكاد يخفيه عنهم من مشاعره إزاء هذا الجواب الصريح الجـاف ، الذي لا يليق أن يقال مثله في حضرة الملوك ..

لكنهم لم يشهدوا من ملامح صاحب أمرهم الا مثل صحيفة بيضاء ، لا تكاد تعبر عن سخط ولا رضاء ..

كان مطرقاً كأنما يفكر ..

كان مشغولاً عنهم ،وعن تصوراتهم الجامحة،باستقراءضميره..

وعندما رفع رأسه ، رأوا عينيه تلتقيان على وجوه جعفر ورفاقه بنظرات لا تكاد تنم عن الغضب بقدر مـــا تنبىء عن الترفق ، ولا عن العجب بقدر ما تصور الإعجاب ..

* * *

ثم قال ، مرة أخرى ، لحزب الله :

« ما هذا الدين الذي فارقتم فيه قومـــكم ، ولم تدخلوا في ديني ، ولا في دين أحد من الملل ؟.. »

قال جعفر :

« أيها الملك !.. كنا قوماً أهل جاهلية ، نعبد الأصنام ، ونأكل الميتة ، ونأتي الفواحش ، ونسيء الجوار، ويأكل القوي

منا الضعيف .. حتى بعث الله إلينا رسولاً منا نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه .. دعانا إلى الله لنوحده ونعبده ، ونخلع ما كان أباؤنا يعبدون من دونه من الحجارة والأوثان .. وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام ، وبصدق الحديث ، وأداء الأمانة ، وصلة الأرحام ، وحسن الجوار ، والكف عن المحارم والدماء .. فصدقناه وآمنا به واتبعناه .. .. »

قال الملك :

« فما تقولون في عيسى بن مريم » ؟..

قال جعفر :

« نقول فيه الذي جاءنا به نبينا : روح الله وكلمته التي ألقاها إلى مريم » ..

« هل معكم مما جاء به نبيكم من الله شيء »؟..

« نعم » ..

« اقرأه علي » ..

فراح يقرأ من القرآن ، والملك خافض الرأس غاض البصر ، ملق إليه بكل سمعه وجوارحه في خشوع ..

تلا جعفر من سورة « العنكبوت » ..

حتى إذا رأى أن يكتفي بما رتل كنموذج من آيات التنزيل ، قال النجاشي :

« زدني !.. »

فتلا من « الروم » ..

« زدني !.. »

فتلا من « الكهف » ..

« زدني !.. »

فتلا من « مريم » :

« .... واذكر في الكتاب مريم إذ انتبذت من أهلها مكاناً شرقياً . فاتخذت من دونهم حجاباً فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشراً سوياً . قالت إني أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقياً . قال إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاماً زكياً . قالت أنى يكون لي غلام ولم يمسسني بشر ولم أك بغياً . قال كذلك قال ربك هو علي هين ولنجعله آية للناس ورحمة منا وكان أمراً مقضياً .. .. »

واسترسل يتلو ..

فما أن فرغ من القراءة ، حتى رفع الملك المسيحي إلى من حوله من بطارقته ورهبانه وجها اغتسل بدمعه ، قد لانت ملامحه ، واستضاءت قسماته .. وقال بنبرات عميقة الجرس يرجها البكاء :

« ان هذا والذي جاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحدة » ..

ثم التقط عوداً من الأرض هزه بين اصبعيه وهو يكمل كلامه :

« .. والله ما زاد هذا على ما في الإنجيل إلا كهذا العود » ..

وقال لبعض حاشيته وهو يرمي وافدي قريش بنظرة شذراء :

ردوا عليهم هداياهم » !..

ثم التفت إلى أصحاب جعفر :

« انزلوا حيث شئتم من أرضي آمنين . فما أحب أن يكون لي جبل من ذهب ويؤذى رجل منكم .. ألا من سبكم غرم !.. من سبكم غرم !.. من سبكم غرم » ..

هكذا مسيحية المسيح ..

* * *

مرة أخرى :

ما الذي نقمه باربا روسا من الإسلام ؟..

ما الذي نقمه الصليبيون ؟..

ما الذي نقمه أبناء غربهم « المسيحي ! » وينقمونه حتى الآن ؟..

إن كان غضباً للدين ، فالإسلام لا يعادي رسالة من رسالات الله ..

ولا يفرق بين رسول ورسول من رسل الله ..

أو يكن حقداً على المسلمين ، فالمسلمون – بهدي دينهم – يؤمنون بوحدة البشرية ..

يؤاخون كل الناس ..

لا يميزون بين الأجناس ..

محمد الغزالي ، في كتابه « التعصب والتسامح بين المسيحية والإسلام » يقول :

« أما المسلمون ففي دينهم قاسم مشترك بين الديانات كلها .. يضمون إلى إيمانهم بموسى وتوراته ، وعيسى وانجيله ، إيماناً جديداً بمحمد وقرآنه على أساس أن النبوة الأخيرة جاءت تصديقاً لما قبلها ، ومحوا للفوارق والخلافات التي مزقت شمل العالم أجمع : « وَمَا أنزَلنَا عَليكَ الكِتَابَ إلاّ لِتُبَيِّنَ لَهمُ الّذي اخْتَلَفُوا فيه ، وَهُدَى وَرَحْمَةَ لِقَومٍ يُؤمِنُون .. »

ويقول :

« فالإسلام هو يهودية موسى ، ونصرانية عيسى معاً ، وهدايات من قبلها من رسل الله الأكرمين جميعاً : « قل آمنا بالله وما أنزل علينا ، وما أنزل على ابراهيم واسماعيل واسحق ويعقوب والأسباط ، وما أوتي موسى وعيسى والنبيون من ربهم ، لا نفرق بين أحد منهم ، ونحن له مسلمون » .. .. »

وليست هذه نظرة مسلم يحاول الدفاع عن الاسلام ، بل هي أيضاً نظرة صادقي العقيدة المنصفين من المسيحيين ..

فقد نقل إلينا « الأسقف رولان » أن كثيراً من المسيحيين رأوا أن الاسلام « تتمة طبيعية للمسيحية . وأن محمداً رسوله — وقد قفى على آثار من سبقه من الرسل والأنبياء ، وفيهم موسى وعيسى — إنما جاء بالقرآن متمماً للتوراة والانجيل .. .. »

على هذه الشرعة مضى المسلمون .. بالرأي والسلوك ..

وكم في سيرتهم ، على مدرجة التاريخ ، من شواهد تبين التزامهم سبيلها ، بغير ترخص ولا انحراف ..

وكم من أدلة تؤكد حرصهم على التسوية الكاملة في الحقوق والواجبات ، بينهم وبين سائر من يخالفونهم في العناصر والمعتقدات ..

كم من أمثال .. ..

(٤)

١٢ هـ

المكان : دلتا الفرات ..

الدولة : فارس ..

الشهر : ربيع ..

نفس الفترة من العام الهجري التي زحفت في مثيلتها ، قبل أكثر من خمسة قرون ونصف قرن من الزمان ، جحافل الموت الالمانية بقيادة امبراطورها الصليبي العجوز ، من وسط القارة الأوروبية الحاقدة ، عبر الأراضي البيزنطية ، نحو الشرق العربي ، لاجتياح بلاده ، وإبادة شعبه ، واستئصال الإسلام ..

شهر كالشهر ..

وحرب كالحرب ..

أما الغرضان فمختلفان ..

وأما الوصفان فنقيضان ..

فالغرض اليوم ليس الابادة ، بل الحياة !..

والوضع اليوم ليس الدفاع ، بل الهجوم ..

كتائب الايمان الاسلامية ، تندفع الى الأمام ..

قائدها العبقري : خالد بن الوليـــد ، سيف الله المسلول ، يتقدم بها في انقضاضة صاعقة ، وكثورة إعصـــار ، لينسف قوات الامبراطورية الفارسية ، ويذريها في الريح ! .

يصعق جند « النار » !..

يدك معاقل الطغيان ..

يدمر البذخ الفاجر الذي يترع كؤوسه من دم الشعوب!..

يمشي على جبروت الأكاسرة مشية القضاء ..

يكسح ويفتح ، وهو يسوق أمامه النصر حيثما سار ..

* * *

غير أنه كان أيضاً يزرع النور !..

ينقّي الأنفس، ويطهر القلوب، كما تُنَقّى التربة من العشب الضار ، وتطهر من الطفليات ، قبل أن تستقبل البذور ..

فلقد جاءت كلمة الحق ..

تنزلت من السماء على هذه البشرية التي يلتهمها الضياع ..

وكانت ايماناً بالله ..

وايماناً بالقلم ..

وايماناً بالانسان ..

وعندما خرج المسلمون من مدينة الرسول ، عامـــاً وراء عام ، بعثة بعد بعثة ، كتيبة في أثر كتيبة ، انما خرجوا لنشر هذه الرسالة في العالمين ..

فقد آن للبشرية أن تصحو ، لتعيش الحيــاة التي ينبغي أن تعاش ..

آن للأرواح أن تتحرر من عقال النحل المبتدعة التي ألقت ظلالاً كثيفة حول « الله » : الحقيقة الواحدة في الوجود ..

آن للعقول أن تتحرر من قيود الجمود ..

آن للانسان أن يتحرر من الاستعباد ..

* * *

ولم يكن خالد وغيره من قادة الجيوش الاسلاميــة والدعاة الى رسالة السماء ، يلجأون الى البطش والعنف والارهاب لنشر الاسلام ..

فلا إكراه في الدين ..

والدعوة الى الله سبيلها الحكمة والموعظة الحسنــة ، وليس جز الرقاب ..

وما كان لقائد من المسلمين ان هو نزل بــأرض قوم أن يشهر

في وجوههم السلاح ويحاربهم قبل أن يعـذر اليهم ، ويبين لهم أنه إنما جاءهم يدعوهم الى الهدى والسلام ..

وعلى نفس النهج كان سلوك ابن الوليد ..

عهد إذ ذاك الى أمراء أجناده :

« .. .. أن يبدأوا القوم بالدعاء .. فإذا قبلوا ، قبلوا منهم ، وان أبوا أجّلوهم يوماً .. » لا يشنون عليهم الحرب عسى أن يتيح لهم هذا التأجيل فرصة لاحسان التفكير ، وسبيـلاً الى تجنب القتال ..

كان يبعث – قبل أن يسل سيفه من غمـــده – الى العدو نفس الصيغة التقليدية التي دأب المسلمون في فتوحهم على توجيهها الى من يعرض لهم أو يعرضون له ، وظل مفهومها دائماً مبـدأ مرعياً لأتباع محمد لا يحيدون عنه ولا يخدشونه في أمثال هـذه الأحوال :

« أدعوكم الى الله والى الاسلام .. فإن أجبتم إليـه فأنتم من المسلمين ، لكم ما لهم وعليكم ما عليهم ..

فإن أبيتم ، فالجزية ..

فإن أبيتم ، جاهدناكم .. .. »

* * *

لقد كان يبدو طبيعياً حينذاك أن يتأبى قوم كسرى – بدء الأمر – على الدعوة ..

فالناس ، عادة ، أعداء ما جهلوا ..

أيضاً ، عبيد ما ألفوا ..

وقد ألف الفرس ما وجدوا عليه الآباء ..

وعقيدة « المجوسية » غير دين « الاسلام » ..

« الثنوية » غير « التوحيد » ..

« هرمز » إله النور ، مع « أهرمن » إله الظـــلام ، غير « الله » ..

وقد كان يبدو طبيعياً أيضاً ، أن يتأبوا على دفع الجزية ..

فهم أصحاب البلاد ..

وهؤلاء الوافدون عليهم من الصحراء ، غرباء ..

ودفع قسط من أموالهم الى غريب ، فيه من مظاهر الخضوع والمهانة ما لا ترتضيه كبرياء ..

* * *

هكذا دفعهم قدرهم أن يقولوا لخالد بن الوليد :

« لا !.. »

قالوها بضع مرات ..

ووقفوا وهذه « اللا ! » معهم ، بمواقع عـدة يناجزون حزب الله ..

فلو أنهم عقلوا !..

لو أنهم وعوا نذير خالد ، وقد كان دائماً يقول :

« .. .. أتيتكم والله بقوم هم على الموت أحرص منكم على الحياة » !..

لو أنهم أمعنوا التفكير !..

لو أنهم أحسنوا الاختيار !..

لو أنهم أدركوا حقيقة « الدعوة ».. أو حقيقة« الجزية ».. إذن لتجنبوا ما حاق بهم من خسار وبوار ..

* * *

أما « الدعوة » الى الاسلام فلم تكن – في أغلب الظن – عسيرة المأخذ على من هم على مثل عقيدتهم « المجوسية » التي كان بها من الفروج والثغرات ما يسهل الولوج منه ، في غير مشقة ، الى الدين الجديد المطروح للاعتناق ..

كانت ، في حقيقتها ، المرتبة العليا في تنزيه الله التي تؤلف الامتداد الطبيعي للفكر الديني الذي بلغته « المجوسية » من درجات الترقي في تنزيه الله ..

كانت القمة التي لا تسمو قط الى مثلها ذروة دين ، وهفت روح « نبيهم » زرادشت أن يرفع اليها عقيدة المجوس ..

يقول العقاد في كتابه « الله » :

« وقد حرم زرادشت عبادة الأصنام والأوثان ، وقدس النار على أنها هي أصفى وأطهر العناصر المخلوقة ، لا على أنها هي الخلاق المعبود .. .. »

ثم يجمل هذه العقيدة فيقول :

« وخلاصة ما جاء به زرادشت من جديد في الديانة ، أنه أنكر الوثنية ، وجعل الخير المحض من صفات الله . ونزل بإله الشر الى ما دون منزلة المساواة بينه وبين الآله الأعلى . وبشر بالثواب ، وأنذر بالعقاب . وقال بأن خلق الروح سابق لخلق الجسد ، وحاول جهده أن يقصر الربانية على إله واحد موصوف بأرفع ما يفهمه أبناء زمانه من صفات التنزيه .. .. »

ثم يعلل قصور زرادشت عن البلوغ بعقيدته الى كمال التنزيه ، فيقول :

« ويخيل الينا أن زرادشت كان خليقاً أن يسمو بعقيدة المجوس الى مقام أعلى من ذلك المقام في التنزيه ، وأن يسقط بأهرمن من منزلة الند الى منزلة المارد المطرود ، لولا أن وجود أهرمن كان لازماً لبقاء الكهانة الفارسية في عهود المحن والهزائم التي منيت بها الدولة وتجرعت فيها الأمة غصص الذل والانكسار ، فلو قال الموابذة المؤمنين بهرمز انه هو الاله المتفرد في الكون بالتصريف والتقدير لكفروا بدينهم وحاروا في أمرهم . ولكنهم يكبرون من قوة أهرمن ، ويجعلون انتصاره عقوبة للناس على تركهم للخيرات وحبهم للشرور ، ثم يبشرونهم بغلبة الآله الحكيم الرحيم بعد الهزيمة ، فتهدأ وساوسهم الى حين » ..

* * *

وأما « الجزية » فلم تكن على نحو ما تخيلوه ..

لا نصيباً من المال يؤدى لغريب تعبيراً عن الخضوع ..

ولا مهانة تذل الكبرياء ..

كانت نصيباً يؤدونه أداء « شركاء » لبناء ذلك المجتمع الانساني « المتوحد » الذي جاءت به رسالة الدين الجديد ..

كانت قرين « الزكاة » التي يعفيهم منها الاسلام ، ويقصر فرضها — دونهم — على المسلمين ..

كانت لقاء رعاية الدولة لهم .. عليهم أداؤها أنصبة لا تشق على أحد منهم : « القوي على قدر قوته ، والمقل على قدر اقلاله » .. ولهم بها على الدولة أن تحميهم وتمنعهم : « فإن لم تمنعهم ، فلا جزية لها عليهم » ..

كانت التعبير العملي لتساويهم في الحقوق والواجبات بمن ظنوهم « غرباء » ! أولئك الذين سيضمهم واياهم وطن واحد ، الكل فيه سواء ، بغير تفرقة بين الأديان ، ولا تمييز بين الأجناس ، على اختلاف النحل ، وتباعد المواطن ، وتباين الأصول والأرومات ..

* * *

في ظل القديم الموروث ، كان أدنى الى تفكير الفرس أن يتأبوا على الدعوة ، ويرفضوا الجزية ، ويدفعهم « المناخ النفسي » الذي يعيشون فيه الى تفضيل ثالث الشروط التي عرضها أولئك الوافدون عليهم من الصحراء ..

كان أدنى الى تفكيرهم أن يروا في « حزب الله » مجـــرد غزاة ..

وكان « أليق » ! بهم أن يبادروا الى القتال ..

هذا مقبول ..

أما ما ليس بمقبول ، ولا بمفهوم ، أن ينخرط في صفوفهم المحاربة ، وتهب معهم لحمل السلاح ، طائفة من أتباعهم مستذلة ، كان أولى بها آنذاك أن ترحب بالدعوة الجديـــدة ، وتظاهر رجالها ، عسى أن تتحرر من الاستعباد ..

تلك طائفة نصارى العرب الضاربة بقبائلها على جانبي نهر الفرات ، والمقهورة على الادلاء بالولاء والطاعة لحكم فارس منذ عهد ليس بالقصير ..

* * *

لكأنما آثرت هذه الطائفة المسيحية المؤمنة بالله أن تحارب الله من وراء ألسنة « النار المقدسة » ! التي تتـــأجج في معابد المجوس !..

لكأنما ألفت السيطرة الكسروية المفروضة عليها فاستمرأت مذاق الهوان ؟..

لكأنما خشيت بطش سادتها الأكاسرة ، فانضوت في جيوشهم وقد وقر في روعها أن ملكهم لا يزول !..

أم رأى أشرافها خيرهم في الانضواء !..

أم حمقت فعميت عن النور ؟..

أم جمدت فأبت التغيير ؟..

لكن طائفة أخرى ، في أرض النيل ، من أخوات هذه في العقيدة المسيحية ، هي « قبط مصر » كانت – كما ظهر من سلوكها في موقف مماثل – أنضج منها فكراً ، وأصفى قلباً ، وأنقى سليقة .. أقدر على تبين الحقائق ، واستقراء الأمور من المنظور الى ما وراء المنظور ..

فحين دقت عليهم بابهم دعوة الاسلام بأيدي كتائب الايمان التي جاءهم بها عمرو بن العاص بعد مخرج خالد ابن الوليد الى فارس بنحو عشرة أعوام ، أحسنوا تفهم الدعوة الوافدة ، كما أحسنوا إدراك نية القادمين بها عليهم من قلب الصحراء ، فاستقبلوهما معاً كما يجمل أن يكون استقبال الدعوات والدعاة : هذه بالرفق والسماحة ، وهؤلاء بالمودة والترحاب ..

ولِمَ لا ؟..

فما هذه الدعوة سوى عقيدة سماوية تخرج من نفس النبع الالهي الذي خرج منه دين المسيح ..

ما هي الا السبيل الى السمو بالانسانية ، بتحرير الأنفس من العبودية الا لله ..

ما هي الا شريعة المساواة بين الناس .. كل الناس ..

وها هم دعاتها .. أولئك المندفعون بها عبر الرمل والخضرة

والماء كالاعصار ، يجيئونهم اليوم بالخلاص الذي حلموا بـه كل تلك السنين الطوال ، عهداً وراء عهد ، وجيلاً وراء جيل ..

ها هم أولاء :

على ألسنتهم اسم الله ..

في ايمانهم مشاعل النور ..

في شمائلهم سيوف التحرير ..

أفلا يدعونهم وما جـاءوا له ان لم يكن بوسعهم الانضمام اليهم لتخليص وطنهم من عنف الرومان ؟..

(٥)

٢٠ هـ

أرض مصر ..

حصن بابليون ..

موسم الفيضان ..

عمرو بن العاص ، القائد العربي ، ينطلق بجيشه الصغير من أقصى شرق البلاد المصرية فيفتح « العريش » على الساحل الشمالي، فالفرما ،فبلبيس، حتى يبلغ موضع « منف » العاصمة الفرعونية القديمة ..

على طول الشقة التي قطعها ، لا يلاقي مقاومة ذات بال إلا في القليل ..

ويواصل السير ..

ويتقدم إلى « بابليون » ..

لكنه لا يكاد يفعل ، حتى تسرع حامية الحصن إلى مقابلته بقوة السلاح ..

وعلى مألوف عادة المسلمين ، لا ينشب القائد المسلم القتال ..

إنما يؤثر أن يبين للقوم عسى أن يحقن الدم ..

يبعث إليهم :

« لا تعجلونا ، لنعذر إليكم ، وترون رأيكم » ...

* * *

وأوفد إليه « المقوقس » كبير القبط رجلين من لدنه ، ليعرفا رأيه ..

قال لهما عمرو :

« أنتما راهبا هذه البلدة ، فاسمعا » ...

وحدثهما عن الرسالة :

« إن الله بعث محمداً بالحق وأمره به ، فأمرنا به محمد .. ثم مضى إلى ربه وقد قضى الذي عليه ،وتركنا على الواضحة »..

ودعاهما وقومهما إلى الإسلام :

« .. وأمرنا بالإعذار إلى الناس، ونحن ندعوكم إلى الإسلام، فإن أجبتم فمثلنا ، وإن لم فالجزية » ..

ثم أبلغهما ما أوصي به الرسول :

« .. وأوصانا بكم ، قال : ستفتحون مصر .. فإذا فتحتموها فأحسنوا إلى أهلها ، فإن لهم ذمة ورحماً .. »

وتفكر الرجلان ..

وقال أحدهما ، معلقاً على الوصية :

« قرابة بعيدة ، لا يصل مثلها إلا الأنبياء » ..

وعقب الآخر ، مشيراً إلى نسب « هاجر » :

« كانت من أهل منف ، والملك فيهم ، فأديل عليهم ، واغتربوا .. فلذلك صارت الى ابراهيم » ..

وسألهما عمرو ، وقد فرغ من بيانه :

« فما تقولان » ؟..

قالا يرجئانه :

« أمنّا حتى نرجع إليك » ..

فابتسم :

« مثلي لا يُخدع » !..

لكنه أردف :

« بل أؤجلكما ثلاثاً لتنظرا ، وتناظرا قومكما ، وإلا ناجزناكم » !..

« زدنا » ..

فزادهم :

« ويوماً آخر » ..

* * *

واختلف من بالحصن ..

كأني بالقبط ، أبناء الشعب ، آثروا الجنوح إلى السـلم ، فقال منهم فريق :

« ما تريدون إلى قوم فـلوا كسرى وقيصر ، وغلبوهم على بلادهم !.. »

وأفصحت طائفة :

« صالحوا القوم ، لا تعرضوا لهم » ..

وكأني بالروم ، أصحاب الحكم ، وحماة الحصن ، قـد أبوا الرأي ..

وما عليهم لو أبوا ودونهم رده يحميهم من الغزاة هو ميـاه الفيضان التي غمرت الأرض ، وملأت الخندق ، وجعلت محـالاً من المحال أن يستطيع العدو الهجوم قبل عدة أشهر ، يمد خلالها هرقل قوة الدفاع في بابليون بما ييسر لها النصر ؟..

وأصروا على المقاومة ..

ثم راحوا يناوشون ..

* * *

غير أن المقوقس رأى أن يعاود مفاوضته المسلمين عسى أن يجد لديهم منفذاً لنجاة الشعب المصري من ويل الحرب ، وإن كرهت الروم ، وجند الروم !..

وفيم ترقبه لذلك النصر الذي تحلم به الحامية حين يأتيها المدد

من هرقل ، وقد مضى شهر ولا مدد ، ولا ذكر لمـــدد ولو على جناح شائعة مختلقة لا على جناح نبأ يقين !..

وفيم رضوخه لمشيئة فئة باغية ، استذلت أمته ، وسامتها الخسف والعذاب والنكال العصور الطوال ! .

إن يكن باسم الامبراطور يحكم ، فلمصر وحدها ينبغي أن يعمل .. ولشعبها وحده يجب أن ينتصف ..

وقد حان الآن وقت الانتصاف ..

* * *

هو لم ينس ، ولا نسي القبط ، فظائـــع أباطرة الروم ، وولاتهم ، التي ارتكبوها بأرض النيل، وسجلها التاريخ أسفاراً حمراء بدماء الشهداء !..

فكم سفكوا من دم !..
كم أحرقوا من أحياء !..
كم ألقوا من أناس بين أنياب الوحوش ..
كم صلبوا ، ومزقوا من أجساد ..

في كتابه « تاريخ الاقباط » ينقل لنا « زكى شنوده » بعض صور من ألوان هذا النكال ..

يذكر من فظائع الامبراطور كاراكلا ضد المصريين :

« .. أنه أقام احتفالاً خارج الاسكندرية، فلما خرج أهالي المدينة لمشاهدته ، أشـــار إلى جنوده ، فجردوا أسحلتهم ،

وقضوا على جميع الحاضرين في وحشية لا مثيل لهـــا ، فلم ينج منهم إلا القليل .. »

ويذكر من فظائع « تراجان » :

كان يلقي بالمسيحيين إلى الوحوش ..

« وكان يتلهى بمنظرهم وهم يتحولون بين الأنيـاب المفترسة الى أشلاء .. وممن ذهبوا ضحية هذه الوحشية البشعة البـــابا كرذونوس البطريرك القبطي الرابع .. .. »

ويتحدث عن « دقلديانوس » فيقول :

« وصمم هذا الامبراطور على ألا يكف عن قتل المسيحيين حتى تصل دماؤهم الى ركبة فرسه . وفعلاً نفذ عزمـــه وراح يطوف بفرسه في بحر من دماء الشهداء .. .. »

ويروى عن شاهد عيان ، في تلك الأيام :

« .. .. شاهدت بعيني .. جمعاً غفيراً من المسيحيين .. كان بعضهم يحرقون في أتون النار .. وبعضهم تجز رؤوسهم بالسيوف . وكانوا من الكثرة بحيث أن السيف ثلم حده من كثرة ما قطع من الرقاب . وكذلك السيافون تعبوا وخارت قواهم من ذبـــح الآدميين .. . »

ثم يعقب :

« وقد قيل إن الذين استشهدوا فى هذا الاضطهـــاد الذي استمر عشرين عاماً يبلغ عددهم المليون مما دفع الاقباط أمـــام

هذا الهول الأكبر لأن يخلدوا تاريخ من ذهبوا ضحيته من شهدائهم فبدأوا تقويمهم بسنة ٢٨٤ للميلاد ، وهي السنة التي ارتقى دقلديانوس فيها عرش المملكة ، واعتبروها السنة الأولى في تاريخهم الذي أصبح يدعى تاريخ الشهداء .. .. »

* * *

لكن هذه الفظائع البربرية لم تنته باعتناق القيصر قسطنطين للمسيحية ، وإعلانها ديناً رسمياً للدولة ..

فما لبث أباطرة الروم أن تذرعوا ، في تنكيلهم بالمصريين ، بذريعة اختلاف المذهب بعد ذريعة اختلاف الدين .. ..

ويجمل لنا الدكتور حسن ابراهيم حسن ، في كتابه : «تاريخ عمرو بن العاص » حال المصريين الدينية في القرن السابق لظهور الإسلام وهجرة رسوله من مكة الى المدينة ، فيقول :

« .. .. كان من أشد القرون على المسيحيين من أهل مصر هولاً .. أصابهم فيه من القياصرة المسيحيين ما لم يصبهم من القياصرة الوثنيين.. وكانت هذه الرزايا سبباً لكراهية المصريين حكم الروم عليهم ، وتشوقهم الى الخلاص من هذه النكبات.... »

ويورد لنا ، من حوادث الحقبة ، قصة عجيبة ، إن تكن ترسم حقد التعصب ، فهي أيضاً تكشف كيف كان القياصرة وأعوانهم من رجال الكهنوت لا يتعففون عن أية وسيلة تحقق لهم إيذاء المصريين وإن كانت الوسيلة التي تحط من جلالة الملك ووقار الدين ..

في ذلك الحادث ، كان أسلوبهم « لا ينـافي فحسب جوهر المسيحية إذا هو قيس بما رمى اليه من أهداف، بل كان أيضاً، بشكله ومظهره ، ينافي قواعد التقاليد والأعراف ..

كان أدنى الى حيلة مسرحية !..

(٦)

٥٥١ م

الاسكندرية ..

قبل نحو قرن من بزوغ الإسلام ..

المدينة الراقدة على صدر بحر الروم ، تبدو هادئة ،

نفوس أهلها كجمرة هاجعة تنتظر من ينفض عنها الرماد..

« أبوليناريس » وافـد الامبراطور « يوستنيانوس » يدخل المدينة في بزة عسكرية فاخرة ، ومن حوله جند كثيف ..

الناس يتابعون ، بعيونهم وخطـــاهم ، الموكب « الحربي » الرهيب ، في عجب وسكون ..

فما يدركون فيم أقبل وافد الامبراطور ..

لا تمرد ولا فتنة ..

لا رائحة لحرب ..

ما من شبح لمغير ..

لكنهم ، في سكون فضوليّ ، يتابعون ..

* * *

ثم يبلغ الموكب العسكري الكنيسة ..

فما يكاد يصل ، حتى تلتف بها شرذمة من الجند ، تحيط بالأسوار ..

وتنتشر منهم طائفة بالساحة ..

وترابط فرقة أيضاً عند المداخل ..

وتقف مجموعة أخرى الى جانبي الهيكل ..

أما « أبوليناريس » وافد الامبراطور ، فينطلق بكل زهوه الى المنبر ، ويرتقي فيه ..

وبحركة « مسرحية » ! ينضو عن جسده بزته العسكرية ، وهو يرمي الجموع بنظرة استهانة ، فإذا هو في لباس الكهنوت !..

ويذهل الجمهور ..

وتتهامس الشفاه ..

ثم يرتفع الهمس لغطاً يزحم المكان ..

إذن فهذا بطريرك الاسكندرية الجديد ، الذي نصبه لها الامبراطور ، على خلاف مذهبها الديني ، وعلى غير ما يرتضي أبناء كنيستها المصريون !..

إذن فهذا تحد مفضوح !..

ويتخذ ابو ليناريس سمت الوقار ، ويهم أن يبدأ القداس .

لكن الناس يضجون ..

وبإشارة من أصبع هذا الأب « المقدس » ! الذي نصّبه

قيصر ، يداهم الجنود شعب الاسكندرية بالذبح والفتك ، في الحرم الكنسي ، وبكل بقعة من المدينة الكبيرة ، حتى يملأها الموت ، وتسيل فيها الدماء كالأنهار ..

يحدثنا « جبون » عن هذه المجزرة البشعة ، فيقول :

« .. .. ولقد قيل إنه قُتل بالسيف ، في هذا اليوم ، مائتا ألف من السكان .. .. »

* * *

أحداث كوارث ، ووقائع فظائع ، كان « يتسلى » بها الغرب ، وما كانت لتغيب هنا من ذاكرة إنسان ..

فقد عاشت « ماضياً » في صحف التاريخ ..

وعاشت « حاضراً » في محن الأبناء منحدرة من محن الآباء والأجداد ..

وعندما اعتزم المقوقس مفاوضة عمرو ، إنما كان يعمل لكيلا تعيش « غداً » في محن الأحفاد !..

فلئن انطوى عنه بعضها في ظل الغابر ، فمحنة القبط ، على يد القيصر هرقل ، من بضع سنين ، هي الآن أدنى إلى مرآة الأذهان منها الى ظلال النسيان ..

ولئن بهتت مشاهد الكثير من الفواجع وراء ضباب الأحقاب ، فصرخة « الأب بنيامين » المصري كانت لا تزال تندفع الى اليوم من جوف الصحراء ، لتقرع طبول الآذان !..

فقبل نحو عشرة أعوام ، جاء الطاغية هرقل الى مصر ، ليجدد فيها ، وفي أهلها ، فظائع أسلافه قياصرة الروم :

شنق وأحرق ..

ذبح وقتل ..

عذب ونكل ..

وهمت يده أن تمتد لتفتك ببطريرك كنيسة الاسكندرية الأب بنيامين، فأضلها الله عنه، وفر الكاهن بحياته الى الصحراء..

حينذاك رأى الأمبراطور أن يقتص من الهارب في شخص أخيه « مسينا » فاقتنصه، وشواه حياً في النار ..

وعلى الأثر اشتعلت الصدور في مصر بالغضب ، ونزعت النفوس للثأر ، وهفت الأرواح للخلاص ..

ويومئذ سمع الهارب في جوف الصحراء هاتفاً يناديه :

« صبرا يا بنيامين !.. صبراً الى عشر سنين .. »

وعندما جاء العرب ، بعد هذه العشر.. راح صوت بنيامين يمشي مجلجلاً في أرض مصر ، على الرمل والخضرة والماء :

« أيها القبط !.. أفسحوا الطريق للقادمين » !..

ولمعت في الأفق خيوط فجر جديد ..

* * *

في حماية الحصن المنيع ، كان المقوقس ما يزال ، بعين ذاكرته ، يرى الكوارث ، وبأذن خياله يسمع الأنين ..

كان يعيش الهم كله ، والألم كله ، بمشاعر مواطنيه ..

لكنه كان أيضاً يعيش الرجاء ..

يحس حنوه ، ويشتم عبيره ، ويسمع هتافه وهو يناديه من وراء أسوار بابليون ..

ولبى النداء ، بغير إبطاء ..

أسرع فبعث رسلاً الى أمير الجيش العربي ، الرابض خلف الأسوار يعرض الصلح ، ويطلب وفـداً يفاوضونه في نصوص عهد الأمان ..

ومكث رسله في مهمتهم مع المسلمين يومين، ثم عادوا اليه .

وسألهم :

« كيف رأيتم القوم » ؟..

« رأينا قوما الموت أحب اليهم من الحيـاة .. ليس لهم في الدنيا رغبة .. ما يعرف رفيعهم من وضيعهم ، ولا السيد من العبد .. جلوسهم على التراب .. وأميرهم كواحد منهم .. .. »

فلعله أنكر ما سمع ، أو لعله عجب ..

لكن إنكاره وعجبه تبددا عنه بعد قليل ، حين دخـل عليه أصحاب عمرو الذين اقبلوا تلبية لدعوته .. لقـد صدق العيان الخبر ، وقطع اليقين الشك ، وهو يرى هذا الوفد يقدم عليه ، وفي مكان الصدارة من رجاله امرؤ له هيئـة العبيد ، شامخ الطول كعملاق مارد ، أسود البشرة كليل بلا نجوم !..

وكأنما يرى وفد عمرو في وجه الحاكم ما يكاد يشي برغبة مكبوته.. فودّ – أنفة وكبراً – أن يكون غير هذا «العبد» من بين القوم، نده في الحديث، فيجيبونه قائلين:

«بل هذا الأسود!..فهو أفضلنا وخيرنا والمقدم علينا»..

ويدرك المقوقس عندئذ أن أقدار الناس، في حكم الاسلام، لا تقررها الأنساب، ولا الأحساب، ولا ألوان الأبشار..

ويدور الحوار..

* * *

ان يكن الحديث، ذلك اليوم، قد طال بين المقوقس، زعيم القبط، وبين عبادة بن الصامت، كبير وفد عمرو ابن العاص، فانه الى حيث بدأ قد عاد..

فقد حاول المقوقس وحاول، فلم يغنه كل ما بذل من محاولات لتغيير المبدأ الذي وضعه المسلمون للسلام..

وتحدث عبادة وتحدث، فما زاد شيئاً على هذا المبدأ، ولا نقص منه، وان تغيرت ألوان العبارات، وتعددت صور الكلام..

يقول عبادة ويكرر:

«الإسلام.. أو الجزية.. أو الجهاد»..

ويراجعه المقوقس:

«أيها الرجل!.. لقد توجه الينا لقتالكم من جمع الروم

ما لا يحصى عدده : قوم معروفون بالنجدة والشدة ، ما يبالي أحدهم من لقي ولا من قاتل » .. ..

فيرد عبادة :

« أتخوفنا يا هذا بجموع الروم !..ما هذا بالذي يكسرنا عما نحن فيـــه .. ولئن قتلنا عن آخرنا لكان أمكن لنا في رضوان الله وجنته ..فما منا رجل الا يدعو ربه صباحاً ومساءً أن يرزقه الشهادة..وأن لا يرده الى ارضه وبلده، ولا الى اهله وولده.... »

ويعود المقوقس فيقول :

« .. .. إنا لنعلم أنكم لن تقـدروا عليهم ، ولن تطيقوهم لضعفكم وقلتكم .. .. »

فيتلو عبادة :

« كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله ، والله مـــع الصابرين .. »

« .. نحن نرق عليكم .. وتطيب نفوسنا أن نصالحكم على أن نفرض لكل رجل منكم دينارين ، ولأميركم مائة دينـــار ، ولخليفتكم ألفاً ،تقبضونها وتنصرفون إلى بلادكم ،قبل أن يغشاكم ما لا قبل لكم به .. .. »

فيبتسم عبادة ..

أفيظن الحاكم الامبراطوري أنهم يبيعونه دينهم بدنياه !..

ويقول :

إنما رغبتنا الجهاد في الله .. .. »

ثم يقطع بالرأى الحاسم ، عائداً الى بدء الحوار :

« .. .. وليس بيننا وبينكم إلا خصلة من ثلاث .. »

هنا يحاول المقوقس محاولته الأخيرة :

« أما غيرها رابعة » ؟..

« لا ورب هذه السماء ، ورب هـــذه الأرض ، ورب كل شيء ، ما لكم عندنا غيرها ، فاختاروا لأنفسكم .. »

وعندئذ يختلي الحاكم بالروم :

« أطيعوني وأجيبوا القوم .. .. فوالله ما لكم بهم طاقة . ولئن لم تجيبوا إليهم طائعين ، لتجيبنهم إلى ما هو أعظم منها كارهين !.. »

* * *

مرة أخرى أبى الروم أن يوافقوه ..

في صدره كان يكتم الرغبة في مصالحة العرب ، ولكنه بلسانه كان يظهر حرصه على « حق ! » الروم في البقاء بأرض النيل ..

كان ، فيما بدا ، يناور ويداور أمام رجال الحامية الروسية إبان مفاوضته العرب ، لكيلا يتهم في ولائه للامبراطور ..

فأما وقد خالفته هذه الحامية الحمقاء ، فصالح شعبه إذن فوق صالح الدولة الغاصبة ، ومصر أولى بولائه ..

وكتب صحيفة الصلح مع عمرو ..

باسم مصر ..

باسم شعبها كله ..

وليكن ما يكون !..

* * *

وضماناً لشرعية المعاهدة ، رأى المقوقس إرجاء تنفيذ ما بها حتى يقرها هرقل ، الحاكم الرسمي للدولة ، الذي له وحده إبرام الأمور ..

وكتب إليه بالقسطنطينية ..

وانتظر ..

لكن العاهل المتغطرس أبى إقرار الصلح ، وأرسل إلى عامله يلومه ، والى قواده الروم يأمرهم بمتابعة القتال ..

وفي الحال بعث المقوقس الى ابن العاص أنه وشعب مصر على العهد الذي أبرماه ..

وهب والقبط لمعاونة المسلمين ..

لبوا نداء « بنيامين » !..

وعندما اقتحم العرب حصن بابليون ، وفر الروم الى الاسكندرية ، العاصمة الثانية للامبراطورية ، يعتصمون بها ، ويلتحقون بجيش القائد الرومي « تيودور » .. راحت القوات العربية تتعقبهم ، وفي طليعتها رؤساء القبط يصلحون لها الطرق ، ويجمعون المؤونة والزاد ، ويجندون لمعونتها السكان ..

يقول جبون :

« .. .. وكانت نفوس الأهلين تتوق لهلاك هؤلاء (الروم) الظالمين ، وطردهم من البلاد . فلم يدخروا وسعاً في مد يد المعونة : مادية وعسكرية ، الى عمرو .. .. »

ويقول اميل لودويج في كتابه النيل :

« وقد استقبل أقباط مصر جيوش العرب والمسلمين استقبال المنقذين لا استقبال الغزاة الفاتحين .. ومضى عمرو في زحفه مؤيداً بالشعب القبطي الذي أرهقه حكم البيزنطيين وسلطة الكنيسة التي مكنت للاشراف في ركوبه بالاضطهاد .. »

ويردف :

« .. .. وفيما عدا الجزية ، فإن عمرو بن العاص لم يفرق في المعاملة بين الفريقين في الحقوق والواجبات ، بما في ذلك وظائف الدولة ، وأعلن حمايته لحرية كل الأديان .. »

* * *

وانقشع الظلم والظلام عن أرض النيل بعد أن أطبقا عليها نحو ألف ومائتي عام ..

أخيراً أمنت الأنفس ..

تحررت العقائد ..

خلصت الأرض لأبنائها المصريين ..

تقول وثيقة الصلح :

« لأهل مصر الأمان على أنفسهم وملتهم وأموالهم وكنائسهم وصلبهم وبرهم وبحرهم .. وأن لا يُغزوا ، ولا يُمنعوا من تجارة صادرة ولا واردة .. .. »

وتقول :

« وعلى أهل مصر أن يعطوا الجزية .. .. »

ويحدثنا « المقريزي » عن هذه الجزية :

« اصطلح عمرو والمقوقس على أن يفرض للمسلمين على جميع من بمصر ، أعلاها وأسفلها ، من القبط : دينارين دينارين على كل نفس ، شريفهم ووضيعهم ممن بلغ منهم الحلم . ليس على الشيخ الفاني ، ولا على الصغير ، ولا على النساء شيء .. .. »

ومع هذا فلم يكن حد الجزية ثابتاً لا يتغير . ولا كان أداؤها دفعة واحدة في العام . بل قضى عدل الاسلام، وإنسانية أهله أن تساير قيمتها تغير الظروف الاقتصادية في البلاد فتنخفض عند العسر ثم لا تزيد عند الرخاء .. وأن تؤدى على أقساط حتى لا تشق على الناس ..

يذكر « الطبري » في كتابه تاريخ الأمم والملوك :

« .. .. فإن نقص نهرهم عن غايته .. رفع عنهم بقدر ذلك .. .. »

ويضيف :

« وعليهم ما عليهم أثلاثاً : في كل ثلث جباية ثلث ما عليهم .. »

ويروي لنا المؤرخ الانجليزي « سير وليم موير » في كتابه : «الخلافة، قيامها وتدهورها وسقوطها » قصة الأرض في مصر كيف أقر الاسلام ملكيتها لمن عليها ..

تقول القصة :

.. .. ويحث الزبير بن العوام عمرو بن العاص على تقسيم أرض مصر بين أتباعه ، فيأبى رأيه ، ويرفع الأمر إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، فيجيئه رده :

« دعها لأهلها .. »

ويزيد أمير المؤمنين على ذلك :

« .. .. وقد علمت أنك اقتطعت أرضاً لنفسك ، لتبني عليها داراً . ألا فردّها !.. أما يكفيك أن لك داراً هنا في المدينة !.. .. »

عدالة دونها كل عدالة ..

* * *

غير أن قبائل العرب المسيحية،الضاربة على جانبي الفرات، لم تحسن النظر إحسان إخوتها : قبط مصر على ضفاف النيل ، فهبت – عنتا وجهالة – تناوىء الاسلام ..

بكر بن وائل وعجل وتيم اللات وضبيعة وعرب الضاحية من نصارى هذه المنطقة آثروا مظاهرة الفرس الغاصبين ، وبادروا الى مقاومة العرب المسلمين ، الزاحفين لتخليصهم من الاستعباد ..

قالوا لكسرى :

« هم قومنا ، ونحن أعرف بقتالهم » ..

وبادروا من فورهم يقاتلون خالد بن الوليد .

في « الولجة » وفي « أليس » وفي حيثما شاءوا ودعاهم الفرس الى قتاله قاتلوه ..

حالفوا « النار » !..

لكنهم اكتووا باللهيب !..

(٧)

٦٣٣ م

المدينة : الحيرة ..

الشهر : مايو ..

الفصل : بقية الربيع ..

العام : نفس العام الذي وطىء فيه خالد دلتا الفرات ..

الحرب تسرح على مواقع الفرس كما تسرح النار في الهشيم ..

قواتهم المدافعة تنهار أمام شدة الهجوم ..

« جند الله » يقصفونها فرقة وراء فرقة ، وجيشاً وراء جيش كأنها أعواد حطب جاف تتحطم تحت الأقدام ..

ومن « أمغيشيا » ينطلقون مع النصر ، فوق الماء ، الى الحيرة ، قصبة القبائل العربية النصرانية الموالية لفارس ، ومستقر عرش « المناذرة » الذي باد ..

وتتبدى البلدة لهم من بعيد كمقبرة مهجورة ..

فقد فر الجيش الفارسي منها دون قتال ..

واستحكم أهلها العرب وراء الأسوار ..

وعلى الفور أمر خالد جنوده فضربوا حولها الحصار ..

وتقدم من « الخورنق » الذي شهد نهاية « سنمار » الى مقربة من « القصر الأبيض » فنصب فسطاطه هنـاك ، وراح يلقي بعينه الى معاقل أشرافها وقادتها التي بدت موصدة المنافذ مغلقة الأبواب ، كأفواه خرست عن الكلام !..

ثم بعث الى أولئك القوم الذين أجنتهم الجدران يخيرهم بين واحدة من ثلاث :

« الإسلام .. أو الجزية .. أو القتال .. »

وأمهلهم يوماً يتدبرون ..

* * *

وكان نهار ..

من ذرا القصور والمعاقل الخرساء ، حناجر تهتف وتصيح ، وأذرع تلوح وتشير ..

الهاتفون كالأشباح ، بعد المسافـة شوش ملامحهم أن تنجلي للعيون ..

والأصوات ضوضاء تغرق فيها مقاطع الكلمات ..

طائفة من جنود المسلمين تتقدم الى الأمام خطوات عسى أن تتبين دلالة الإشارات ، وفحوى النداء ..

لكن أحد قادتهم : ضرار بن الأزور ، يسارع اليهم يحذرهم الاقتراب من أصحاب الأصوات :

« تنحوا .. لا يصيبكم الرمي !.. »

وكان صادق الحدس والفراسة ..

فان هي إلا هنيهات حتى انهالت على أولئك الجنود قذائف القوم سيولاً ، تنصبّ من فوق القصور والدور وأعـالي القلاع والحصون ، ومن بين الكوى والفتحات التي تتخلل الجدران ..

إذن قد انكشف المستور !..

إذن آثروا القتال ، يبدأونه بغتة وغدراً ، وقـد أبوا ان يركنوا للسلام ، مرتضين نبـذ ما أراده لهم دعاة الإيمـان من هداية ونور ، ومن سلامة وحياة !..

* * *

والتقط خالد القفاز ..

قبل التحدي ..

وبادر على الفور الى رماته ، يأمرهم أن يرشقوا هؤلاء الغدرة بالسهام ..

ثم دفع خيله الى اقتحام المدينة ..

ثم سير في أثرهم رجله يعصفون بالقصور المحصنة المنيعـة التي

التي اتخذها رؤوس الحيرة وأشرافها سجناً لهم ، وقد حسبوها ما نعتهم من أمر الله !..

واشتعل القتال ..

حتى إذا كثر القتلى في الناس ..

واشتد الهول ..

واستيقن أهل البلدة ألا عاصم اليوم ..

حينذاك استغاث السكان ، وثار على رأسهم الرهبان والقسيسون يتصايحون بالأمراء :

« يا أهل القصور !.. ما يقتلنا ، والله ، غيركم !.. »

وأكرهوهم على الكف عن حرب خاسرة ، ليس لهم فيها غناء..

هنا نادى السادة ، من الأعالي والشرفات :

يا معشر المسلمين !.. قد قبلنا واحدة من ثلاث .. »

* * *

وخرج زعماء الحيرة يومئذ الى خالد بن الوليد ، وفيهم عمرو ابن عبد المسيح ، شيخ معمر من صفوة الأشراف ، علت بـه السن حتى لاح لمن يراه كأنه صحب الدهر !..

قبل هذا بقليل التقوا بأمراء أجناد الجيش الإسلامي ، في حوار حاولوا من خلاله أن يتعرفوا شروط التسليم ..

قبله أيضاً قابلهم خالد فرادى ، يبين لهم ، ليستكنه رأي هذا ، واتجاه ذاك .

وها هم أولاء الآن يلقونه مجتمعين ..

الهيبة تملكهم ،وتضرب حولهم نطاقاً من الصمت والتوجس..

أبصارهم تتسلل خفية الى ملامحه ، كأنما تتحسسها ، عسى أن تدرك ما وراء هذا الهدوء الصارم الذي يقنع محياه ..

أسماعهم مشدودة الى فمه المزموم ، لعلها أن تلقط منه همسة شاردة ، تشي بما قد يكنه القدر المقدور ..

وعندما تحركت شفتاه ، كانت جوارحهم كلها آذاناً تصغي الى ما يقول ..

وبصوت خفيض ، في نبراته نعومة ، وفي كلماته صرامة ، قال لهم وعينه ترمقهم بنظرة حادة كأنها ذؤابة سيف مسنون:

« ويحكم !..ما أنتم ؟.. أعرب ؟ ،فما تنقمون من العرب؟.. أو عجم ، فما تنقمون من العدل والإنصاف ؟.. »

فلعلهم قد عانوا من الحسر لحظات ، إذ بغتهم بهذا الحديث الذي يحمل من التعنيف والاستنكار أكثر مما يحمل من التساؤل والاستفسار ..

وبماذا يجيبون ؟..

واهتز ردهم على بعض الشفاه :

« عرب » ..

فيما نخال قد أحسوا أنه ضمَّن عبارته هذه بشطريها إلماحيتين ذكيتين لا تخفيان على فطنة أويب ..

إلماحة تشير الى ما حدث من نحو عشرين عاماً ، في مستهل بعثة الرسول ، حين عدت فارس على الحيرة ، وقتلت صاحبها « النعمان » ، فهب العرب يساندون البلدة الموتورة ، ويحاربون في صفوفها جيش كسرى ، حتى نالت ثأرها ، واستردت كرامتها ، وأوقعت هزيمة مرة بالفرس المعتدين في موقعة « ذي قار » ..

إلماحة ثانية توشك أن تترجم عبارة القائد الى الفـاظ غير الألفاظ ، كأنما أراد أن يقول :

« .. فكيف إذن ، يا قوم ، اختـرتم اليـوم أن تنصروا عسف فارس ، وتحاربوا عدل الإسلام !.. »

* * *

أحست الجماعة هذه الإلماحة أو تلك ، أو غفلت عنهـا ، فانها لم تعقب بعذر ولا تبرير ، بل راحت تنصت ، في سكون الى تتمة الحديث ..

والتفت خالد الى ابن عبد المسيح ، وقد بدا كجمجمة فوق هيكل من عظام ، يتأمله ملياً ، كمن يحاول أن يقرأ من صفحة وجهه الذابل حديث السنـين الذي سطره عليها عمره الطويـل بلغة الغضون !..

يسأله عن سنه :

« كم أنت عليك ؟.. »

« منذ سنين .. »

ويسأله عن أصله :

« من أين أثرك ؟.. »

فلا يصارح ، بل يوري ويقول :

« من ظهر أبي !.. »

فيكرر خالد عليه :

« من أين خرجت ؟.. »

« من بطن أمي !.. »

ويطول الحوار على هذا المنوال العجيب ..

خالد يسأل ..

والرجل يجيب ..

ولكنه الجواب لا يحدد ولا يقطع .. وإنما يدور في فراغ تنشره بضعة ألفاظ لا تشفي فضول السائل ، كما لا تفصح عن خبء المسؤول !..

* * *

ويبدو أن حديث الشيخ قد أثار في نفس خالد من الاهتمام ما دعاه الى مواصلة سؤاله عسى أن يستكنه ما وراء جنوحه الى هذا الأسلوب ..أهو حماقة جبل عليها أم محاولة للتمويه؟..

يسأله عن دينه :

« على أي شيء أنت ؟.. »

فيلغز مرة أخرى :

« على الأرض !.. »

فينهره :

« ويحك !.. إني أسألك .. »

« وأنا أجيبك !.. »

« ألا تعقل ؟.. »

« نعم ، وأقيّد !.. »

هكذا كانت ردود ابن عبد المسيح خرساء ، وإن تردد لها في الأسماع جرس ورنين !.. كانت أدنى إلى أسلوب قدامى كهان العرب الذين كانوا يلجأون عادة الى طلسمة أحاديثهم ، فيصوغونها في عبارات ظاهر معناها قريب ، وجوهر مرماها بعيد ، فإذا هي تحتمل مختلف وجوه التأويل ، وتخفي مقاصدها إلا عن الذين راضوا عقولهم على قراءة ما بين السطور من أسرار .

فهل شاء الشيخ ، بأسلوبه هذا في الخطاب ، أن يلمح إلى القائد بأرومته العربية ، ويؤكد صدق عروبته ، وعمق ولائه لعنصره ، من خلال ظهوره أمامه بهيئة متمرس بلغة الأجداد ، لا يعصى عليه من أساليبها أشق أسلوب ؟..

أم قد شاء أن يتغابى ، وينأى عن الردود المستقيمة خشية أن يستدرجه خالد الى جواب يؤخذ عليه ، فآثر أن يتحصن بالتغابي نجاة من الوقوع في المحذور ؟..

* * *

لكن خالداً ، وقد فرغ صبره من هذه المناورات ، يزهد في الشيخ ، ويستدير عنه يوجه الى رفاقه الحديث .. فلعله حينئذ ارتاب في عقل صاحبهم ، وشك - تبعاً لريبته - في حكمتهم هم الذين سودوه ..

يقول ساخراً :

« ألم يبلغني أنكم خبثة خدعة مكرة؟.. فما بالكم تتناولون حوائجكم برجل خرف لا يدري من أين جاء » !..

عند هذا يرى ابن عبد المسيح حقاً عليه أن يدفع مظنة الحمق عن نفسه ، وفطنة الغفلة عن قومه ، فيبادر على الأثر يقول بهدوء :

« أيها الأمير !.. النملة أعرف بما في بيتها من الجمل بما في بيت النملة » !..

فيبتسم خالد :

« صدقت . القوم أعلم بما فيهم » ..

ويستطرد العجوز :

« وإني - وحقك - لأعرف من أين جئت » ..

فتتسع الابتسامة على وجه القائد ..

ويسأله :

« فأين تريد » ؟..

« أمامي » !..

فيستفسره :

« وما هو » ؟..

« الآخرة » ..

ويتمهل خالد برهة كأنما يتأمل حكمة هذا الرد ، وعينه عندئذ تمشي على وجوه الأشراف الماثلين حياله ، ثم يردها ثانية الى كبيرهم ، ليفاجئه بقوله :

« أسلم أنت أم حرب » ؟..

« سلم » ..

« فما هذه الحصون التي أرى » ؟..

ويشير بأصبع الى المعاقل التي انهالت القذائف منها سيولاً على المسلمين ..

ويجيبه الشيخ بثبات :

« بنيناها للسفيه نحبسه فيها ، حتى يجيء الحليم فينهاه »!..

* * *

ثم يبلغ الحديث مقطعه ..

في رصانة وجد ، يخاطب خالد جماعة الأشراف :

« إني أدعوكم الى الله . والى عبادته . والى الإسلام .. فإن قبلتم ، فلكم ما لنا ، وعليكم ما علينا ، إن نهضتم وهاجرتم ، أو أقمتم في دياركم » .. ..

وينتظر لحظات ..

لا جواب !..

« فان أبيتم ، فالجزية » .. .. ..

« فان أبيتم فالمناجزة !.. وقد جئناكم بقوم يحبون الموت كما تحبون أنتم شرب الخمر » !..

هنا يهبون قائلين :

« لا حاجة لنا في حربك .. الجزية » ..

لا جواب ..

وعندما يتهيأون للخروج بعد أن أبرموا الاتفـــاق ، يلمح خالد كيساً يعلقه ابن عبد المسيح ،فيمد يده فيه لتخرج بمسحوق أبيض ينثر منه على راحة كفه ، وهو يسأل العجوز :

« ما هذا يا عمرو » ؟..

« سمّ» !..

« سمّ» ؟..

« وأمانة الله ، سم ساعة » ..

« ولم تحتقب السم » ؟..

فيتفكر الرجل هنيهة، وذهنه يرتد به الى الساعات القلائل التي قضاها في حوار مع خالد وأمراء الأجنـــاد ، ثم يجيب والطمأنينة تشيع في محياه :

« خشيت أن تكون على غير ما رأيت ، فيكون الموت أحب إلي من مكروه أدخله على قومي » ..

القسم التاسع :

(١)

١٢٤٩ م

شهر يونيو

اليوم الخامس ..

نفس اليوم من نفس الشهر الذي قامت بالهجوم فيه على مصر، بعد ذلك بأكثر من سبعمائة عام، عميلة الغرب : اسرائيل ..

ولنفس الغرض المتجدد على الزمن سبقت قوات الصليبية قوات صهيون ..

فحين وضع « القديس ! » « لويس »، ومعه جيوش فرنسا وأوروبا التي تحمل شعار الصليب، أول قدم على الساحل المصري قرب دمياط، في ذلك النهار البعيد، إنما كان يبغي – بضرب مصر – هدم وحدة العرب والمسلمين، تماماً كما تحاول الدولة اللقيطة الآن ..

الملك الصليبي الفرنسي أدرك آنذاك، عن دراسة وإمعان فكر، أن القضاء على الاسلام رهن بالقضاء على تماسك العرب..

وأن تفتيت تماسك الأمة العربية رهن بتحطيم قوة مصر ..

وأن مفاتيح بيت المقدس - هدف الصليبيـات المزعوم ، ومدخلها الحقيقي الى الاستيلاء على الشرق الاسلامي - ليست في فلسطين بل في القاهرة ..

ومن هنا فانه ظل يحشد لحملته هذه عامين كاملين . يجيش الجيوش ، ويجمع العتاد ، ويوفر المؤن ، متخذاً من جزيرة قبرص مستودعاً للسلاح والذخيرة ، وميداناً لتدريب جنده على فنون القتال ، ومنطلقاً للانقضاض ، من البحر ، على أرض النيـل ..

يقول ابن واصل ، المؤرخ العربي :

« ... وكان - لويس - من أعظم ملوك الفرنجة وأشدهم بأساً .. فحدثته نفسه أن يستعيد بيت المقدس .. وعـلم أن ذلك لا يتم له إلا بملك الديار المصرية .. »

* * *

وترسو سفن الغزاة ..

ويتقدم الملك وجنوده ، الصباح التالي ، الى دمياط ..

بغير عناء يبلغونها ..

وبلا قتال ذي بال يضعون عليها أيديهم بعد ساعات !..

في نفس المساء !..

قائد جيش الدفاع : الأمير « فخر الدين » ، بدا كأنما شاء أن يخلي بينها وبين أعدائها ، فانفتح أمامهم إليها الطريق ..

فهل عن عجز ؟..
أم عن خيانة ؟..
لأمر ما آثر الرجل الانسحاب ..

لعله خشي لقاءهم عند الساحـل ولهم أسطول ضخم يؤمن نزولهم الى البر ، ويرعى تحركهم ، ويرد عنهم غائـلة هجومه المضاد لو أنه بادر الى هجوم مضاد ..

لعله رأى أن الموقع الذي كانت قواته تشغله إزاءهم لا يغني عنها ولا عنه ..

لعله عرف لهم تفوقاً في العدة والعدد يجدر به معـه إرجاء لحظة الالتحام ..

لعله رمى الى استدراجهم لداخل البلاد ليوقع بهم في مصيدة لا يستطيعون منها الافلات ..

على أي حال سقطت المدينة ، ذلـــك المساء الصائف ، في يد لويس ..

دخلها الصليبيون ..
يقول « المقريزي » :
« أخذوها صفواً عفواً بغير كلفة ، ولا مؤونة حصار »!..

* * *

وغدت دمياط أرضاً « غربية » ..
وخضعت لحكم التعصب للجنس وللدين ..

عن قبة مسجدها نزعوا « الهلال » الذي يعلوهـــا ورفعوا « الصليب » ..

المسجد نفسه تحول الى كنيسة سميت « نوتر دام » كتلك التي في باريس ..

استبدل بالإمام قسيس !..
ثم رنت النواقيس ..
ثم هزجت التراتيل ..

وفي مكان القبلة والمحراب انشىء هيكل كنسي ، أقام فيه مندوب بابا الفاتيكان قداس النصر ..

وبينما راح الشمامسة ينشدون، كان الملك يترنح زهوا، وخياله النشوان يوشك أن يقدم له ، على طبق من فضة ، مدينـــة القاهرة: « قلب الاسلام » كما قدم هيرودس الى الراقصة سالومي ، على طبق من فضة ، رأس « يوحنا المعمدان » !..

* * *

وأقبل الخريف ..

بضعة أشهر مضت على دمياط ورأسها منكس ، ورقبتهـا تعتصرها أصابع الجلاد ..

النصر كأس تدير خمرها رأس القديس » !..
الحقد دم فوار يعربد في شرايينه ..
الشماتة بسمة تغرق شفتيه ..

أما المدينة المغصوبة فقد كتم أنفاسها الهوان ..

نهارها دم ..

ليلها دموع ..

« الله أكبر » : دعوة السماء ، تخنقها جهـالة التعصب ، فلا تبرح الصدور ..

لا تحلق ، كسابق عهدها في الفضاء ..

لا تتنفس الهواء ..

ولو دري أولئك الذين أقبلوا باسم المسيح حقيقة شرعته ، لأطلقوها من الأسر ..

لتركوا القبة تحتضن الناقوس في إخاء ومحبة ..

لأتاحوا للهلال أن يعانق الصليب في مودة وصفاء ..

وحول أسوار دمياط ، عبر النيل ، وفوق الخضرة ، وعلى رمـال الصحراء ، كانت الأرض المصرية تنتفض بالألم والغضب والانفعال ..

ومن وراء الحـدود ، الى الشرق والغرب ، وفي الشمال والجنوب ، كانت البلاد العربية ينهشها القلق من طلعة غد قاتم يكاد عبوس يومهم يأتيهم به : ظلما يكسف شمس الحرية، وجهالة تئد نور الاسلام ، وجموداً يقتل حركة الحياة ..

وسرحت خشيةُ المحنة المقبلة في قلوبهم ، فاذا هي غيرة على

أرضهم الحرة أن يدوسها صلف الإذلال،وعلى تراثهم الطاهر أن يدنسه ضلال التعصب ، وعلى وحدتهم الوثيقة أن تنهشها أنياب الاستعمار ..

عندئذ تسابقت الهمم الى العمل ..

تبارت النفوس في الفداء ..

الضمير العربي ينتفض مهيباً بدعم الجبهة الشرقية والتصاقها بأرض النيل : كتلة واحدة لمواجهة الخطر الداهم ..

العرب : تداعوا الى وجوب لأم صفوفهم ، في المشرق والمغرب، بالقضاء الناجز على ما بينهم بعضهم وبعض من تنافر، وبينهم وبين الحكم المصري من خلاف ..

الملك « الصالح » نجم الدين أيوب بمصر يوفق بين أمراء الجند ثم يعلن « النفير العام » فيقف الشعب كله على قدم ، ويبادر كل قادر من أبنائه على حمل السلاح ..

« الأشرف » صاحب العراف، لا يلبث أن يصافي «الصالح» ويحالفه ، بعد أن أدرك خطورة الموقف على العرب أجمعين وجاءه من رفاقه نذير يقول :

« المسلمون في ضائقة .. وإذا أخذ الفرنج الديار المصرية ، ملكوا الى حضرموت،وعفّوا على آثار مكة والمدينة والشام» ..

« الظاهر شادي » وأخوه « الأمجد حسن » ولدا الملك « الناصر داود » صاحب حصن الكرك ، ينكران ذاتيهما ، ويخرجان على أبيهما المعادي لمصر ، ثم يخلعانه عن عرشه ،

ويضعان ملكه تحت الحكم المصري ، توحيداً للقيادة ، وتأكيداً لالتئام الجبهة الشرقية بالجبهة الغربية ..

* * *

لا شك في صدق ذلك الذي نبه الأشرف صاحب العراق ، لأنه الوعي الثاقب والنظرة النافذة اللذان لا يكتفيان بالمرامي العاجلة ، ولا بالظواهر القريبة البادية للعيان .. بل يتغلغلان — نفاذاً في العمق — الى أبعد غور الأغوار !..

وصدّقت الحوادث الجارية هذا الرأي ..

صدقته على مدارها السيار ، في الغابر والحاضر الى الآن..

فقوة مصر لا تحمي أرضها وحدها من عدوان من يريدها بسوء ، وإنما هي ردء للعرب اجمعين ، وصخرة نجاة تعصمهم من المعتدين .. أن هي بقيت بقوا ، وعاشوا أعزة تهابهم الدنيا ، وتسعى إليهم سعي الولي الوفي الذي يخطب الود ويرتجي الرضاء. وإن هي ضعفت تمزقوا ، وهانوا على العالم ، تقتحمهم الأعين ، وتتخطفهم الأطماع ..

يقول عاهل الجزيرة العربية : الملك « عبد العزيز آل سعود » :

« صلاح العرب بصلاح مصر ، إذا استقامت أمور مصر استقاموا ، وإذا أصابها العوج ضلوا الطريق » ..

تماماً كما يسند الجيش ظهره الى جبل ، فيأمن التفاف عدوه من ورائه وقضائه عليه ..

وتماماً كما يضل القطيع عن راعيه ، فيتفرق ولا حامي له ، وتفترسه الذئاب ..

* * *

لا شك ..

بديهية لا يختلف فيها اثنان ..

بعد « دمياط » هذه بخمسة قرون ..

قبل أن ينبت الملك العربي الكبـــير ، كجلمود صخر من هضبة نجد الشماء بنحو مائتي عام ..

في عهد الملك لويس السادس عشر ، الذي فصلت الثـــورة الفرنسية رأسه عن جسده بالجيلوتين ..

حينذاك يرمي « ميور » قنصل فرنسا الجنرال بمصر ، يدرك هذه الحقيقة الثابتة على الزمن — التي أفصح عنها قول العـاهل السعودي — ويسجلها في تقرير رسمي الى وزارة الحرب الفرنسية ، فاذا هو يكرر نفس المعنى وإن اختلفت العبارات ..

يقول « ميور » في التقرير :

« .. ..ومن يغزو مصر ، تتحقق له السيادة على الشرق.. .. »

بل يزيد ، وهو يستحث قومه .

« إذا تحقق لفرنسا احتلال مصر ، غـدت في مركز يتيح لها فرض مشيئتها على العالم !.. »

* * *

بمنطق التاريخ ..

بنظرة السياسة ..

بعاطفة الجماهير ..

كان دائماً هكذا وضع مصر الطليعي في المنطقة ، وأثرها في تشكيل مصير أخواتها عبر العصور ..

في قصيدته « مصر فوق الجميع » ، يتناول شاعر النيل : « حافظ ابراهيم » هذا الوضع ، فاذا خياله الشاعري يطابق الحقيقة التي اتفقت عليها الآراء ، ولا يعدوها بمثل شعره ولا ذرة هباء ..

بلسان مصر يحدثنا فيقول :

« أنا تاج العلاء في مفرق الشر ..
ق ، ودراته فرائد عقدي

« أنا إن قدر الاله مماتي
لا ترى الشرق يرفع الرأس بعدي »

ثم يرى أن يحذر بني وطنه مغبة التفرق ، التي تهيض جناحهم ، وتجعلهم لقمة سائغة لجشع الغرب المتنمر ، فيقول :

« إن في الغرب أعيناً راصدات
كحلتها الأطماع فيكم بسهد

فوقها مجهر يريها خفايا ،
كم ويطوي شعاعه كل بعد

فاتقوهــــا بجنـــة من وئـام
غير رث العرى، وسعي وكد ..»

أنذر ..

فهل أغنت النذر !..

* * *

لا شك أيضاً في حكمة الأميرين الأخوين : الظاهر شادي، والأمجد حسن، وفي استجابة سلوكهما الأمثـل — المتجرد من الأنانية، الهـادف الى مصلحة الوطن العربي كـله — لدواعي الواقع الذي فرضته آنذاك، وتفرضه دائمـاً على مر الأعصر، ظروف السياسة أو القتال ..

فوحدة المنطقة العربية — بارتباط جبهتها الغربية : مصر، بجبهتها الشرقية : سوريا والعراق — هي السلاح الفعال، الذي يستطيع شعبها أن يشهره في وجـه ما تحشده ضدها، جمعـاً وفرادى، القوى الجشعة المعادية من دسائس ومؤامرات، ومن تكتلات سياسية، ومن تحركات عسكرية، على السواء ..

فالجبهة الشرقية هي الجبل الذي تسند مصر ظهرها إليه، آماناً من الالتفاف ..

ووحدة الجبهتين ضمان تفوق الشعب العربي ..

في الحرب تضمن النصر ..

وفي السلم تضمن الرخاء ..

ظاهرة تتكرر ..

على تعاقب الأزمنة تبرز على سطح الأحداث بين الحين والحين.

عن أصالتها تنبىء المشاعر التي تصطخب في صدور أهل المنطقة في كل آن وإلى الآن ..

عن حتميتها تتحدث الشواهد التي تخلفها حركة التاريخ ..

وكم من شهادة !..

شهادة في « حطين » : يوم زلزل « صلاح الدين » الوجود الصليبي فقوض دعائمه وأركانه ، وثل عروشه وتيجانه ..

شهادة في « عين جالوت » : يوم تصدى « قطز » للطوفان التتري العاتي ، فقهره على الانحسار وحبسه في وكره الأسيوي كما يحبس الساحر البارع مارداً جباراً من الجن في قمقم صغير من النحاس !..

شهادة في « المنصورة »: يوم حطم «توزان شاه» قوات اوروبا الاستعمارية – التي حاولت بامتلاك مصر التهام العرب واذلال الإسلام – فقضى بسحقها على أحلام لويس ..

شهادة في « حمص » : يوم عاودت الموجة المغولية اندفاعها لاجتياح الأرض العربية، وتقدمت جيوش الحلف الصليبي المغولي بقيادة « أباقا » بن هولاكو ، لتلقي هزيمتها الشنعاء على يد المنصور سيف الدين « قلاوون » .

وغيرها كثير ..

شهادة تتكرر ..

حقيقة تتجدد على الأعصر ..

قصة قديمة قدم الانسان ، تتتابع فصولها على أرض المنطقة التي ابتدعت حضارة الانسان ..

(٢)

١٥٢٠ ق.م

قبل نحو خمسة وثلاثين قرناً من الزمان ..

« عا خبر كارع » : فرعون مصر تحوتمس الأول يربط الجبهة الشرقية في المنطقة بجبهتها الغربية : أرض النيل ..

تصل حدوده في آسيا الى الفرات ..

بمنطق عصره يحدثنا ، كما ورد بلوحة أبيدوس فيقول :

« وسعت حدود مصر بقدر مدار الشمس .. »

خلقت القوة في نفوس الخائفين ..

استللت منهم الشر ..

جعلت مصر سيدة على كل الأرض » ..

وصدق الفرعون .

فالقوة والأمن هما الحياة ..

القوة تحقق السيادة ..

والأمن يحرر الإرادة ..

ومن تزواجهما ينبعث الخير ..

ولا قوة ولا أمن إلا إذا ارتبطت الجهتان ..

* * *

وتوثق الارتباط ..

في خلال سنوات ، شب ونما ، وقطع خطوة واسعة الى الأمام ..

إلى الرسوخ والثبات ..

إلى وحدة حية ، كما تربط بين أرض هذه الجبهة وأرض تلك ، تربط أيضاً بين الناس هنا والناس هناك ..

« من خبر رع » : تحوتمس الثالث ، استطاع أن يجمع ، مع مصر ،فلسطين وسوريا ولبنان وما بين النهرين في رباط وثيق..

وصل بهذه الكتلة المتماسكة الى شرق الفرات ..

وارتفع الى الأناضول ..

أهم من ذلك كله أنه استحدث وسيلة لصهر شعوب الجبهة الشرقية ، وشعب مصر ، في شعب واحد ، فراح ينشّىء أبناء ملوكهم وحكامهم وقادتهم وذوي النفوذ منهم تنشئة مصرية ، تذويباً للفوارق العنصرية والاجتماعية ،وتوحيداً للثقافة والمشاعر وأساليب التفكير ..

يقول الدكتور نجيب ميخائيل في كتابه : « مصر والشرق الأدنى القديم » وهو يحدثنا عن هذا الملك العظيم :

« .. .. ولقد أدرك أن هـذا التحالف لا يستطيع أن يستمر طويلاً عن طريق حاميات على الحدود ، وتنظيم دقيق ، وإشراف مباشر ،بل عن طريق علاقات اجتماعية وثقافية.. ..»

ويقول :

« .. .. وطلب الى رؤساء القبائل وعظماء القوم أن يرسلوا أولادهم الى مصر لكي ينشأوا نشأة مصرية ، ويتعلموا الحيـــاة المصرية في القصور الملكية .. .. »

ويقول :

« .. .. وُقسمت آسيا (الجبهة الشرقية) الى مقـاطعات روعيت في تقسيمها الحدود الطبيعية القديمة« وسمح لكل رئيس أن يحكم مقاطعته . . وكان ُيعيّن خليفة للحاكم عند موتـه ابنه الذي نشأ وربي في البلاط الملكي .. .. »

* * *

ركيزة المنطقة لعزة أهلها وسيادتهم ، هي إذن تلك الوحدة الوحدة التي تربط مصر بأخواتها الشرقيات ..

هذه حقيقة ثابتة .

أدركها الفراعنة منذ أقدم العصور ..

ولم تغب من بعد للعرب عن بال ..

في صدورهم أجمعين جاشت : عاطفة ..

على ألسنة الأكثرين منهم ترددت : شعارات ..

بأذهان بعضهم دارت : فكرة ..

لكنها ، في الأعم الأغلب ، ظلت مجرد انفعال ..

لم تزد عن أمل يداعب الخيال ..

لم تجاوز حدود الإحساس الذي تنبض بـــه القلوب . أو الحديث الذي تنفرج عنه الشفاه . أو التفكير الذي يجـول في الخواطر ، إلا في فلتات ..

طوال تاريخهم المديد ، قـلة نادرة من زعمائهم ، لم تزد عن بضعة نفر ، هي التي آمنت حق الإيمان بوحدة المنطقة ، كمبـدأ أرسته الشواهد ، وفكرة تمليها الحاجة ، وخطة قابلة للتحقيق فحرصت على تعهدها بالرعاية والبذل والكفـاح الصابر الدءوب لتخرج بها من دنيا الأمل والتصور والكلام الى عالم الواقع الحي الذي نعيش فيه ..

ومع انه درس وعته صحف التاريخ خليق بالتفهـــم ثم التطبيق !..

مع أنها بديهية البديهيات !..
مع أنها ضرورة حياة !..

* * *

وندع « من خـــبر رع » : تحوتمس الثالث فرعون مصر ومحاولته الرائدة لتوحيد المنطقة ..

ننتقل من القرن الخامس عشر قبل الميـلاد الى الثالث عشر بعد المسيح ..

نثب الى الأمام وبثة طولها نحو ألفين وثمانمائة عام ..

نغادر « طيبة » الى « دمياط » ..

فما نكاد نبلغ أواخر الخريف من سنة ذلك الغزو الصليبي لمصر على يد « القديس ! » لويس، حتى نشهد هذا الملك الفرنسي الذي نذر نفسه لهدم الإسلام ، قد امتلأ أملاً وثقة في امتلاك مصر ، حامية العرب والمسلمين ..

وما يمنعه ؟..

فهذا هو البحر وراءه يمده بالعتاد والأجناد ..

وهذه تجربته في دمياط ، التي دخلها بغير مقاومة ، تكاد تؤكد أنه سائر الى رحلة ترويح لا الى ميدان قتال ..

وها هي ذي القاهرة، قلب الإسلام، وحصن العروبة ، تكاد تتبدى لخياله المفتون وهي تهم بأن تفتح أبوابها له، تأهباً للاستسلام أو الاستقبال !..

* * *

ويبدأ الزحف « المقدس ! » على القاهرة ..

بقواته الصليبية الجرارة يندفع لويس صوب الجنوب ..

في خفية يتسلل وإياها الى النيل ..

على حذر تنطلق بهم سفائنه عبر النهر ..

بهدوء يلتفون حول مواقع الجيش المصري المرابط في « المنصورة » ..

وتملؤه الثقة ..

فالمدينة الآن تحت رحمته ..

وقواته طوق حديدي يكاد يخنق جيش الدفاع ..

وملوك المسلمين وأمراؤهم وقوادهم ، هنا وهناك ، في شاغل عنه بالخلاف والشقاق ..

والملك « الصالح » نجم الدين أيوب ، صاحب الأمـــر في مصر ، رقيد الفراش ، في نزعه الأخير ..

والطريق الى هدف الغزوة مفتوح ..

* * *

وأحس لويس أنه قد غدا عشرة « ألوسة ! » بل مائة ، بل عدة ألوف !..

رأسه في السماء ..

قدمه فوق الرقاب ..

عينه على القاهرة ..

ذراعاه تمتدان لتحتويا هذه المنطقة المأمولة: منبع الحضارات والأديان ، ليضعها في جعبته ، بمـا تضم من أرض وناس وثروة وتراث ..

وعندما خرج في حملته الكاسحة من دمياط ذلـك اليوم من نوفمبر ، متجهاً صوب الجنوب الى القاهرة حفيدة « منف » وابنة « الفسطـاط » وحاضرة « المعز » لدين الله : « قلب الإسلام » كانت قبضته صلبة كالفولاذ ..

وعندما عبر النيل الى الضفة المقابـــلة ، دون أن تهز مصر كلها سلاحاً في وجهه ، كان في قلبه العزم والثقة والطمأنينة ..

وعندما طوق بجيشه اللجب « المنصورة » وهو ينطلق بنظرات خياله مع النهر الخالد الى ملتقى فرعيه ، كان أمامه النصر ..

* * *

لكن الشتاء الذي الذي ولى ، كسحت رياحه العاصفة كل ما كان للملك الفرنسي من قوة واعتزاز ..

في أشهر قلائل تبدلت الحال ..

الربيع النضر الذي أقبل مع أبريل ، ذوت فيه ورود أمله ورياحينه ..

الجبهة الشرقية المفككة رأبت صدوعها ، ولمت شعثها ، وقوت عزمها ، ووقفت صفاً واحداً وراء المصريين المناضلين لدرء الخطر الزاحف ..

« شجرة الدر » ملكة مصر تأخذ زمام المبادرة في يديها ، فتسوس الأمور ، وتنظم المقاومة ، وتكتم عن الصديق والغريم ، والقريب والغريب ، خبر موت زوجها « الصالح » لكيلا تهن روح الشعب ، ويتنازع الأمراء الحكم ، وتتفرق كلمة الجند والقادة وتقوي معنوية العدو المتهيء للانقضاض ..

« توران شاه » بن الصالح ، يقبل سراً من العراق بدعوة من الملكة ، ليأخذ في صفوف القتال مكان أبيه ..

وتسير الأحداث ..

مصر : شعباً وجنداً وقادة ، يد واحدة ..

الجبهة الشرقية ملتئمة ، والأمة العربية في رباط ..

الجيش المصرى ينبري لواجبه ، فيعرقل تقـدم الغزاة ، ويحيل قنوات الدلتا أمام انطلاقهم شبكة معقـدة ، منتكثة الخيوط ، يضلون فيها ويحتبسون كما يحتبس السمـك في شبكة صياد !..

معركة « المنصورة » تنقلب بالعدو الصليبي المحتال من الثبات الى الاضطراب ، ومن الأمـل الى اليـأس ، ومن التماسك الى التشرذم ، ومن مد النصر الى جزر الاندحار ..

يقول « توران شاه » :

« .. .. وقتلنا منهم ثلاثين ألفـاً ، غير من ألقى بنفسه في اللجج .. أما الأسرى فحدث عنهم ولا حرج .. .. »

* * *

وذلت الصليبية ، وذل لويس ..

وعزت العرب ، وعز الاسلام ..

من كتاب : « من الشرق والغرب » لمحمد علي الفتيت نعرف قصة الغزوة ، كما نعرف الهدف الذي رمى إليه من ورائها الملك « القديس ! » :

« .. .. لويس ارتأى أن إلحاق الهزيمـة بمصر يؤدي الى هزيمة العالم العربي والإسلامي » .

لكن الذي ارتآه غير الذي حدث وكان ..

فقد ردت عليه مصر كيده ، وحطمت حملتـه ، وبعثرت جهوده ، ومرغت كبرياءه في الطين ..

المنصورة المطوقة ثبتت للحصار والاقتحام ..

المتاريس تسد الطرقات ..

الدور قلاع ..

الطوابق العليا مراقب ومراكز للدفاع ، بعيدة عن متناول الأعداء ..

أهلها جميعاً أبطال راسخو العزم ، وطيـــدو التصميم على مقاومة الغزاة ..

يقول « هنري بوردو » :

« .. .. وكان على رأس هؤلاء الأبطال رجل لم يكن وقتئذ في مكان الصدارة .. تمكن بقوة إيمانه وعمق وعيـه ، وبحاضر بديهته وكفايته من قلب نصر الصليبيين الى هزيمة .. .. »

ويكشف لنا عن شخصية.. هذا البطل ،فإذا هو « الظاهر بيبرس » رفيق بطولة « قطز » في « عين جالوت » بعد بضع سنوات ..

ثم يعقب على معركة « المنصورة » فيقول :

« .. .. كانت من أهم الأحداث في تاريخ الحملات الصليبية وفي تاريخ مصر التي وجدت ، في تلك اللحظات الحرجة ، من

بين أبنائها رجالاً بررة بها، استعذبوا الموت في سبيلها واستطاعوا أن يشعلوا نار الوطنية، ويهيجوا تلك الحماسة الطاغية التي جرف تيارها العاتي أقوى ما هدد البلاد من قوات الصليبيين .. »

* * *

وانطفأت أحلام الغرب في امتلاك الديار المصرية، وصولاً الى القضاء على العرب وسحق الإسلام ..

الحملة الصليبية السادسة -- في رأي « تاريخ العرب » لفيليب حتي، السابعة في رأي « موسوعة تاريخ العالم » لوليام لانجر — أصابها الخسران والبوار، وغدت كرماد خامد بين يدي إعصار !..

الدعوة المسعورة، التي ارتفعت بها عقيرة « إينوسنت الرابع » بابا الفاتيكان، مؤلبة أحقاد الغرب المنهوم لابتلاع الشرق العربي المسلم — تبددت في الهواء، نتيجة لمعركة المنصورة، ولم يكن قصارى دويها الصاخب إلا كجهد كلب كان يطارد القمر بالنباح !..

الجيش الجرار الضخم — الذي احتوى في صفوفه صناديد الفرسان من مغامرين ورهبان، وخيرة جنود فرنسا ودول اوروبا، وظفر بمساندة صليبي سوزيا، ومسيحي اليونان وقبرص، واستغرق إعداده عامين كاملين — انتهى الى أسوأ مصير ..

« فيليب حتي » يقول :

« دمر نهائياً » ..

« وليام لانجر » يقول :

« نُحر !.. »

وبين قول هذا وقول ذاك ، لم ينكر رأي تناول تاريخ هذه الحقبة أنه حقاً تمرغ في الوحل ، وظفر بالعار دون الغار !..

* * *

ونصحب « القديس ! » بعد أن خمـــدت الوغى ، وانجلى الغبار ..

نصحبه في رحلة هوانه ..

في شهره الأخير على أرض النيل .

بعد كل اختياله وجبروته ، وآماله القصار والطوال ، يقع في الأسر ..

ويقع معه عشرات الألوف من اشرافه وقادته وفرسانـــه وجنوده الذين تستروا – ادعاء أو جهلاً – وراء السيد المسيح ، ورسموا على صدورهم صليب الفداء ..

اقتيد – من ميدان المعركة التي حلم وهو يخوضها أنه داخل بعدها مدينة « الألف مئذنة » ونازع من قباب مساجدها ألف هلال ليرفع بدلها ألف صليب – يسير بـه حرس مصري الى سفينة ، مضت به الى المنصورة وحولهـا مواكب من ذوات الشراع ، تقرع الطبول ، وتدق الصنوج ، وتنفخ في الأبواق ..

وسيق في طرقات المدينة الباسلة ، التي جرعته العلقم ، بين

أمواج من حشود السكان، منكس الرأس من خزي، «متوجاً !» بإكليل شوك الهزيمة، والدفوف تضرب، والمزامير تعزف، والأصوات تنطلق من ألوف الحناجر بالتهليل والتكبير ..

وانتهى الهتاف والطواف، فأودع الملك دار القاضي فخر الدين ابراهيم لقمان ..

ثم أحكم عليه الرتاج ..

ثم وكل به خصي يحرسه بمعتقله الصغير ..

وعندما افتداه قومه بالمال بعد شهر، وأطلق سراحه من الأسر، « جاد ! » عليه أهل المنصورة بكساء يعوضه عن أسماله، ويرد عليه هيئته وهيبته كملك أراق وقاره على ساحة القتال !..

* * *

وتطوي الأيام سجل المعركة ..

لكن نبأها يحفظه التاريخ :

فخراً لمصر وأخواتها الشرقيات ..

رمزاً للقوة في الاتحاد ..

مثلاً لإنكار الذات ..

دلالة على العزم الصابر كيف يصنع المعجزات ..

عبرة للبغاة ..

ويحفظه أيضاً أدبنا العربي :

ذكرى كفاح يوم عظيم ..
آية اعتزاز لبلدة مناضلة ..
بشير ثقة في المستقبل ..
صورة لخزي طاغية ..

شاعر من أمتنا سجل مشاعره عن الواقعة في أبيات تجمع الخبر الى الفخر الى الثقة الى العبرة ، قد تكونت عباراتها بروح شعبه ، فإذا هي ساخرة تكاد تبرز لسانها للباغين !..

لنوشك ، من وراء القرون ، أن نسمعه يترنم بكلماتـه ، وكأنما يسوقها هدية من القدر لطغاة الغدر المعتدين على أرضنا الطيبة في كل عصر وحين ، مذكراً بعقبى الطغيـان ، ومكيناً بسلفهم لويس ..

يقول الشاعر في دعابة لذاعة :

« قل للفرنسيس إذا جئتهـــا
مقال صـــدق من قؤول فصيح
دار ابن لقـــمان على حالهـــا
والقيد باق والطواشي صبيح !.. »

ويرحل الأسير ..
يرحل لويس ليأتي لويس !..
يذهب عدوان ليجيء عدوان !..
فالحية الأسطورية لها عشرات الرؤوس !..
وسرب الصليبية طويل ..

(٣)

١٧٩٨ م

فرنسا ..

عشر سنوات مضت على الثورة ..

على اقتحام الباستيل ..

على سحق الإقطاع ..

على تحرير رقيق الأرض ..

على إعلان حقوق الإنسان ..

لكن ما يقع الآن من هؤلاء الثوار ، يخالف مـــا هبوا من أجل تحقيقه كل الاختلاف ..

يناقض الشعار العظيم الذي رفعوه ..

يمرغ « الحرية – الاخاء – المساواة » التي رمز لهـــا علمهم الثلاثي الألوان في الطين !..

فحكومة الشعب الفرنسي ، الذي أراق نهرا من الدمـــاء سبح عليه الى حريته ، تسعى لاراقة نهر آخر لتغرق فيه حرية شعب آخر !..

حكومة « الديركتوار » الفرنسية – عنتاً وجشعاً – تهـدر دماء أبناء شعب النيل ..

* * *

وينطلق « نابليون بونابرت » وما ندب له ..

يبحر من ميناء طولون بحملة من خمسة وثلاثين ألف مقاتل، هم أحفاد « لويس »، مجهزين بأحدث أسلحة الدمار لغزو مصر..

ويؤمن طريق مواصلاته فيحتل مالطة ..

ثم يرسو بسفنه على الساحل المصري ..

ثم يدخل الاسكندرية ..

وبينما كانت الأمة الفرنسية، في الرابع من يوليو ذلك العام، تحتفل بعيدها القومي : عيد الحرية ، كان الضابط الكورسيكي القصير ، يعقص خصلة من شعره على جبهته، ويدس إحدى كفيه في بزته ، ويتهيأ للزحف بجيشه جنوباً الى القاهرة ابتغاء القضاء على حرية الأمة المصرية ..

وينطلق وأمله الكبير ..

يبرح العـــامر الآهل من الأرض ، إلى النضر الأخضر الى الجدب المقفر ..

يسير والحافة الغربية لدلتا النيل ..

وعندما يبلغ هضبة الرمل الناهدة قرب ملتقى فرعي النهر العظيم ، يبادر الى الإعداد لمعركة العمر التي أنبأه تقديره أنهـا لا ريب آتية بمملكة الشرق الأسطورية !..

بنصر « الاسكندر » ..

بعرش « الرشيد » ..

بجلال « فرعون » ..

* * *

ويحس عندئذ ، وهو يذرع المكان ، بعينه وبخياله ، كأنه يذوب – ذهناً وعاطفة – فيما يحيط به من معالم الجمال والخلود..

ليكاد يشم ، من روائح الماضي الماثل أمامه بآثاره ، أريج العطور والبخور !..

ليكاد يسمع ، مع همس النسيم للرمل ، تراتيل كهنته ، بتاح وآمون !..

ليكاد يشهد ، في شعاع الشمس الدافئة ، غلائل راقصات المعابد الشفافة ، وهن ينثنين على دق الدفوف ، ورنين الصنوج ، وعزف المزامير !..

كل بقعة من الأرض حوله ، تفيض بآيات عبقرية الإنسان المصري الذي دون ، بنقوشه الرشيقة ، أول سطور التاريخ ..

قيد خطوات منه موقع «منف » ابنة « مسينا » وأم مدائن العالم القديم ..

تحت نظرته السابحة على أشعة « رع » تتبدى له أطلال « الفسطاط » حاضرة عمرو بن العاص ..

على مرمى البصر والرجاء ، ترقد في حضن النيل مدينة « القاهرة » مستقر ملك المعز والفاطميين حفدة الرسول ، وقلب العروبة والإسلام ..

ويرنو الى بعيـد ، فيبهره منظر « المآذن » الألف ، وهي ترتفع كالحراب لتخرق السحاب !..

ثم ينظر الى قريب ، فيروعـــه شموخ « الأهرام » : قبور الفراعين التي تحفظ في بطونها أجسادهم غضة لموعد البعث والخلود كما تحفظ الأرحام الأجنة ليوم المخاض والميلاد !..

ثم تهوله نظرات « أبي الهول » السابحة في الدهر الى الغامض المجهول كأنها تستوحي الغيب ما يخفى عن العيون والظنون !..

* * *

ويكتّب القائد الكورسيكي ، القـــادم عبر بحر الروم الى أرض الأحلام ، جنوده المستشرعين للقتال ..

يرصهم — رجالاً وركبانا ، وصفوفاً ومربعات وكأنهم دمى يحركها بخيوط ..

ويرتب مدافعه ..

وينظم مواقع أسلحته التي تقذف النار ..

ثم يرمي بعينه ، عبر الرمل ، الى قوة الدفاع من فرسان المماليك ، الذين يوشكون أن يناجزوه ومـــا في أيديهم سوى السيوف والمزاريق !..

وعندئذ تملؤه الطمأنينة ..

يدانيه النصر ..

تخايله مملكة الأحلام ..

فليس السيف كالمدفع ..

ليس الحديد كالنار ..

وعدوه إذن وقود ورماد !..

* * *

ويتقدم الى رجاله ، يبث فيهم الثقة والحماسة ..

يرفع رأسه ..

ينفخ صدره ..

يشد قامته ..

يشب على أصابع قدميه ليطول !..

ويمـــد ذراعه مشيراً الى مقـــبرة « خنم خوفو » : الهرم الأكبر ، ويقول :

« يا جنود فرنسا !.. ان خمسة آلاف سنة تتطلع إليكم من قمة هذا الهرم » !..

ثم يأمرهم بالهجوم ..

* * *

وصدق نابليون فيما قال :

فعلى القمة الشماء المدببة للأثر المصري ، وقف الخلود ..

وفي جوفه تربت حضارة البشر ..

وعند سفحه توالت مواكب التاريخ ..

بلا ريب ، أصاب الحقيقة ..

عبر عن إحساسه ، وعن رجائه ، وعن مرماه ، وهو يدفع رجاله للالتحام بالمماليك ..

صدق في التعبير ..

غير أنه الصدق المبتور ..

نطق بنصف الحقيقة ، وأطبق على نصفها الآخر شفتيه فلا تنبسان ..

النصف الأول الذي أبداه وتحدث عنه ،هو عين«التاريخ»..

وكانت يومذاك تطل على ساحة معركة « الأهرام » من فوق قمة أخلد أثر إنساني تحدى الزمن وعايش التاريخ ..

وهي تطل ، الى الآن ، من عليائها على الأحداث لتشهد من أبناء النيل كيف يكون ولاؤهم للأرض الطيبة ،ولأمجاد الأجداد.

أما النصف الثاني الذي أخفاه ، ولم ينبس به نابليون ، فهو عين « الصهيونية ! » ..

وكانت يومذاك ترقب ، من وراء نهر « السين » حركات القائد الكورسيكي القصير ، وحركات جنوده العدوانية كيف تكون ..

كيف تؤدي هذه الحملة الفرنسية دورها الذي رسمه لها اليهود ، وتغتال استقلال مصر ..

كيف تتنكر لمبادىء ثورتها الإنسانية ، وتمرغ « الحرية — الإخاء — المساواة » في الطين ..

كيف تغتصب أرض الشرق العربي ، لتقيم على قطعة منها دولة « صهيون » ..

* * *

ولا مغالاة ..

ففي ذلك الوقت من القرن الثامن عشر ، الذي طلعت فيه الثورة الفرنسية على الدنيا بحقوق الانسان ، كانت «الصهيونية» تتحرك لاغتصاب حقوق الإنسان العربي ، وإنشاء وطن قومي لليهود على الأرض العربية ..

كانت تحشد المكر والدسيسة والمال ..

كانت تخطط لتحقيق غرضها الخبيث ببراعة شيطانية ..

فمن خلال تطلعات سياسة فرنسا ، ودعوات مفكريها الهادفة ـ منذ لويس الرابع عشر ـ الى بسط سيادتها على الشرق ، استطاع اليهود التسلل بغرضهم الى عقل فرنسا الثورة ..

أرادوها على أن تلعب نفس الدور الذي شاء « شيلوك » اليهودي أن يلعبه مع تاجر البندقية ، فتقطع لهم من جسد العرب قطعة من اللحم الحي !..

حاولوا ، بقوة ذهبهم ، وضع « جنينهم الاقليمي ! » على خريطة العالم ..

« اشتروا ! » بوعودهم حكومة الديركتوار ..

ربطوا هدفهم الخبيث لطموح نابليون الذي يهفو لاقامة امبراطورية شرقية ..

ونتساءل :

من الراكب ومن المطية ؟..

من المسخّر ومن الأداة ؟..

هل الكورسيكي القصير هو الذي اتخذ من الصهيونية وسيلة لتحقيق أطماعه ؟..

أم ترى الصهيونية هي التي جعلته مخلب قط تلتقط بـــه الكستناء من النار ؟..

* * *

أياً ما كان الخادع وكان المخدوع ، فقد بدأت الرواية ..

التقى الطامعان ..

سارا معاً على الطريق ..

تحالف اليهود ونابليون ..

وكان أول فصل من فصول المسرحية رسالة تعبر بحر المانش الى باريس ..

من ايرلندا يكتب « توماس كوريت » أحـد أباطرة دولة المال اليهودية الى « بول باراراس » عضو حكومـة الديركتوار يغريه بأن تغزو فرنسا بلاد الشرق تحقيقاً لحلمهـا التاريخي ، ثم تُقطع منها بني جنسه اليهود أرض فلسطين وطناً قومياً يـلم شتاتهم ، ويعده في نظير هذا معونة لا تستطيـــع أداء مثلها للجمهورية الفرنسية الغازية قوة غير بني اسرائيل ..

صفقة تجارية !..

ويحدثنا عودة بطرس عودة في كتابه « القضية الفلسطينية في الواقع العربي » أن رسالة الايرلندي كوريث تشير الى جهود اليهود المرصودة لمعاونة الغزو الفرنسي المنتظر وتثبيت أقدامه في المنطقة العربية ، فتقول :

« .. .. ويقدمون لـكم عنصراً استعمارياً متينـاً ثابت الأركان .. ضرورياً .. يقوم في آسيا مقام امبراطورية العثمانيين الآخذة في الانحلال .. ويوفر لكم أهم الضمانات لبث الفوضى ، وإشعال الفتن ، وإحلال الأزمات للقضاء على الأتراك .. .. »

وتبارك فرنسا الفكرة ..

ويتم الاتفاق ..

* * *

ثم يفتح الستار على الفصل الثاني من المسرحية !..

تجهز الحملة الفرنسية لغزو مصر ..

تسند قيادتها الى الضابط الكورسيكي القصير ..

يبادر القائد فيعقد « مؤتمراً » سرياً يجمع كبـار اليهود الفرنسيين من الساسة وذوي الرأي والنفوذ والثراء ، يشاورهم، ويدارسهم مشروع « وطنهم » ، ويضع وإياهم أسس التنفيذ ..

ويصدر المؤتمر نداء الى يهود العالم، يطلعهم فيه على قراراته، ويهيب بهم أن يخفّوا سراعاً الى العمل ، بالبـذل والجهد ، لتحقيق الهدف القومي ..

يقول النداء :

« .. .. عددنا ستة ملايين . وفي حوزتنا ثروات طائلة ، وممتلكات عظيمة .. فعلينا أن نتذرع بكل ما لدينا من الوسائل لاستعادة بلادنا !..

إن الفرصة لسانحة ومن واجبنا اغتنامها .. .. »

ويشير نداؤهم هذا الى « بلادهم ! » التي يرنون الى استعادتها، بالاتفاق مع الجمهورية الفرنسية الحديثة ، التي خلقتها ثورة شعب كافح لاقرار العدل والحرية ، فإذا هي الجور والاغتصاب ..

يبين أن مطلبهم :

« الوجه البحري من مصر ، والمنطقة الممتدة من عكا الى البحر الميت ، فمن جنوبه الى البحر الأحمر .. »

الدلتا وفلسطين وربما سيناء ..

فقط !..

مطلب « متواضع ! » إذا ما قيس بالشعار المحفور على جدار « الكنيست » الآن ، القائل :

« من النيل للفرات » ..

أمل أتاح لهم الاستعمار أن يجسدوه خلال نحو مائة وخمسين سنة ، وقف بعدها « بن جوريون » – حين دخلت قوات اسرائيل بعد العدوان الثلاثي شبه جزيرة سيناء – ليقول لأحفاد أولئك المتآمرين مع نابليون :

« اليوم تدخلون أرض الآباء » !..

* * *

ولا يكاد الضابط الكورسيكي يتهيأ وجنوده للإبحـــار الى « النيل » ، حتى يوجه بياناً الى اليهود يطمئنهم فيه الى وقوف « الأمة العظيمة » فرنسا الى جوارهم ، تشد أزرهم وتعمـل على تحقيق رغبتهم ، مؤكداً لهم أن « العناية الالهية » وكلت إليه قيادة الحملة ليدخل « القدس » ويلد « داود » !..

يخاطبهم :

« يا ورثة فلسطين الشرعيين !.. »

ويناشدهم أن يؤازروا فرنسا التي أخذت على عاتقها استرداد « وطنهم ! » وما فقد منهم .. قائلاً :

« .. .. لكي تصبحوا أسياد بلادكم الحقيقيين .. .. »

ولا يترفع في بيانه هذا عن إذلال كبريائـــه ، فيتدلى الى وهدة استجدائهم ، منافقاً مرائياً، حتى ليقحم عليهم «البطولة» صفة لآبائهم المغاوير !..

يهيب بهم :

« انهضوا !.. برهنوا على أن القوة الساحقـــة التي كانت لأولئك الذين اضطهدوكم لم تستطع تثبيط همة أبناء الأبطـــال الذين كانت محالفتهم تشرف روما واسبرطة !.. »

أي اضطهاد ؟..

نابليون كان أول من يعلم أنه « يرائى » ببيانه هذا ــ شذاذ الآفاق : أباطرة المال ..

يفتري ..

يزيف التاريخ ..

فاضطهاد اليهود هو ابن « الغرب » الشرعي الذي لا ينازعه أب فيه ! .

(٤)

١٩٧٣ م

يناير ..

الفاتيكان ..

البابا « بول » ، حبر الكاثوليكية الأعظم ، ينزل عن عناده أخيراً ، ويرضى ، بعد وساطة أمريكا ، أن يستقبل « جولدا مائير » ..

رئيسة وزراء اسرائيل تحلم باستغلال هذه المقابلة لتدخل في روع العالم أن كبير المسيحية لا يتبرم بسلوك الدولة اللقيطة ، إن لم يبارك ما اقترفته من آثام ..

مجلة « نيوزويك » الأميركية تذكر لنا بعض ما جرى في هذا اللقاء ..

يقول البابا :

« من العسير علي أن أفهم كيف يتصرف الشعب الاسرائيلي بهذه الوحشية الضارية ، وهو الأولى بأن يكون سلوكه رحمة خالصة !.. »

فكأني بالشمطاء الاسرائيلية - ابنة النجار النازحة الى الشرق العربي من « كييف » في أوكرانيا الروسية - تبهت لهذه المصارحة الخشنة وهي التي كانت تتوقع لباقة يرق بها الحديث، جرياً على سنة المجاملة التي تسود في مثل هذه اللقاءات!..

لكأنما الرجل المقدس أبى إلا أن يحشو بالتراب والوحل فم زائرته التي تبدت أمام عينيه مثل ثعلب عجوز تلون شدقاه بحمرة الدم وقد تشابكت بأنيابه بقايا من حطام الفريسة !..

لكنها ، فيما يلوح ، تستطيع أن تجمع شتات أعصابها المبعثرة ، ثم تدير وراء شفتيها الجافتين لساناً يتلوى كثعبان ، ونفح بالجواب ..

تذكر « نيوزويك » :

وترد رئيسة الوزراء على الحبر الأعظم :

« يا صاحب القداسة ..

« أتدري ما هي أولى ذكريات عمري التي أعيها الى اليوم !..

إنها مذبحة « كييف » المروعة التي نظمت لابادة اليهود !..

حينذاك كنا شعباً كله رحمة ..

وكنا بلا وطن ..

وكنا مستضعفين ..

وكان جزاؤنا أن نساق سوقاً الى غرف الغاز » !..

وتعقب مفصحة عن الشعور الذي كان يخالجها وهي تنطق بهذه الكلمات ..

تقول :

« .. .. وكنت أحس عندئذ،وأنا أخاطب رجل الصليب سيد الكنيسة ، أنني أقول له : إنما في ظل صليبكم ،هذا الشعار الذي ترفعونه،كان دائماً يقتل اليهود،جيلاً وراء جيل !.. .. »

وصدقت جولدا مائير ..

فالويلات والمجازر التي أحاقت بأبناء ملتها ، ووقعت بهم ، على تعاقب العصور ، كانت بيد « الغرب » المسيحي وأبنائه الذين يدينون بالصليب ..

* * *

يحدثنا التاريخ :

مع بدء الثورة الصليبية الأوروبية ضد الشرق العربي وأهل الاسلام ، نشطت الحركات العدوانية لاضطهاد اليهود ..

واقتران الحركتين ليس بعجيب ..

فإلى جوار التعصب الديني الأعمى ضد الرسالة الاسلامية ، كانت الكراهية العنصرية للساميين تحرك أيضاً الحملات الصليبية الشعواء ان لم تكن هي الباعث الأصيل ..

والعرب ساميون ..

واليهود أيضاً ساميون ..

ومن هنا كانت الحرب ، وكان الاضطهاد ..

ففي مستهل القرن الثاني عشر الميلادي ، بعد أن قامت أولى ممالك اللاتين الصليبية في بيت المقدس ، على يد «جودفري دي بويون » ، نشبت في روسيا مذبحة فظيعة قضت على اليهود بمدينة « كييف » ..

ومع صليبية ريتشارد « قلب الأسد » في ثمانينات نفس القرن ، شنت انجلترا حرب إبادة جماعية على من بها من اليهود..

وحين بدأت فرنسا الإعداد لثالثة الصليبيات ، وفرض مليكها « فيليب الثاني » على رعاياه ضريبة « صلاح الدين » لتمويل الغزوة ، اقترن هذا الإعداد بحركة إرهابية عنيفة ، انتهت بطرد اليهود من البلاد ..

وعندما قضت صليبيات الاسبان على الأندلس الاسلامية ، شارك يهودها مسلميها فيما لقوا من نكال وقتل على يد مسيحييها ورهبان محاكم التفتيش ، ثم طرد منها من بقوا أحياء وشردوا في الآفاق ..

ما من بلد اوروبي إلا ركبهم بكل أنواع العذاب والهوان..

بل في أوروبا دول ظلت تغلق أبوابها في وجوههم ،ولم ترفع الحظر عن دخولهم حدودها إلا قبيل القرن العشرين بقليل ..

* * *

حتى قبل هذه الصليبيات « التقليدية » كانوا دائماً للاضطهاد الاوروبي هدفاً لا يخطئه التسديد !..

والأمثلة تعيي الإحصاء ، فنكتفي بالاجتزاء .

مثال :

عندما غدت المسيحية ديناً رسمياً للامبراطورية ، في عهد قسطنطين ، جنح الامبراطور إلى إرهاب مدمر لكل من لم يتابعه على دينه الجديد ..

وكان جنوحه هذا استجابة لتوجيه « نسطريوس » بطريق القسطنطينية ، الذي قال له :

« أعطني الدنيا وقد تطهرت من الملحدين ، أمنحك نعيم الجنة المقيم » !..

ولقي اليهود عندئذ من الويلات ما يفوق التصور ..

في كتابه « قصة الاضطهاد الديني في المسيحية والاسلام » يذكر لنا د. توفيق الطويل :

« .. .. منذ اللحظة الأولى لظفر الكنيسة بسلطة مدنية ، دخل مبدأ الكبح العام ، واستمر عشرة قرون شداد رسف فيها العقل والقلب في الأغلال. وعانى من قسوته اليهود والوثنيون كثيراً .. .. »

يقول :

« .. .. وأصدر قانوناً يقضي بإحراق كل يهودي يلقي على

من اعتنق المسيحيــة حجراً .. فإن تزوج يهودي بمسيحيــــة أعدم .. .. »

* * *

ألوان أخرى من الاضطهاد تحيق باليهود قبل سيادة المسيحية « رسمياً » على الامبراطورية :

الحاكم اليوناني « انتيوس » في سوريا، يسترد فلسطين وبيت المقدس ..

يتعقب بالقتل والعذاب اليهود ..

يأخذهم بأفظع أساليب الاضطهاد ..

يحملهم حملاً على الارتداد عن دينهم ، بقوة السيف ..

يقيم في « هيكل سليمان » تمثــــالاً للإله اليوناني « زيوس » ويكرههم على أن يعبدوه ويقدموا له القرابين ..

أفظع من هذا يفعل « تيطس » ..

ويفعل القيصر « ادريان » ..

وأمثالهم كثيرون ..

* * *

ثم يجيء القرن العشرون ..

فهل غاب عن الأذهان « النازي » وما قاسى منه اليهود؟..

معسكرات الاعتقال ؟..

المحارق الجماعية ؟..

غرف الغاز ؟..

بل موجة الاضطهاد والامتهان لأبنـــاء العنصر اليهودي ، تعبر الاطلنطي من أوروبا الى الدنيا الجديدة كما تهاجر أسراب الطيور والأسماك من مواطنها الأصلية الى منـــاطق الإخصاب والتلقيح !..

إلى الولايات المتحدة تنتقل، لتضع بها بيضة، ما نظننا نغالي لو رأيناها ستفرخ في يوم مقبل ، عداوة قاتلة واضطهاداً مدمراً لليهود الذين ينعمون الآن بسيطرة رهيبة على تلك البلاد ..

وليس ذلك اليوم ببعيد ..

فعلى واجهات بعض المشارب والمنتديات والمحلات العامة ، لافتات كتب عليها :

« ممنوع دخول الكلاب واليهود » !..

* * *

وصدق أيضاً البابا بول ..

كما صدقت جولدا مائير حين اتهمت رعــايا الصليب باضطهاد بني جنسها اليهود ، صدق أيضاً حبر المسيحيـــة الأعظم وهو يتهم اليهود بالتفنن في القسوة والاضطهاد ..

فالوحشية الضارية لليهود تتذرع الآن بأفظع الأساليب لصب عذابها على الشرق « العربي » وشعب فلسطين ..

على الأرض التي فتحت لشذاذ الآفاق أحضانها واستقبلتهم دائماً كأخوة بينما أوروبا تلفظهم ، وتطاردهم كأنهم أفاع ، وتتعقبهم بالموت والدمار ..

على العرب الذين كانوا لهم ، طوال التاريخ ، ملاذ أمن من الخوف ، وجنة نجاة من الهلاك ..

* * *

لكنه جزاء « سنمار » ! .

أوروبا تأخذ والعرب يدفعون ..

اليهود لا يثأرون لأنفسهم من الجناة ، بل من المنقذين !..

يقطعون اليد التي تمسح المحن عنهم ، وتمتد لهم بالاحسان ..

ينهشون الصدر الذي يجدون فيه دفء الحنان ..

وهل من عجب ؟..

بل لا غناء في عجب يتجدد ويطول الى أبعد الآماد ثم لا يصل بالعاجب الى جواب ..

فليس ثمة تعليل مقبول لهذا السلوك تسيغه العقول ..

لا أسباب ..

أم يعجب المرء للعقارب إذ تلدغ !..

أم يعجب للثعابين إذ تلسع !..

كلا !..

فتلك سليقة فُطرت عليها نافثات السموم ..
وفُطر أيضاً اليهود !..

(٥)

٣٠ م
أورشليم ..
هيكل داود .
المسيح يبشر بملكوت الله
يعظ ويحذر ..

يقرب رسالته السماوية الهادية الى عقول سامعيه ، فيضرب لهم الأمثال ..

لكن أولئك الذين جبلوا على الشر ، من الأحبار وكبار كهنة اليهود ، يتصدون لداعي السماء ، ليفتنوا عنه الناس ..

يتباهون بالحكمة والورع والتقى التي لا ينبىء عنها فيهم إلا مراكزهم الكهنوتية وما يرتدون من مسوح !..

يدّعون ويتظاهرون ..

يجادلون بغير حق ، ويفتنون في الحديث ..

قولهم خواء ..

علمهم رياء ..

عقولهم مطموسة ..

قلوبهم غلف ..

وهل يرى معصوبو الأعين النور !..

وعندئذ يوبخهم المسيح !..

« انجيل » لوقا ، بالاصحاح الثالث والعشرين ، يذكر لنا كيف يفضح رسول الله : عيسى بن مريم خبء صدورهم المنطوية على الخبث والرذائل ، ويرفع عنها غطاءها أمام الجماهير ..

يجابههم عليه السلام :

« ويل لكم أيها الكتبة والفريسيون المراءون لأنكم تنقون خارج الكأس والصفحة وهما من الداخل مملوءان اختطافاً ودعارة !.. »

ويصفهم :

« .. .. تشبهون قبوراً مبيضة تظهر من خارج جميلة وهي من داخل مملوءة عظام أموات وكل نجاسة !.. هكذا أنتم من خارج : تظهرون للناس أبراراً ، ولكنكم من داخل مشحونون رياء وإثما .. .. »

ويناديهم :

« أيها الحيات أولاد الأفاعي !.. »

ويعدهم الجحيم مأوى ومثابة ، جزاء وفاقاً لقتلهم دعاة الهدى والنبيين ، كراهة للحق وقضاء عليه :

« كيف تهربون من دينونة جهنم !..

لذلك ، ها أنا أرسل اليكم أنبياء وحكماء وكتبة ، فمنهم تقتلون وتصلبون ، ومنهم تجلدون في مجامعكم وتطردون من مدينة الى مدينة .. .. »

بل يدينهم بكل دم بشري أريق :

« .. .. لكي يأتي عليكم كل دم زكي سفك على الأرض ، من دم هابيل الصديق ، إلى دم زكريا بن برخيا الذي قتلتموه بين الهيكل والمذبح .. .. »

وعندما يغادر أولئك الفسقة البغاة ، يتقدم تلاميذه ليروه أبنية الهيكل ، فإذا هو يشير إليها ، ويقول :

« أما تنظرون جميع هذه ؟.. الحق أقول لكم إنه لا يترك ها هنا حجر على حجر لا ينقض ! .. »

ثم يمضي وما اختاره له الله ..

* * *

ولم يكن ما قاله عنهم مجرد نبوءة رسول ..

بل كان أيضاً مقال خبير ، نبت بينهم ، وعاش حاضرهم ، وعرف ماضيهم ، وعاش فيهم سنين عدوا ، فلم يغب عنه شيء من خلالهم أظهروه أو كتموه .

وكان حقاً ما قال ..

يؤكده التاريخ ..

ويقدمه لنا اليهود اعترافات صريحة ،على صحائف سلوكهم ، ممهورة ببصمات أصابعهم الملوثة بدماء الشعوب ..

ديناً وواقعاً ،صدق السيد المسيح، لا ريب ،فيما دمغهم به ..

ذلك « الآتي من عند الرب » ، ابن « بيت لحم » ، كان لا ينطق عن الهوى وهو يلقي على رؤوسهم جريرة سفك دم البشر ..

فهم أعداء الحياة والسلام ..

قتلة العقائد والأديان ..

مثيرو الأزمات والقلاقل ..

حائكو الدسائس والمؤامرات ..

مشعلو الحروب ..

أساتذة الابادة والارهاب ..

* * *

اعتراف :

من كتب « العهد القديم » : التوراة ..

من سفر « يشوع » ..

في فجر ذات يوم ..

بالقرب من مدينة « أريحا » ..

« شعب ! » اليهود يتشرع للعدوان ..

يتهيأ لاغتصاب البلدة ..

الكهنة اللاويون يحملون « تابوت العهد » ..
كهنة آخرون ينفخون في الأبواق ..
الجنود يتحفزون ..
« يشوع » يصيح بشعبه :
« اهتفوا لأن الرب قد أعطاكم المدينة !.. »
فيبدأ الهجوم ..
يسقط السور ..
تندفع الجموع اليهودية الى أريحا ..
يقول « السفر » :
« .. .. وصعد الشعب الى المدينة ، كل رجل مع وجهه . وأخذوا المدينة . وحرموا (قتلوا) كل ما في المدينـــة : من رجل وامرأة ، من طفل وشيخ ، حتى البقر والغنم والحمير بحد السيف !.. »
ويقول :
« وأحرقوا المدينة بالنار مع كل ما بها . إنما الفضة والذهب وآنية النحاس والحديد جعلوها في خزانة بيت الرب .. .. »
إبادة كاملة للحياة ..

* * *

اعتراف :
مدينة أخرى : « عاي » ..

نفس « السفر » يقول :

« فقال الرب ليشوع : مد المزراق الذي بيدك الى « عاي» لأني بيدك أدفعها . . . . »

ويقول :

« .. .. وأسرعوا وأحرقوا المدينة بالنار . فالتفت رجال عاي الى ورائهم ونظروا ، وإذا دخان المدينة قد صعد الى السماء ، فلم يكن لهم مكان للهرب هنا أو هناك .. .. »

ويقول :

« .. .. وكان لما انتهى اسرائيل من قتل جميع سكان عاي في الحقل في البرية حيث لحقوهم ، وسقطوا جميعاً بحد السيف حتى فنوا ، أن جميع اسرائيل رجع الى عاي وضربوها بحد السيف . فكان جميع الذين سقطوا في ذلك اليوم ، من رجال ونساء ، اثني عشر ألفاً : جميع أهل عاي .. .. »

ثم يقول :

« .. .. وأحرق يشوع عاي ، وجعلها تلا أبدياً خراباً الى هذا اليوم .. .. »

موت ودمار ..

* * *

اعتراف :

بروتوكولات « حكماء صهيون » ..

دستور اليهودية العالمية ..

المخطط الصهيوني الذي يرسم مراحل تحقيـــق التسلط على العالم بحكومة يهودية ، ضربوا موعداً لقيامها نهاية هذا القرن العشرين ..

السابع عشر من هذه البروتوكولات يقول :

« .. .. سنوات فقط هي التي تفصلنا الآن عن القضـــاء المبرم على المسيحية. أما قضاؤنا على ما عداها من الأديان فأمره علينا أهون .. .. »

ويقول :

« وحين يأزف موعد تقويض عرش « البابوية » ، فلسوف تمتد أصبع من يد مجهولة تشير للشعوب : أن هموا به !.. فإذا ما انقضت عليه الأمم ، خففنا إليه ، تحت ستار العمـــل على حمايته درءاً للاسترسال في إراقة الدم..ومن هنا تتغلغل أصابعنا في أحشاء هذا العرش ، ويتحقق لنا ألا ندعهـا حتى ننخر في قواها فتهلك .. .. »

ويقول :

« .. .. عندئذ يغـدو « ملك اليهود » هو البـابا الحقيقي لكل العالم ، والحبر الأعظم لكنيسة عالمية .. .. »

قتل الاديان ..

* * *

اعتراف :

النصف الثاني من القرن التاسع عشر ..

مدينة براغ ..

الحاخـام « ريشورن » يخطب في مؤتمر صهيوني ، مبينـاً للمؤتمرين القوى التي يملكها اليهود ، ويتيح لهم تحقيق « وعـد الله » لابراهيم ..

لكأن خيال الحاخام راح ، في تلك اللحظة يسبح به عبر الزمن ، خلف الأعصر ، على أرض الشرق ، وذهنه حينئذ يهيم في سطور الاصحاح الخامس عشر من سفر «التكوين » مستعيداً منه هذه العبارات :

« .. .. في ذلك اليوم ، قطع الرب مع « ابرام » ميثاقاً ، قائـلاً :

لنسلك أعطي هذه الأرض ، من نهر مصر الى النهر الكبير نهر الفرات .. .. »

فلأي نسل « ابرام » او ابراهيم كان هذا الوعد الموعود ؟..

لنسله من ابنه « البكر » : اسماعيل ولد هاجر المصرية ، أم من ابنه اسحق ولد « ساراي » أو سارة التي لم تحمل به الا بعد ولادة أخيه بسنين ؟..

لكن اليهود يحتكرون لأنفسهم ذلك الوعد كأنهم وحدهم نسل ابراهيم !..

* * *

على أي حال ، ينطلق الحاخام « ريشورن » في خطابه فيقول لجموع المؤتمرين :

« .. .. حثيثاً الى القمة نسير . قوتنا ، يوماً وراء يوم ، تزيد .. فنحن نملك « إله ! » هذا العصر الذي نصبه لنا من قبل « هارون ! » في صحراء سيناء .. نملك « الذهب » الذي عبدناه ، وغدا اليوم إله الناس أجمعين .. .. »

ويقول :

« .. .. لنا وحدنا ذهب العالم . ولنا به القوة الحقة التي تنجز لنا الوعود التي وُعد بها ابراهيم .. .. »

ويبين لهم مكانتهم :

« .. .. اليهود الآن هم المسيطرون على مراكز المال . في حوزتهم الألوف العديدة من الملايين . وملوك اوروبا وحكامها مثقلون بالديون .. .. »

ثم يهيب بأبناء شعبه :

« .. .. فلنُحسنْ إذن استغلال الموقف ، بأن نزيد في إثقالهم بالديون . نقرضهم بضمان ما لبلادهم من عقار ومصانع ومناجم و.. و.. وبهذا نسيطر على العروش !.. ولنجمعْ في أيدينا أزمة التجارة ، ونتوسل بالمضاربة إذ هما خير السبل للربح الفاحش السريع !.. ولنملك احتكارات الخمور والحبوب والأغذية فنتحكم في بطون الشعوب !.. .. »

الاذلال بالجوع !..

* * *

كلها أسلحة !..

وكلها ، في عرفهم ، «مشروع !» ، ما دام يؤدي الى إشباع شهوتهم العدوانية ، قضاء على قيم الانسانية ..

والمال أول سلاح ..

به يملكون ، يحتكرون . يسيطرون ..

يتحكمون في المادة الاولية ، ونوع الناتج ،وجهد العامل ..

يسخرون العقول والبطون ..

يشترون الضمائر ويلوون الافكار ..

يخربون المثاليات ..

يثيرون الفتن ويشعلون الحروب ..

وفي نار كل حرب تندلع ، يصنعون من وقودها البشري سبائك من ذهب ، لينشبوا بها حروباً جديدة ..

دورة السلوك اليهودية : مال فتسلط فوقيعة فحرب فمال ، كفلك يدور فيه « جرم ! » عدوانهم بغير توقف ما بقي ليل ونهار كما يدور كوكب سيار !..

حلقة خانقة ، يضعونها في عنق البشرية ثم يطبقونها عليه ، ليعتصروا كل ما بالكيان الانساني من الخير والسلام ويريقوه كدماء ذبيحة يقدمونها قرباناً في هيكل صهيون !..

* * *

ومع ذلك يخالفهم نابليون ..

الكورسيكي القصير ، « ابن ثورة الحرية » ، يبيحهم « حرية » شعب آخر ، ليسفحوا دمها في الهيكل ..

يُقطعهم « شريحة ! » من لحم الامة العربية ..

فقبل أن يبرز الى الوجود وعد « بلفور » الانجليزي ابن الاستعمار بأكثر من مائة عام ، يعدهم القائد الصغير ، الصاعد نجمه الى عرش امبراطور ، أرض « فلسطين » ، وطناً قومياً لشراذمهم ، تتخذ منه بؤرة عدوان ..

ثم يرائيهم ، خضوعاً لإله المال ، فيدعوهم : أبناء الابطال الذين كانت صداقتهم تشرف الامبراطوريات !..

ثم يتباكى عليهم لما ألم بهم من محن الاضطهاد ..

وكانت دعواه عندئذ تومىء الى العرب بأصبع الاتهام !..

* * *

فمن أين جاء هذا الشاب بدعواه ؟..

أمن التاريخ ، وقد رأيناه يدحضها ويدوس كل حرف من حروفها بالاقدام !..

أم من لوثة خيال ؟..

أم من شهوة منهومة بالمال ؟..

الماضي والحاضر يكذبان ما ادعاه ..

ويكذبه أيضاً حديث جولدا مائير رئيسة وزراء اسرائيل مع البابا بول ..

فالاضطهاد عامة ، واضطهـاد اليهود من بينـه ، لم يكن « صناعة ! » عربية ، ولا اسلامية ، في يوم من الايام ..

إنه سلوك لا إنساني ، تأباه إنسانية الإسلام الذي لا تفرق شريعته ، في معاملة الناس ، بين الاديان ، ولا بين الالوان ، ولا بين الاجناس ..

سلوك يناقض ما جبل عليه العرب من سجـايا وشيم تعرف للقرابة حقها وترعى صلة الرحم ، فهم واليهود أبنـاء أخوين : اسماعيل واسحق ولدي نبي الله ابراهيم ..

ولا جدال ، ما دام الواقع يغني عن التدليل ..

* * *

كطائفة ..

كطائفة .. كان اليهود في كل محنة تحيق بهم ،نتيجة لتعصب اوروبا العنصري والديني ، يجدون في الأرض العربيـة ملاذاً ، وفي شعوبها حماة ..

وبعد أن طردهم الصليبيون من بيت المقدس ، أعادهم إليها صلاح الدين حين حررها المسلمون ..

يوم فروا هلعاً من الموت أمام فظائع الاسبان ، كان المغرب العربي ومصر وغيرهما من بلاد الأمة العربية هي التي استقبلتهم بالأمن والحياة ..

عندما كان الغرب يجفوهم ، ويعاملهم كأنهم كلاب ضالة ، كانوا يعيشون في شرقنا الاسلامي كأهله ، بغير تفرقة. يشاركون في النشاط العام ، ويتبوأون أكبر مناصب الدولة ، وأعلى مراتب النفوذ ..

وكانت عقائدهم دائماً مصونة ، وأخبارهم موضع توقير ..

* * *

يرسم لنا « فيليب حتي » في كتابه « تاريخ العرب » صورة من حياتهم في ظل الحكم الإسلامي على عهد الدولة العباسية ..

عن نشاطهم المدني يقول :

« .. .. أكثر من يهودي ، في العاصمة والمقاطعات ، كان يتمتع بوظائف ذات مسؤلية في الحكومة .. .. »

وعن نشاطهم الديني ، وعن معابدهم بمدينة بغداد ، عاصمة الخلافة الإسلامية ، يقول :

« .. .. وكان لليهود ، في بغداد نفسها ، مستعمرة بها عشر مدارس ربانية ، وثلاثة وعشرين كنيساً (معبداً) لليهود. وكان المعبد الرئيسي مزخرفاً بالرخام المختلف الألوان ، ومزداناً بزينة غالية من الذهب والفضة .. .. »

وعن مكانة رئيسهم الديني ، الذي كانت له الولاية على كل يهودي في الدولة .. يقول :

« .. .. كان في بحبوحة من العيش ، يملك الحدائق والمزارع

الغنية . ولقد ظهر ، وهو في طريقه إلى لقاء الخليفة ، في ملابس من الحرير المطرز ، وعلى رأسه عمامة بيضاء تسطع بالجواهر ، ويحيط به ركب من أتباعه الفرسان ، وقد سار في مقدمة الركب مناد يصيح : افسحوا الطريق أمام مولانا ابن داود !.. »

* * *

دائماً هكذا كانت مكانتهم ، على اختلاف العهود ، لا حاجز بينهم وبين بلوغ ما يستطيعه طموح ..

كأمثلة :

« حسداي بن شيروط » كان صاحب الخزانة ، أو وزيرها بلغة عصرنا ، في خلافة عبد الرحمن الناصر ، أثناء أزهى عصور الدولة الأندلسية العربية ..

« منشة » كان نائباً على الشام للخليفة المعز لدين الله ، أعظم خلفاء دولة الفاطميين ..

« موسى بن ميمون » كان الطبيب الخاص للسلطان الناصر صلاح الدين ، بطل الإسلام ..

« يوسف قطاوي » كان وزير المالية بمصر في الربع الأول من هذا القرن العشرين ..

بل قد بلغ من سماحة الحكم الاسلامي معهم أن تغلغلوا في نفوذ الدولة ، وظفروا من جاه مناصبها الرفيعة ومن خيراتها ما أثار النقد واللغط ..

شاعر عربي، في عهد سالف، يندد بما أغرقتهم الدولة فيه من رعاية حملتهم بها فوق أعناق من سواهم من أبناء الأمة ..

يقول في دعابة ساخرة:

« يهود هذا الزمان قد بلغوا
غاية آمالهم وقد ملكوا
العز فيهم، والمال عندهمو
ومنهم المستشار والملك
يا أهل مصر إني نصحت لكم:
تهودوا، فقد تهود الفلك !.. »

* * *

كأفراد ..

كأفراد: كانوا يعاملون بالعدالة الحنون !.. بالعدل الذي يكفل الحقوق، وبالرفق الذي يرتب على المشاعر، لتجنيبهم مجرد الإحساس بأي فرق اجتماعي بينهم وبين المواطنين المسلمين..

وتفيض أسفار التاريخ الاسلامي بروايات عن هذه المعاملة المغرقة في الترفق، والنابعة من العرب، شعباً وحاكمين، عن إيمان صادق بالمساواة الكاملة والإخاء الانساني بينهم وبين بني اسرائيل، بغير تمييز ..

رواية منها، ينقلها لنا « د. علي عبد الواحد وافي » في كتابه: « المساواة في الاسلام »، ترسم لنا صورة من هذا الترفق الكريم ..

تجري على نحو هذا السياق :

اختلف علي بن أبي طالب وأحد اليهود على أمر ، فشكاه اليهودي الى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ..

ومثل الخصمان في مجلس القضاء أمام الأمير ..

والتفت عمر الى اليهودي ، يناديه باسمه ويدعوه ليبسط شكواه ..

ففعل ..

ثم التفت ثانية الى علي يناديه :

« يا أبا الحسن » ..

دعاه بكنيته ، على مألوف عادة العرب في مخاطبة أمثاله من ذوي المكانة أو الرفاق المقربين ..

وسأله رده على الاتهام ..

غير أن ابن أبي طالب تجهم ، وبانت على محياه معالم التبرم والضيق ..

عندئذ قال عمر له :

« أكرهت ، يا أبا الحسن ، أن تمثل مع خصمك اليهودي أمام القضاء ؟.. »

فكان الجواب الذي بادره به علي :

« لا !.. لكنني غضبت لأنك لم تسو بيني وبينه ، فخاطبته باسمه ، وخاطبتني بكنيتي !.. »

فذلك تمييز يأباه ..

ويأباه خلق الاسلام ..

ومع هذا كله يتباكى « نابليون » على ما أحـاق باليهود من اضطهاد، ودعواه تومىء عندئذ الى الأمة العربية بأصبع الاتهام!..

(٦)

١٨٢ م

سانت هيلانة ..

« الامبراطور » في الاسر ..

انهار « العرش » الرفيع العماد ..

اندك « الجبل » الأشم الذي ناطح السحاب ، وخر ترابـاً يختلط بالتراب ..

بهت المجد الذي بز الأمجاد ..

الضابط الكورسيكي القصير ، الذي استطاع طموحه أن يمط قامة ، توشك أن تزيد إلا قليلاً على خمس أقدام ، لترفـع رأسه فوق هام عمالقة العالم الذين ترنم بسيرهم التاريـخ ، امتد قزماً كما كان !..

غربت مفاخر السنين ..

الفتى المغمور الذي مرق بحجمه صعوداً ، في آفاق الحرب والسياسة ، من ضابط ، إلى قائد ، الى قنصل ، الى حاكم متفرد بالسلطة، الى امبراطور ذي عرش وتاج وصولجان، توارى في الظل..

ذهبت الصولة ..

انطفأت الشعلة ..

انتهى نابليون ..

* * *

وينزوي الأسير المقهور ، بغرفة من داره في تلك الجزيرة التي تـكاد تخنقها مياه المحيط ، يمضغ العلقم ..

يتأمل ، أو يجتر ذكرياته ..

دائماً : أحداث أمسه الذي ولى منه ..

أحياناً : فراغ يومه الذي يعيش فيه ..

نادراً : غموض غده الذي لن يلده فجر !..

فالذين يحيون حياته هذه لا غد لهم ..

لأنه لا أمل لهم ..

لأنهم أحياء أموات ..

حين كان بجزيرة « ألبـــا » من خمس سنين ، كان في منفى كالمنفى ، وجزيرة كالجزيرة ..

لكنه كان يشعر أن له « غداً » لن يلبث أن يبزغ فجره..

كان الأمل ما زال حياً في صدره :

دفئاً لقلبه ..

نوراً لعينيه

ويومذاك استطاع ، مرة أخرى ، أن يجد نفسه ..

أن يبرح معتقله ..

أن يبلغ مدينة « كان » ..

وبمن اجتمع له فيها من رجاله الأوفياء الذين عاشوا أمجاده ، زحف على « باريس » واسترد عرشه ..

* * *

غير أن « الأيام المائة » التي استعاد فيها سلطانه ، بعد « ألبا » ، ما لبثت أن أتته بالضياع ..

« واترلو » قضت عليه ..

فضت عنه ثوب الامبراطور ..

ردته إلى المنفى الذي يشغله الآن ..

وها هوذا ، في هذه الجزيرة الملعونة ، سانت هيلانة ، بلا عمل ، ولا أمل ..

لا عمل إلا أن يتأمل ويجتر ذكرياته ..

ولا أمل إلا أن يترفق به القدر ، فيعجل له بالنهاية ..

وإنه ليعجب :

أكتب عليه أن يختم رحلة العمر في جزيرة كما بدأها في جزيرة !..

أن تكون حياته أشبه بكتاب في غلاف : جلدته الأمامية : « كورسيكا » ، وجلدته الخلفية : « سانت هيلانة » !..

* * *

وكانت عينه على الشمس البازغة، وهي تلون الكون بالنور .

وراء هذه الأشعة المنسابة من الأفق الشرقي ، يرى بخيـاله عالم أمله الذي انهار ..

يرى أرض العطور والبخور ..

يرى مملكة الشرق الاسطورية التي منى نفسه أن يبلغ منها مبلغ الاسكندرية ، ويقتعد عرشها وريثـا لرمسيس وكورش والرشيد ..

فلو أنه نجح !..

لو أنه استطاع، بذلك الزي الاسلامي الذي طالما حرص على ارتدائه في المحافل والمجتمعات ، أن ينفذ إلى قلوب الناس !..

لو لقي ما كان يظهر من عطفه على الاسلام الصـدى الذي كان يرجوه !..

لو وسعه أن يتألف المصريين !..

لو فتح « عكا » وجمع في قبضة يده شرق المنطقة العربية : بلاد الشام وبين غربها : أرض النيل !.

لكنها أمنيات ! .

فما أجدت عليه شيئاً مراءاته اليهود ..

لم يفده ذلك الاستجداء في النداء الذي وجهه الى « أبنـاء الأبطال » ورثة فلسطين « الشرعيين ! » ..

لم تُغن عنه عبقريته العسكرية التي أعادت الى الحياة عبقرية « الاسكندر » الأكبر ..

حتى نصره الحربي الحاسم في معركة « الأهرام » لم يستطع أن يجيئه بالاستقرار ..

ها هوذا يرى، على شريط ذكرياته الطويل ، ثورة المصريين كيف تندلع عليه في مصر بكل مكان :

من « الأحمر » الى الصحراء الغربية ..

من « الأبيض » إلى جنادل أسوان ..

لكأنما النيل الهادىء انقلب نهراً من نار !..

لكأنما النسيم الرقيق تحول لإعصار !..

لكأنما الأرض السخية الطيبة التي تلد النضرة والخير والحياة، غدت غضوباً قاسية ، لا تطلع في طريقه سوى الشوك والحنظل والحسرات !..

* * *

ويروح ، وهو بغرفته تلك في سانت هيلانة ، يتابع بخياله شريط الذكريات :

يرى نفسه وهو يجرب مع المصريين العصاة ، المتأبـين على الخضوع له ، أسلوب الإرهاب :

يقتل ويشنق ..

يسجن ويجلد ، وينفي ويشرد ..

يمطر السكان العزل ، في حي « الحسين » وغيره من أحيـاء القاهرة الثائرة ، سيولاً من قنابل مدافعـه المنصوبة فوق تلال المقطم ، وبقلعة صلاح الدين المطلة على المدينة ..

يقحم خيله « الأزهر » الشريف ، منار الاسلام ، — وهو الذي بدا معجباً بالاسلام — لتدوس من في رحاب الله ..

يقابل الكلمة والهمسة بشفرة السلاح ..

ثم يحاول بين الفينة والفينة أن ينتقل من القمع والعنف الى الترفق واللين ، فيلجأ الى المراءاة :

دائماً يؤكد أنه ما أقبل بحملته هذه منوراء البحار إلا رحمة بالمصريين ، وابتغاء تحريرهم من عسف المماليك ..

كثيراً يخطب ود الزعماء ، ويتمسح برجال الدين ..

غالباً يشارك في الاحتفال بالأعياد ..

أحياناً يلبس لباس الشيوخ ..

ومع هذا كله لا تلاينه هذه الأمة العنيدة الحرون !..

الشعب المصري لا ينخدع ولا ينقاد ، بل يناجزه ويناجز جيشه ، بكل ما في يديه من سلاح بدائي : من السيوف ، الى المدي ، إلى الحجارة ، إلى الهراوات ..

والشيوخ والائمة لايكفون عن محاربته بالكلمة والخطبة ، وبالورق والمداد والاقلام ..

والمماليك أيضاً يترصدون له ، ما استطاع منهم راجل أن يمتشق حساماً ، وما استطاع فارس أن يعتلي صهوة جواد ..

* * *

ويستمر الشريط !..

الاعوام الثلاثة التي قضتها الحملة الفرنسية بمصر كانت نقمة على الغزاة ..

لكأنما لعنة الفراغنة لاحقتهم !..

لكأنما « الصل » المصري الذى زان تيجان « مسينا » وأخلافه كان يبصق في وجوههم السم والنار !..

في العام الاول أطفأ هذا الصل السحري شمعة « عرش الشرق » التي أوقدها طموح نابليون ..

في العام الثاني أطفأ شمعة الحياة في جسد خليفته كليبر ..

في العام الثالث أطفأ شمعة أطماع فرنسا في احتلال أرض النيل ..

وحتى عندما حاول الضابط الكورسيكي القصير غزو الشام ..

عندما أراد تطبيق درس التاريخ ، وضم الجبهة الشرقية من المنطقة إلى جبهتها الغربية تحت جناحيه . . .

عندما انطلق – برا بوعده لليهود – على أرض فلسطين ، لاستعادة مملكة داود . . .

حينذاك لاح كأنما اللعنة تصر على تعقبه ..

فما لبثت « عكا » أن ثبتت لحصاره ..

تحدث عبقريته ..

أذلت كبرياءه ..

وما لبث أن ارتد عنها ، وهو خاسىء مقهور ، الى مصر ، ليفر منها الى « باريس » ..

وكان المر في فمه ..

والغيظ ملء قلبه ..

واليأس يغيم عينه ..

والخيبة تحت ثوبه ..

وعلى جبين شرفه العسكري وصمة عار لم تمحها سنوات مجده الغارب ، قد وشمها دم أسراه العرب الذين ذبحهم ذبحاً ، بغير تحرج من خلق أو شرعة قانون ، على أرض « يافا » الحزينة .

* * *

ويعاود الامبراطور الاسير « الاجترار ! » ..

يلوك ماضيه ..

وهل من عمل بقي له، في هذه الجزيرة المعزولة إلا احتلاب ذكرياته !..

فكل شيء ضاع ..

كل عمل ، وكل أمل ..

الصولة والدولة والجبروت ولت ، كما ولى الطموح والخيال والإبداع ..

جهوده لاعلاء علم فرنسا الثلاثي الالوان أتت بنقيض ما أراد ، وهوت به إلى القاع ..

رؤاه الجميلة الوردية عن الشرق الساحر ، ذي العطور والبخور ، والليالي القمراء ، وتكبير المآذن ، وتراث الخلود ، وراقصات المعابد ، وترانيم كهنة آمون ، وموسيقا الدفوف والصنوج ، تهشمت تماماً ، كآنية من خزف رقيق ، سقطت من حالق على الصخور ..

أحلامه العريضة عن حكم ما ضمت الشمس بين قرنيها من ممالك العالم ، كما فعل قديماً ابن مقدونيا الاسكندر ، نسخها أخيراً نهار مصيره الذليل ..

* * *

لكأني به يتساءل :

ألم يغرر بنو اسرائيل بحكومة الديركتوار الفرنسية حين أغروها ـ منخلال رسالة اليهودي الايرلندي « توماس كوريت » إلى « بول باراراس » ـ بغزو مصر ، ووعدوها التأييد بالمال والدسيسة مقابل « الوطن » القومي لليهود ؟..

وكأني به يجيب :

بلى !..

وإن ندمه ليقطر مع الجواب !..

فالاعوام التالية علمته أنهم خدعوا فرنسا وخدعوه ..

وكان « الذهب » الذي يملكونه ، هو « الحية » التي أغوت « حواء » !..

وكان طموحه لامتلاك الشرق خير عون لهم على الاغواء..

وهل كان يضيره لو حقق أطماعه، وملك الشرق، أن «يمن» عليهم بأرض فلسطين وطناً قومياً، وما هي من الفريسة السمينة سوى عظمـــة يلقي بها إلى كلب مسعور !..

لكنه ما لبث، من بعد، أن تبين حقيقـــة الدور الذي أرادوا أن يلعبه، وحقيقة دورهم الذي لعبوه..

كان هو الشرك الذي نصبوه..

وكانوا هم الصيادين !..

بنفوذ أموالهم كانوا يرسمون السياسات، ويتحكمون في الساسة، ويثيرون الاطماع، ويوقعون الفتن، لتندلع نار الحروب..

فالذهب الذي يشعل الحروب لا ينمو إلا في لظى الحروب!.

* * *

بعد فوات الاوان، أدرك أنهم خدعوه وسخّروه..

منذ أكثر من عشر سنين، وهو عندئذ في قمة مجـده فوق العرش الامبراطوري، صحا من غفوتـــه، ليرى كيف كانوا يعملون للسيطرة على بلاده من خلال المال..

إذ ذاك هاله ما رآه..

وقال وهو مبغوت:

« أية معجزة هذه التي جملت أقاليم برمتها من فرنسا رهناً

في يد اليهود وما هم سوى نفر قليل لا يجاوز عددهم ستين ألفاً من السكان !.. »

خدعوه ؟..

كلا ، بل أيضاً خانوه ..

أسفار التاريخ ، وأقلام من تغلغلوا إلى خفايا الامور ، ترسم لنا ما لم يمتد العمر بنابليون المخدوع ليقرأ منه بعينيه كيف يسيطر مال اليهود على النفوس والامور ..

* * *

مثلاً ..

في فرنسا ..

بعد سنين من رقاد « الامبراطور » رقدته الاخيرة في « الانفاليد » :

« فيكتور هيجو » شاعر فرنسا العظيم ، يكتب مخاطباً كل فرنسي في عصره ، عانى من ويلات الحروب :

« أيها الشيخ العجوز ..

أد التحية لهذا السائر أمامك ..

إنه روتشيلد ..

الذي بنى ثروته وأنت تجود بدمائك !.. »

* * *

مثلاً ..

في الولايات المتحدة الامريكية ..

أغنى بلاد العالم . .

الدولة التي يتحكم « الدولار » الذي ارتسمت عليه صورة رئيسها الاول « واشنجتون » ، في مصاير الشعوب . .

بعد قرون من رحيل « نابليون » :

« ويلسون » الرئيس الامريكي ، في الربع الاول من القرن العشرين ، يعبر عن مدى سلطان المال اليهودي في الدولة الكبيرة . .

يقول :

« . . . . من المحال الحصول على اعتماد أو قرض دون معونة « هؤلاء ! » الذين يسيطرون على الصناعة في الولايات المتحدة الأمريكية . . . . »

ويقول :

« كل من يحاول منافستهم . . . . كتب على نفسه الدمار والخراب . . . . »

ويقول :

« . . . . وليس بعسير على متتبع واقع الاقتصاد الأمريكي أن يدرك أن المؤسسة المالية اليهودية العالمية هي التي تسيطر على هذا الاقتصاد ، وتتحكم في حركته ! . . . »

* * *

على أن أقطع ما حز في مشاعر « الامبراطور » الأسير ، أن أولئك اليهود الذين حالفهم ، وشاء إعادة بناء ملكهم ، كانوا هم الذين هدموه . .

ذهبهم كان المعول الذي وضعوه في يد غريمه « ولنجتون » دوق بريطانيا الحديدى ، ليقوض به ملكه الشامخ العريض ..

عن هذا يحدثنا « عودة بطرس عودة » في كتابه « القضية الفلسطينية في الواقع العربي » ، فإذا هو بحديثه يبين لنا كيف « عبأ ! » اليهود ذلك الذهب القاتل – من خلال آل روتشيلد – وهربوه ، بوسائلهم الملتوية ، من لندن الى باريس الى صقلية الى مالطة الى اسبانيا ، ليكون سلاحاً مدمراً في يد « الدوق » يفجر به براكين الهزيمة التي أجهزت على نابليون ..

يقول ، نقلاً عن الكونت كورثي ، في كتابه « آل روتشيلد » :

« .. .. ولولا هذه المساعدة التي قدمتها أسرة روتشيلد للجنرال ولنجتون ، لاضطرت الجيوش البريطانية إلى مغادرة اسبانيا ، ولتحررت فرنسا في القارة الاوروبية من ضغط عسكري كبير .. .. »

وانسحق نابليون ..

* * *

لكأني أيضاً بالأسير المقهور يسائل نفسه ، وهو إذ ذاك يلوك العلقم بكهف ذكرياته ، في سانت هيلانة الجزيرة الملعونة منفاه الأخير :

أكان ثمة بديل لهذا المصير ؟..

أكان بمقدوره أن يغض طرفه ، أثناء الحملة ، عن تقلبات الأحداث في فرنسا فلا يهرع الى باريس ويثبت أقدامه بمصر والشام؟..

ربما نعم .

وربما لا ..

كلاهما افتراض ..

فلو كانت الأولى إذن لتملك مصر ..

ولوحد الشرق في امبراطورية مترامية الأطراف ..

ولتحكم في عالم ذلك الزمان ..

فلعله ، حين يبلغ بتصوره هذا التقدير ، تعصره الحسرة .

لعله يخفض رأسه ، وهو أسيف ، وقد حركت أشجانه الذكريات ..

لعله أن يزوي ما بين عينيه ، ويعقد جبينه ، مستغرقاً في تفكير طويل ..

لكنه ، على أي حال ، يهب إلى قلمه ، وخياله يرحل به بعيداً بعيداً عبر البحر إلى أرض النيل ، ليدون في كراسته مذكراته خلاصة الخواطر التي أفرزتها – من واقع تجربته الحية – تأملاته ..

يكتب :

« .. .. في أعين العرب أجمعين، تتبدى مصر وهي الأرض (الأم) الروحية .. واسطة العقد الطبيعية التي تنتظم الدولة العربية .. .. »

* * *

ويتعمق أحداث القرنين السالفين لعهده في مصر ..

يستلهم تاريخ تلك الأجيال ..

يستخلص الحكمة والعبرة ..

فما يلبث استقراؤه عندئذ أن يصل بـــه إلى « زعيم » من أبناء النيل يجسمه له الخيال ..

زعيم خليق به ، لو آلت الأمور فيها إليه أن يوحد المنطقة كلها في امبراطورية عظيمة ، شاسعة فسيحة ، تشمل مساحـة كبيرة من قارتي آسيا وأفريقيا ، وتضم في نطاقها مصر والبلاد العربية ..

صورة هذه الامبراطورية ، بذهنه وكلماته :

« جزيرة عظيمة » ..

حدودها :

« من المحيط الأطلسي إلى الخليج الفارسي ، ومــع البحر الأبيض ، فالأحمر ، حتى الفرات .. .. »

أما شعبها فوحدته ترسمها :

« خصائصه المميزة ، ودينه ، ولغته ، وتاريخه .. .. »

وكأنما تشتعل عاطفته ، وهو يخط هذه الخواطر في مذكراته ، فينفعل بقدرة مصر الكامنة فيها — التي بها تستطيع تجسيد هذا التصور — انفعالاً لا يملك معه إلا أن يهتف مهيباً بها أن تبادر إلى العمل الناجز لتحقيق رسالتها التي اختارتها لها الأقدار !..

وبعبارة كأنهـا شعر شاعر ،يكتب ذلك العبقري الأسير ، الذي لقبوه « رجل الأقدار »، مترجماً عن إحاسيسه وأفكاره:

« يا مصر !..

هبي !..

انفضي الوسن !..

ردي عنك الرمل الزاحف !..

البحر المتوسط في حاجة إليك ..

العالم مفتقر إلى رسالة الإسلام ، تسمو بأممـه ، وتؤلف بين شعوبه .. .. »

ثم يضيف ، وعين خواطره ما زالت على أرض النيل :

« ألا ما أروع مصر !..

لو أنها نعمت بالحكم الصالح !.. إذن لتجلت لخيـالي دولة عظيمة كدولة سنروستريس والبطالسة .. بيمنى يديها تتكىء على الهند ، وبيسراهما على القارة الأوروبية !.. »

* * *

القسم العاشر :

(١)

١٩٠٧ م

لندن .

بريطانيا العظمى ..

في أفق الجزر العاتية نذر ..

كسف من غيوم المشكلات السياسية تتجمع ..

من ناحية القارة الأوروبية ، يتطلع روح المنافسة في المانيا القيصرية إلى التطاول لشأو السيادة البحرية البريطانية..

وراء البحار ، نزاعات دوليـة تنشب على اقتسام الأراضي المغصوبة ومناطق النفوذ ..

في آسيا وافريقيا ، تهم شعوب المستعمرات الانجليزية أن تبرز رؤوسها من بين لجج الاستبداد الخانق لتلتقط بضعة أنفاس ..

على أطراف الألسن المتمردة ، ضيقاً بحكم القمع والأوضاع المهينة ، في البلاد المقهورة ، تنطلق دعوات التحرر الوطني ، في

همس حانق ، إلى الآذان المشوقة للاستماع ، والعقول المتهيئة للاقتناع ، والصدور المتحفزة للانفجار ..

مشكلات هنا ، ومشكلات هناك ..

نُذر ونُذر ..

* * *

ويشغل الأمر بال كبير القوم في الجزر المتفردة في العالم بطاغوت القوة : « سير هنري كامبل بانرمان » رئيس الوزارة البريطانية وزعيم حزب الأحرار ..

تلوثه هذه المشكلات ، وتهيج في نفسه التوجس ..

تهوله بواكيرها الطالعة بمصير مقلق ، يوشك أن يواجه الامبراطورية الشامخة عن قريب ..

فالدولة العظمى ، التي لا تغيب الشمس عن أملاكها ، أخذت تلوح على ملامحها معالم الشيخوخة ..

تنخر في أوصالها عوامل الوهن والانحلال .. ..

تتهدد حياتها العريضة المرفهة رياح السخط الأفريقية السوداء ، والغضب الآسيوية الصفراء ، لتحطم رخاءها ، وتدك رفاهتها ، وتلقي بصولتها في الظلال ؟..

ويتفكر هنري كامبل بانرمان ..

يسائل نفسه : أما من وسيلة لوقف تحدر هذا السيل المنساب؟..

لرد الكارثة القادمة ؟..

لدرء الخطر المجهول ؟..

لصد المصير المؤذن بالانهيار ؟..

ثم يشحذ ذهنه ..

ثم يستلهم دهاءه السياسي، وكل ملكاته وخبراته الاستعمارية..

وكما هو مألوف عادة أمثاله من دهاة الساسة الانجليز، يعمد رئيس الوزراء إلى هذه المحنة «الخاصة» البريطانية فيلبسها ثوب محنة «عامة» اوروبية !..

وفي الحال، يسرع إلى دعوة دول اوروبا للمشاركة في البحث والدراسة، بلوغاً إلى الحل الأمثل السعيد ..

* * *

فرنسا وبلجيكا وهولندا واسبانيا والبرتغال وإيطاليا شريكات الدولة البريطانية في الاستعمار، ورفيقاتها في استذلال الشعوب الافريقية والآسيوية، واغتصاب مواردها، وامتصاص دمائها قطرة قطرة، تستقبل دعوة بانرمان بالترحيب ..

تلبي رغبته ..

تتقدم للمشاركة في تشخيص الداء ووصف الدواء ..

تجتمع مع داعيها في مؤتمر «اوروبي» عام ..

ويقف «الثعلب» الانجليزي، رئيس الوزراء، وزعيم حزب «الأحرار !» في الاجتماع، يخاطب أولئك المؤتمرين الذين اجتذبهم إلى «وجاره !» ..

بغير حياء يجنح الى الصراحة المفضوحة ..

يقول :

« تقوم الامبراطوريات في العالم ، أيهـــا السادة ، وتنمو وتقوى ، ثم ترسخ وتستقر .. ولكنها لا تلبث أن تتململ ، رويداً رويداً ، وتضمحل وتزول .. إن تاريخ البشرية ليحفل بأشباه هذه الظاهرات .وإنها لسنّة تتكرر ولا تتغير .. .. »

ويضرب لهم الأمثال بمصاير الدول ذات الحضارات العريقة القارية :

« .. .. روما . أثينا .. الهند . الصين .. بابل . آشور .. وقبلها جميعاً مصر الفراعنة .. .. »

ثم يعرج على الحضارة الاوروبية :

« .. .. وها نحن أولاء،وقد وصل بنا الاستعمار الاوروبي الى أعلى ذروة،نرى أوروبا قد راحت تضرب في القدمفتوغل.. القارة شاخت. مواردها نضبت.. فهل من وسيلة لديكم لتجنيبنا خطر انهيار هذا الاستعمار ؟.. هل من سبيـــل ، ولو إلى مجرد إرجاء وقوعه ؟.. .. »

ويطوف بنظرة متمهلة ، فيها تطلع وتوقع ، وفيها لهفـــة وخوف ، وفيها توسل وأمل ، على ذلك الجمع الذييضم خلاصة أساطين القارة المتهاوية من فحول السياســة المتمرسين بأساليب الاستعمار وألاعيب الاستغلال ، ووسائـــل استـنزاف الأمم والشعوب .. ثم يختم خطابه بأن يقول :

« هذا هو واجبكم يا سادة.. وعلى نجاحكم في إنجازه يتوقف الإبقاء على ما نحن فيه من رخاء وسيطرة .. .. »

* * *

الذين شاركوا في مؤتمر « بانرمــان » لبحث محنة الاستعمار الاوروبي ، واستنبــاط الطرق التي تجدد شبــابه ، كانوا ذوي اقتدار ودراية ..

كانوا نخبة ممتازة من الخبراء ..

كانوا على علم راسخ في مختلف المعارف ..

في الحرب والسياسة ..

في الاقتصاد والمال ..

في التجارة والصناعة ..

في الاجتماع والتاريخ ..

في مختلف جوانب العلوم الإنسانية والطبيعية ..

وعندما يقترن العلم بالتجربة تثمر الدراسة ..

وقد أثمرت دراستهم ..

فما أن توفروا على البحث والتمحيص، وعلى التفكير والتأمل، وعلى المقابــلة والاستقراء ، حتى أسفــروا لمندوبي دولهم عن « تقرير » احتوى عصارة المعرفة والخبرة ، فــإذا خلاصته هي تلك « البديهية التاريخية » التي فطن إليها الفكر الغربي منــذ الدعوة الصليبية الأولى التي تنــادت بغزو الشرق العربي المسلم حتى الحملة الفرنسية التي قادها نابليون ..

« البديهية التاريخية » كانت محور التقرير ..

« الشرق العربي » هو آفة الاستعمار ..

هو « الداء » وهو أيضاً « الدواء » !..

يقول التقرير :

« ... الخطر الذي يهدد الاستعمار الاوروبي ، إنما يكمن في « منطقة » البحر الأبيض المتوسط : همزة الوصل التي تربط بين الشرق والغرب .. »

ويحدد بعد تعميم :

« ... إن على شاطىء هذا البحر ، في جنوبه وشرقه ، تعيش أمة لها مواردها الطبيعية الثرية ، ولها نزعاتها الثورية التحررية .... »

ويصف مكمن الوبال :

« ... إنها أمة تتوافر لها كل مقومات التجمع ، والترابط ، والالتئام .. بها وحدة التاريخ ، ووحدة اللغة ، ووحدة الدين ، ووحدة الآمال .... »

فماذا عسى تكون النتيجة لو لأمت هذه الامة صدوعها ، ووحدة صفها ، وجمعت كلمتها ، وعرفت كيف تتسلح بالعلم ، وتنتفع بمنجزات الحضارة الحديثة !؟.

وعلى هذا التساؤل يجيب التقرير :

« إذن لاوقعت بامبراطورياتنا القائمة ، وقضت عليها القضاء المبرم !.. .. »

* * *

حصيلة « صليبيات » ألف عام ، كانت تطل برأسها من بين سطور تقرير بانرمان ..

محاولات أجيال ..

خبرة قرون :

صيحة البابا « أوربان » الثاني في كلير مونت ..

خطاب التهديد الصلف الذي بعث بـه امبراطور المانيـا : « بارباروسا » العجوز إلى الناصر « صلاح الدين » ..

الجهود الجبارة التي بذلت للتسلل عبر الاراضي المصرية إلى الشرق على عهد لويس « القديس » ..

المشروع الذي قدمـه الفيلسوف « ليبنتز » إلى « الملك – الدولة ! » لويس الرابـع عشر لاستعادةمجد الاسكندر بالسيطرة على البلاد الاسلاميةمن خلال اغتصاب مصر،«وكر!»الاسلام..

دعوة « دار جنسون » إلى حلـف مقـدس اوروبي لغزو الاراضي الاسلامية و « تمسيح ! » المسلمين ..

خيال « نابليون » السابح إلى امبراطوريةعربية تسود العالم، تستند زعيمتها مصر ، من خلالهـا ، على اوروبا باليسار وعلى الهند باليمين ..

مؤتمر « برلين » الذي خطـط تمزيق الدولة الاسلاميـــة « العظيمة » وقطعها شرائح وزعها على المؤتمرين !..

كل هذا وغيره كان ، بلا أدنى ريب ، يطل برأسه من بين سطور « التقرير » ..

* * *

وكان لا بد أن تتلاحق الاسئلة والاستفسارات :

كيف يمكن تجديد شباب القارة العجوز ؟..

كيف يستطاع تجنيب « الحضارة ! » الاوروبيـــة مصير الامبراطوريات القارية : أثينـــا وروما .. بابـل وآشور .. الهند والصين .. مصر الفراعين ؟..

كيف يتاح لهـا الاحتفاظ بسيادتها على الدنيـا ، وبقدرتها المستمرة على ابتزاز أبناء الشعوب الافريقيةوالآسيوية المستعبدة مواردهم الثرية السخية لتنعم هي بالرخـاء والرفاهة : تتخم ويجوعوا . تلبس ويتعروا . تصح ويعتلوا ؟..

كيف يسع عنصرها « الابيض » أن يعيش على القمـة ، في الجنة ، ليهوي من عداه إلى الحضيض ، في الجحيم ؟..

ما هو ضمان الرخاء والبقاء ؟..

أين الطريق إلى الاطمئنـان المنشود ، للغد القريب ، والغد البعيد ؟..

ويجيء الجواب :

« البحر المتوسط » هو مفتاح الحل ..

ينقل لنا كتيب « قضية فلسطين » الذي صدر عن مصلحة الاستعلامات المصرية ، بعض نتائج تلك الدراسات الاستعمارية : فيقول :

« .. .. السيطرة على البحر المتوسط .. فهو الشريان الحيوي للاستعمار .. وهو الجسر بين الشرق والغرب ، وملتقى طرق المواصلات في العالم .. ومن يسيطر على شواطئه الجنوبية والشرقية يستطيع التحكم في العالم .. .. »

* * *

كما يشخص تقرير بانرمان « الداء » ، يكشف أيضاً عن « بيت الداء » ..

وكما يصف « الدواء » يبين أيضاً عناصر الدواء ..

ثم يحدد « الجرعات ! » ..

ونستخلص مما نقله الكتيب عن«التقرير»خطوات العلاج ! ..

جرعة :

« استمرار المحافظة على وضع هذه المنطقة ، المجزأة المتأخرة .. »

جرعة :

« .. .. إبقاء شعبها على ما هو عليه من تفكك وجهل .. »

جرعة :

« ... محاربة اتحاد هذه الجماهير ، أو ارتباطها بأي نوع من التلاقي الفكري أو الروحي أو التاريخي .. »

وجرعة :

« ... العمل على فصل الشطر الافريقي من هذه المنطقة عن شطرها الآسيوي .. »

كيف ؟..

السبيل الذي يرسمه التقرير للمؤتمرين بلوغاً لتحقيق الفصل المنشود ، وضماناً لحياة الاستعمار هو إقامة « حاجز » بين الشطرين لا يمكن اجتيازه ، ولا اختراقه .. تماماً كسد يأجوج ومأجوج !..

يحدثنا القرآن الكريم في سورة « الكهف » أن قوماً قالوا لذي القرنين :

« إن يأجوج ومأجوج مفسدون في الارض ، فهل نجعل لك خَرْجاً على أن تجعل بيننا وبينهم سداً ؟.. »

« قال : ما مكني فيه ربي خير ، فأعينوني بقوة أجعل بينكم وبينهم ردماً . آتوني زُبَر الحديد حتى إذا ساوى بين الصدَّفين قال : انفخوا ، حتى إذا جعله ناراً قال : آتوني أفرغ عليه قِطْراً . »

وقام السد : حاجزاً هائلاً بين الفريقين يفصل هؤلاء عن أولئك :

« فما اسطاعوا أن يَظْهروه وما استطاعوا له نقْباً .. »

* * *

مثل هذا قد أراده الغرب أن يكون ..

قد أراده مؤتمر بانرمان ..

قد أرادته الصليبية الجديدة المكتسية ثياب الاستعمار ..

ويحدد « التقرير » هذا السد المرجو ، فإذا هو :

« حاجز بشري !..

حاجز بشري متين غريب ، يغرس في قلب الجسر البري الموصل بين آسيا وافريقيا والرابط بينهما وبين البحر المتوسط ، ليشكل – بموقعه هذا ، وبقربه من قناة السويس – قوة موالية للاستعمار ، معادية لاهل المنطقة .. »

سد من البشر !..

فكرة عجيبة ..

لكنها قديمة ..

عمرها مئات الاعوام ..

فما هي سوى مشروع « صليبي ! » ولد لويسَ القديس قبل ميلاد « بانرمان » بقرون !..

(٢)

١٢٤٥ م

فرنسا ..

لويس يعود إلى مقر ملكه ..

مرارة هزيمته في المنصورة ما زالت على شدقيه ..

الاعوام الاربعة التي قضاها بالاراضي المقدسة بعد افتدائه من الاسر ، لم تخفف لوعته ..

لم تبعد عن ناظريه شبح خيبته ..

لم تهدىء ثائرته ..

كان دائماً يحلم بالثأر ..

وكان دائماً يحلم بالنصر ..

ولكنه كان أيضاً يفكر ..

ومن مزيج حلميه وتفكيره صنع مشروعه الذي اقترحـــه مؤتمر بانرمان ..

فذلك المشروع « الشيطاني » كان من ابتكار « القديس » ..

لويس « التقي » هو الذي ،في القرن الثالث عشر ،«حبـل !» بالحاجز البشري الذي « وضعه ! » الاستعمار الغربي على الأرض العربية ، في القرن العشرين ..

حدث « الحمل » وخيـــال الملك العنصري الموتور يهيء له سحق الاسلام ..

ربما حين تنمر هوسه الديني الشرس لنهش مقدسات الشرق..

ربما حين فغر جشعه السياسي المنهوم فـاه لازدراد خيرات أراضيه ..

ربما وهو يجر أسمال اندحاره العسكري على ثرى المنصورة..

ربما وهو يجتر مرارة هوانه بدار « ابن لقمان » ..

ربما وهو يسمع «واإسلاماه قطز » تهدر صواعق وحممـــاً تمحق جحافل الوثنية في « عين جالوت » ..

ربما يومئذ ، وربما يومذاك ..

لكن « الحمل » كان ، على أي حال ..

« حبَل » لويس بالسد الموعود ..

ثمرة تلاقح الضغينة السوداء والتعصب الأعمى استقرت ، في تلك الآونة ، نطفة خبيثة بأحشائه ..

ثم نبضت علقة ..

ثم تخلقت مضغة ..

ثم تحركت على مراحل تطورها الحيوي لتغدو وليداً يحقق للملك رجاءه : يشفي بغضاءه ، ويشبع خيلاءه ..

* * *

غير أن « المخاض » لم يجىء في أوانه ..

تعسرت الولادة ..

تأخر الوضع ..

قروناً عديدة احتبس الوليد المنتظر في ظلمات المجهول ..
وعندما استدار الزمن ..
وحلت اللحظة الحاسمة ..
واستتم الجنين « شهوره » !..
كانت « القابلة ! » التي انتزعته من رحم « الحبلى ! » المتعسرة الولادة : مؤتمر بانرمان !..

* * *

كهدف رفاقه : أدعياء الصليب ، من سبقوه ومن خلفوه ، كان هدم الإسلام هو هدف لويس ..
وكان الرجل داهية ، واسع الحيلة ..
كان ألمعي التفكير ..
ومن هنا نراه لا يحبس جهده في نهج غيره من قادة الصليبيات ..
إنما يحرص على بلوغ هدفه : سحق الإسلام من أي سبيل ..
من كل سبيل ..
جرب وحاول ..
بادل بين الوسائل ..
غاير بين الأساليب ..
سار أشواطاً شتى ، وطرائق قدداً في المحاولة والتجريب ..

* * *

أولى محاولاته في صراعـــه « المقدس ! » كانت على نفس منوال بني جلدته :

كانت محاولة « تقليدية » ..

كانت حملة « صليبية » كغيرها من الحملات الصليبية ..

كانت حرباً هجومية عسكرية ..

خلالها واجه أهل الإسلام مباشرة ..

حاربهم بنفسه وقومه ..

مشى على أرضهم بخيله ورجله ..

فلما خذلته وسيلته لم يمتثل ..

بل عدل وعدّل .. وغيّر وبدّل ..

* * *

ثم استل من عبرة محاولته الأولى محاولة جديدة ..

لكأنما راجع جعبة حيله ..

لكأنما تساءل :

« لماذا أواجه ؟.. »

« ما لي أقاتل بنفسي وأهلي !.. »

وآثر اجتناب البوار والخسار ..

رأي أن يدفع إلى الحرب بوقود آخر ..

بجنود أُخر ..

بقوم سوى قومه ..

وبدأ يحرك خيوط عدوانه من وراء ستار ..

استعان بمخلب قط يلتقط به الشواء الشهي من النار ..

قاتل المسلمين بشخص غيره ..

أضرمها عليهم حملة « ملحدة ! » وثنية يفترسهم فيها هول « هولاكو » وجحافل التتار ..

وجلس ، آمناً ، ينتظر ..

فلما خذلته وسيلته هذه لم يمتثل ..

بل عدل وعدّل ..

وغير وبدل ..

* * *

وجرب ثالثة ..

هذه المرة كانت محاولته ثمرة تأمل ..

كانت نتاج تفكير عميق وتحليل دقيق ..

لكأني به قد راح يذرع – بذهنه – أفق الأحـــداث على أرض الشرق منذ ولدت فكرة الصليبيات ..

لكأنه أخذ يتابع المقدمات إلى النتائج ..

لكأنه مضى يناقش نفسه ، يسأل ويجيب :

«من أين للمسلمين هذه الصلابة التي تتيح لهم الصمود كالأطواد، جيلاً وراء جيل ، أمام موجات الغزو المدمرة ؟.. »

« من تماسك جبهة العرب » ..

« ومن ذا يحفظ هذه الجبهة أن تنهار ؟.. »

« مصر » ..

ولم يكن هذا جديداً عليه .

منذ استل سيفه ، كان يعلم أن معركة النصر الصليبي المرجو محال أن تدور رحاها ، وتكسب عقباها إلا على أرض النيل . .

كان موقناً أن مفتاح « القدس » ليس في غير « القاهرة » . .

كان مؤمناً كل الإيمـــان أن خضوع الشرق للغرب ، العرب لأوروبا ، الهلال للصليب ، رهن بسقوط المدينة ذات الألف مئذنة . .

ولقد حاول أن يحطم مصر ، لتتمزق بتحطيمها وحـــدة العرب ، ليندك بانفصام وحدتهم صرح الاسلام . .

لكن « قوة » مصر هي التي حطمته . .

فلعله عندئذ فكر :

« أثمة خطأ في استقرائه ؟ . . »

« أم ثغرة في بناء منطقه ؟ . . »

* * *

كلا ، لم يخطىء ! . .

بل هو لم يحسن اختيار الوسيلة . .

وإذا كان قد فشل من قبــل ، فلن يفشل من بعد ، لأن جعبة « الحاوي ! » البارع لا يمكن أن تخلو من حيلة ! . .

وبرق في ذهنه الألمعي الشعاع الذي هـداه للطريق المؤدي إلى الغاية . .

وكان وليد أسئلة شتى توالت على لوحة خياله :

كانت الأسئلة كأنما تحاسبه !..

كانت تصرخ في وجهه ، باستنكار :

« لماذا تتعجّل النصر !.. »

« لماذا تنطح الجبل فتوهي قرنيك !.. »

« لماذا المواجهة والمغامرة بقتال غير مأمون العواقب !.. »

« لماذا الهجوم على الاسلام بالقوة الحربية من خارج حدوده !. »

« لماذا لا تشنها صليبية سلمية !.. »

« لماذا لا تمزقه وأهله وأرضه من الداخل !.. »

وعندئذ رأى العاهل الداهية طريقه ..

وأبرم عزمه :

« إذن لننخرنّ في صرح الاسلام بأداة لينة « سلمية » نخر سوسة دائبة خفية حتى يتهرأ ويتفتت ويخر حطامـــاً يختلط بالتراب !.. »

* * *

وهب لبلوغ هدف عمره ..

لإرواء غل قلبه ..

لتحقيق حلم آبائه ..

ذلك الورع التقي « العارف بالله ! » نشط إلى هدم دين الله !..

ومن خلاصة تجربته وتجربة أسلافه « الصليبية » ..

وبوحي تعصبه الديني وصلافته العنصرية ..

وبكل دهائه .. وضع خطته ..

ولكن « المبدأ » الذي أقامها عليه :

« ضرب الاسلام من موقع « المصلحة » الأوروبيـة المادية لا من موقع « الحماسة » الدينية العاطفية .. »

وبهذا كان هو رائد الفكر الاستعماري ، وراسم نهجه إلى احتواء الأرض الإسلامية قبل قرون وأجيـــال من مشروع « ليبتنز » وحملة « نابليون »، ومؤتمر « برلين »، وتقرير «بانرمان»..

* * *

ضرب الإسلام كان « استراتييجة » لويس ..

وكانت مسالكه إليها محدّدة ..

واضحة جلية ..

ليست غامضة ، ولا معقدة ..

كانت بضع « لاءات ! » ..

« لا » زعامة قوية تنفرد بقيادة الأمة الاسلامية ..

« لا » وحدة تجمع الشعوب الاسلامية ..

« لا » استقرار يسود الأرض الاسلامية ..

وكانت أدواته التنفيذية مترفقة ..

تسرى على غير مشقة ..

كانت « تسللية ! » ..

مثلاً :

« تغريب الشرق بزرع الفكر الاوروبي في تربة الأذهان العربية .. »

ومن هنا يمكن :

فصل العرب والمسلمين عن تراثهم وماضيهم ..

توهين إيمانهم بقيمهم الروحية والحضارية ، وولائهم للغتهم العربية ..

تنشئة أجيال منهم وشخصيات يسهل تقبلهم للاتجاهات الأوروبية ..

مثلاً :

تغذية الخلاف بين حكام الأقاليم العرب ومناصرة بعضهم على بعض ..

ومن هنا يمكن :

تنمية نزعاتهم الشخصية والاقليمية، وتحطيم النزعة القومية..

إغراقهم في صراعات داخلية وجانبية تشغلهم عن التفرغ للخطر الوافد من الخارج ..

تعويق ظهور زعامة مقتدرة تلم شتات الاقليميات المتنازعة في وحدة مؤلفة شاملة ..

مثلاً :

« إذكاء العنصرية والطائفية والمذهبية .. »

ومن هنا يمكن :

خلق فتن شعوبية تحت ستار الوطنية ..

تفتيت الجبهة الداخلية للوطن الاسلامي العربي ..

اجتذاب عناصر مسيحية مخدوعة لا تلبث أن تصبح بمثابة طابور خاص للصليبية .

وكان السلاح « السري ! » الذي ارتـــأى لويس التاسع استخدامه في الحرب « السلمية ! » لسحق الاسلام هو : « التبشير » ..

* * *

وتعال نعرف شيئاً عن هذا « السلاح » ..

« ابراهيم خليل أحمد » يلقي لنا ، نتيجـة خبرة وتمرس ، بعض الضوء على دور الحركات التبشيرية ..

وابراهيم هذا مصري مسيحي تفقه في المسيحيـــة ، وتعمق لاهوتها ، ودرس التبشير دراسة علمية أكاديمية ، ورسم راعيـاً من رعاة الكنيسة الانجيلية ، وعمل استاذاً بكليـة اللاهوت ، ومارس الأساليب التبشيرية ، دعوة وتطبيقاً ، ممارسة جـادة عملية ، ثم انتهت به دراساته الواعية وتأملاته إلى اعتناق الاسلام ..

عن ميادين نشاط ذلك « السلاح السري » يقول لنـا ، في كتابه : « المستشرقون والمبشرون في العالم العربي والاسلامي » :

« .. ..سلك التبشير طريق التعليم المدرسي في دور الحضانة ورياض الأطفال والمراحل الابتدائية والثانوية للبنين والبنـات على السواء. كما سلك سبيل العمل الخيري الظاهري في المستشفيات

ودور الضيافة والملاجىء للكبار ، ودور اليتامى .. ولم يقصر التبشير في استخدام النشر والطباعة ، وعمل الصحافة في الوصول إلى غايته .. »

وعن ماهيه هذا السلاح وكنهه :

« .. .. والتبشير والاستشراق كلاهما دعامة الاستعمار في مصر والشرق الاسلامي . كلاهما دعوة إلى توهين القيم الاسلامية والغض من اللغة العربية الفصحى ، وتقطيع أواصر القربى بين الشعوب الاسلامية .. .. »

وعن الهدف من وراء استخدامه :

« .. .. تمكين الأوروبي المسيحي من البلاد الاسلامية كما يبدو من أقوال زعماء التبشير والاستشراق وكما لمسته في حياتي الاولى .. .. »

ويضيف ، مع الاستشهاد ببعض ما ورد في كتاب «التبشير والاستعمار » :

« .. .. والتبشير والاستشراق مقدمة أساسية للاستعمار الأوروبي .. وسبب مباشر لتوهين قوة المسلمين .. ولقد كانت الدول الاجنبية تبسط حمايتها على مبشريها في بلاد الشرق لأنها تعدهم حملة لتجارتها وأرائها وثقافتها في تلك البلاد ، بل لقد كان ثم ما هو أعظم من هذا عندها : لقد كان المبشرون يعملون بطرق مختلفة ، كالتعليم مثلاً ، على تهيئة شخصيات شرقية لا تقاوم التسلط الأجنبي .. »

ويؤيد الكاتب ما ذهب إليه من رأي ألهمته إياه دراسته العلمية وممارسته العملية في الحقل التبشيري بأن ينقل لنا أقوال بعض كبار المستشرقين والمبشرين ..

فالمستشرق الالماني « بيكر » يعلل لما يدعيه من عداوة المسيحية للاسلام ، بقوله :

« ان هناك عداء من النصرانية للاسلام بسبب أن الاسلام عندما انتشر في العصور الوسطى أقام سداً منيعاً في وجه « الاستعمار » وانتشار النصرانية .. .. »

والمبشر « لورانس براون » يكشف عن خشية الغرب الدائمة من شبح وحدة الشرق الاسلامي ، بعبارته :

« إذا اتحد المسلمون في امبراطورية عربية ، أمكن أن يصبحوا « لعنة ! » وخطراً على العالم !.. »

ويفصح عن مبعث هذه الخشية فيقول :

« .. .. والخطر الحقيقي كامن في نظام الاسلام ، وفي قدرته على التوسع والاخضاع ، وفي حيويته .. إنه الجدار الوحيد في وجه « الاستعمار » الاوروبي .. .. »

أما المعول القادر على هدم ذلك « الجدار » فإن القس « كالهون سيمون » يرى أنه التبشير ..

بغير تردد ولا مواربة ، يقول :

« الوحدة الاسلامية تجمع آمال الشعوب « السود ! »

وتساعدهم على التخلص من السيطرة الأوروبية .. لذلك كان التبشير عاملاً مهما في كسر شوكتها .. .. »

فالمسألة إذن ليست غيرة مسيحية ، بل نزعة سياسية تلبس مسوحاً كهنوتياً !..

والمبدأ ، على مر الزمن ، وكما رسمه « القديس » هو : ضرب الاسلام من موقع المصلحة الاوروبية الاستعمارية لا من موقع الحماسة العاطفية الدينية ..

* * *

مع هذا الأسلوب الماكر « التسللي » ، وبه أيضاً ، رنا « لويس » إلى إقامة « بؤرة » غربية في قلب الشرق العربي ، تكون مثابة لنشاط الغرب الديني ، ومركزاً لدعوته السياسية ، وقاعدة لقواته الحربية ، ومنطلقاً للوثوب على ما حولها من البلاد الاسلامية ..

وكان ما رنا إليه ..

بعد مئات السنين من المحاولات « الصليبية » الاستعمارية ، ظاهرة وخفية ، أقيمت في قلب الشرق العربي « ركيزة » استعمارية ..

قاعدة عدوانية ..

دولة « مستوردة ! » ..

حاجز بشري معاد لاهل المنطقة ، وافد عليهم من الخارج ، يشطر وحدتهم شطرين ، كأنه اسفين ..

رسمه لويس ..

وصنعه بانرمان ..

ودقه بلفور ..

وكان ثمرة سفاح الاستعمار واليهودية العالمية ، أو الصليبية الاوروبية وصهيون !..

(٣)

١٩٠٩ م

الربيع ..

مدينة القسطنطينية ..

قصر الخلافة الاسلامية ..

« عبد الحميد الثاني » أمير المؤمنين . سلطان البرين،وخاقان البحرين،وسليل آل عثمان،في حجرة مطلةعلىمضيق البسفور ..

الغموض يكسو ملامحه ..

الجمود يملأ جفنيه ..

الصمت شهيقه وزفيره..

الوحدة رفيقه ..

لكأنه تمثال !..

لكأنه وما حوله لوحة مرسومة !..

حتى صفحة الماء الزرقاء في المضيق كانت خرساء هامدة ، فلا صخب موجة ، ولا حركة تيار ، كأن قطعة من السماء هبطت وغطت سطح البسفور ..

كل ما في المكان هدوء وفراغ ووجوم ..
هدوء كالموت ..
فراغ كالتيه ..
وجوم كاللغز المتقوقع على سره ..
أما العاصفة فكانت تعربد في صدر السلطان ..

* * *

ويرمي « عبد الحميد » بنظرة ثاقبة كالشهاب عبر الغرفـة ، وعبر الشرفة ، وعبر الماء ، وعبر الساحل إلى بعيد ..

إلى مرمى تفكيره ..
إلى مدينة الدسيسة ..
الى « سالونيك » ..

وعندئذ يستيقن أن « الفتنة » لن تلبث أن تقع ، كالثمرة الناضجة تسقط من فرعها إن لم تقطفها يد الجاني ..

ويحس ، هو الذي كان كالفولاذ ، أنـه الآن من لحم ودم وأعصاب ! .

للحظة ، كطرفة العين ، يحس بالقلق ينبض بقلبه ..
وبالالم ينخر في صدره ..
وبأشباح المحنة ترقص في خياله ..
فالخطر المقبل من هناك له لون ، وطعم ، ورائحة ..
لون صارخ يعصب عينيه هو حمرة الدم ..

وطعم لاذع يشرق به حلقه هو مرارة الاسف ..

ورائحة نفاذه تزكم خياشيمه هي دخان البارود ..

ولم يكن القلق والالم والاسف التي تعصف بنفسه ، لنفسه ، ولا على نفسه ..

كانت من أجل شعبه وعلى شعبه ..

من أجل الدولة ،وعلى الدولة التي بناها أسلافه بقوة الايمان، ورفعوها فوق كل الدول ، منذ مئات الاعوام ..

من أجل الاسلام ، وعلى الاسلام ..

لكنه لا يلبث أن يدفن أعصابه في الجليد !..

* * *

ويقتحم «الصدر الأعظم» ـ والجزع يترنح بخطواته ـ عليه خلوته ، فلا يكاد يلتفت إليه ..

وفيم التفاته وهو يعرف سر جزعه ؟..

يعلم ما يدور ..

يدرك المصير :

راية التمرد العسكري ترتفع في سالونيك ؟..

فلترتفع !..

الثورة تهم أن تندلع في البلاد ؟..

فلتندلع !

العاصفة توشك أن تقتلع حكمه ؟..

فلتقتلع !..

ويعجب رئيس الوزراء لهذا الجمود الذي يقابل به السلطان الخطر الزاحف ..

فما يشير عليه بشيء ..

لا ينهى ولا يأمر ..

لا يهزه الخبر ..

إنما يرفع إليه وجهاً ساكن الملامح ، كبركة راكـــدة ، ثم يرميه بنظرة ثابتة مدركة كأنما تقول :

« إني أعلم » ..

وعندما يخرج الصدر الأعظم وهو مذهول ، تكون عينــا أمير المؤمنين كعيني ذئب ماكر ، ينفي بواحدة ، ويلمح بواحدة فإذا هو ، كما تحدثنا الأشعار ، نائم يقظان !..

وكانت عينه المفتوحة على مستقر الدسيسة ...

كانت عينه الغافية تغلق جفنيها على الغد الذي يهم أن يسرح عليه الظلام !..

* * *

السلطان كان حقاً يعلم ما لا يعلمه إنسان ..

من البداية إلى النهاية كانت في ذهنه صورة كاملة لما حدث ، ولما يحدث ، ولما سوف تؤول إليه الأمور ..

وهل من جدوى أن يأمر الآن ويشير ؟..

هل من جدوى أن يقاوم العصاة ؟.
أبداً !..
فالعصيان في كل مكان :
في فرق الجيش ..
في دوائر الحكومة ..
في المجلس النيابي : « مجلس المبعوثان » ..

في النفوس، قبل أن يكون سخطاً على الملامح، وصراخاً على الشفاه ، وموتاً على أسنة السلاح ..

كان جمراً كامناً إن هي إلا ساعة ثم ينفض عنه الرماد فتعلو منه ألسنة النار ..

كان سماً سرى في جميع أعضاء ملكه ، لا يبطل أثره بتر عضو ، ولا التداوي بترياق !..

فكل القوى تألبت عليه، وتحالفت لتحطيمه :
الولايات العثمانية المسيحية ..
الحركات العنصرية الانفصالية ..
التشكيلات السرية ..
الأحزاب السياسية التركية ..

ومن وراء أولئك كانت دول أوروبا الاستعمارية المتطلعة ، نهماً وحقداً ، إلى اقتسام تركة « الرجل المريض » هي التي توجه كل هذه « الدمى » على مسرح الأحداث ..

وكانت أصابعها التي تحرك بها خيوط « العرائس » :

السفارات الأجنبية ..

المحافل الماسونية ..

الارساليات التبشيرية ..

وكان الغذاء الذي يحفظ عليها حياتها ، ويجدد طاقتها : ذهب اليهود !..

* * *

يحدثنا « سعيد الأفغاني » في مقال نشرته له مجلة « العربي » الكويتية ، عن الدور الذي لعبته آنذاك الدول الاستعمارية الأوروبية ، وبخاصة روسيا وانجلترا وفرنسا ، فيقول :

« .. .. فدأبت جميعاً على تحريك العناصر المختلفة ومدها بالمعونات السرية لإعلان العصيان كما فعلت في الولايات البلقانية ، وعلى هذا تأسست « أحزاب » مناوئة للسلطان . وكان بعض « اليهود » المتظاهرون بالإسلام على رأس الساعين في الفساد . وانعقدت الاجتماعات السرية في المحافل « الماسونية » المختلفة ، وكان مؤسسو جمعية « الاتحاد والترقي » قد عقدوا اجتماعاتهم الأولى في المحفل الماسوني الإيطالي . وفتحت « السفارات » الأجنبية أبوابها لكل مخطط للعصيان .. وعمل الضباط ذوو « الأصل اليهودي » من أعضاء الجمعية على تخطيط الانقلاب الذي يخلعون به السلطان .. .. »

وعن دور اليهود في هذه المحنة يقول :

« .. .. عملوا في ميدانين : ميدان خارجي بما لهم من نفوذ ومؤسسات وتحكم في الدول الأوروبية .. وميـــدان داخلي في تغذية الروح القومية الانفصالية لعناصر المملكة المختلفة ، من عرب وأكراد وشركس وأرناؤط وأرمن و .. ..وأحـــزاب وجمعيات سرية « زودتها الصهيونية بعقائديات حسنة الظاهر ، ولها في كيان الأمة فعل الديناميت المفجر .. .. »

ويقول وليام لانجر في « موسوعة تاريخ العالم » :

« .. .. وعقد اجتماع في باريس ضم فريقاً من مختلف رجال « تركيا الفتاة » وجماعات من « الثوريين » تم خلاله اتفاقهم على القيام معاً بعمل مشترك ، وتوثيق الصلات بينهم وبين العناصر الساخطة من ضباط الجيش في «جمعية الحرية» والمحافل «الماسونية» بمدينة سالونيك وغيرها من مدن الامبراطورية .. .. »

* * *

« عبد الحميد » كان ، لا ريب ، يدري ما يدور .

وكان ، أيضاً ، يعرف المصير ..

فالأحداث تتجمع وتتواتر ..

تتوالد وتتكاثر ..

السيل ينصبّ ويتحدر ..

الطوفان يفور ويتفجر ..

والسلطان ، حيال هذا الذي يقع ، كمن يحـــاول مغالبة « تنين » هائل ، يعترض طريقه ، ويمنع انطلاقه .. تنين كأنه

جبل يسد المنافذ ، له مائة رأس ، لكل رأس مائــــة لسان تقذف السم واللهب، كلما قطع منها رأساً نبت في مكانه رأسان، بمائتي لسان !..

وكان وحده في الميدان ..

أما الشعب ففي « واد » آخر ..

« العقائديات » المستوردة التي تلقحت بهــا عقول الساخطين والعصاة ، أصابت بعدواها أبناء الأمة ..

أبعدتهم عنه ..

فصلتهم عن الحقائق التي زيفها التغرير ..

كانت « الشعارات » البراقة المزخرفة تتلاطم كالموج ، هذه تكتسح أولئك ، وتلك تكتسح هؤلاء ..

شعار «اللامركزية» والحكم الذاتي،يكتسح أهل الولايات..

شعار « التركيز» وتتريك الأقاليم الموالية يكتسح الأتراك..

شعار « القومية » يكتسح الجنسيات والطوائف العنصرية التابعة ..

شعار « الاستقلال » يكتسح بقــايا الجماعـــات المسيحية الاوروبية الداخلة في نطاق الدولة ..

ومن بين هذه الشعارات كان « الدستور » يسير في المقدمة ، تكاد تترنم باسمه كل الأحزاب والجمعيات والفئات ..

هو الراية التي يلتف حولها جميع المواطنين ..

بل هو « مصباح علاء الدين » !..

هو هذه الأداة « السحرية » التي تحقق كافة الرغبات ..

يوقد مرة فتنتشر « الحرية » .. ويوقـــد أخرى فتسود « العدالة » .. ويوقد ثالثة فتكون « المساواة » .. لا يرد أبـداً مطلباً ، ولا يبخل بتحقيق أمنية ..

على اختلاف الأصول العنصرية ، والنزعات المذهبيـــة ، والميول الحزبية في كافة أنحاء الامبراطورية ، هفت إليه قلوب الرعية ..

فكأني بحوار كهذا يدور ..

إرادة الجماهير تهتف :

« فليكن لنا دستور !.. »

وتغرير الدسيسة يقول :

« السلطان لا يريد .. »

« ولماذا لا يريد ؟.. »

« لأنه طاغية « أحمر ! » يعيش بالظلم وبالدم ويؤثر حـكم الإرهاب والاستبداد !.. .. »

ويصدق الشعب ما يقال ..

* * *

وتستشري الفتنة ، بفعل الدسيسة والمغالطـــات وتزييف الحقائق وإثارة المشاعر ، هنـــا وهناك : في قلب الدولة كما في الأطراف . في تركيا كما في الولايات ..

ويخف « عبد الحميد » إلى تلبية رغبة رعاياه ..
يعلن الدستور ..
وعندما يجتمع نواب الأمة في مجلس المبعوثان ..
ويتقدم الصدر الأعظم إلى المجلس ببرنامج إصلاحي شامل، يكاد يرضي جميع الاتجاهات ..
وتتردد الفرحة في البلاد تفاؤلا ببزوغ فجر عهد جديد، تلتئم فيه الصدوع والجروح ..
عندئذ ينشط « الاتحاد والترقي » إلى العمل ..
وما يمنعه ؟..
الخيوط كلها ـ في تركيا مسرح الأحداث ـ توشك أن تجتمع بين أصابعه ..
دعوته إلى سيادة الوطنية التركية و « تتريك » الشعوب التابعة، تلهب حماسة الأتراك ..
أبواقه « الدعائية » تخدر الجانب الأكبر من الرأي العام في الوطن « الأم » ..
عناصره العسكرية الثورية تكاد تسيطر على الجيش ..
أغلبيته الساحقة تتحكم تماماً في المجلس النيابي ..
فوق هذا كله، كانت السياسة « الأوروبية » أيضاً لا تبخل عليه بالتأييد ..
فالطريق إذن مأمون !..

* * *

ويضرب « الاتحاد والترقي » ضربته ..
يعمل على الاستئثار بالسلطة ..
يشرع في قلب نظام الحكم ..
يسقط الحكومة القائمة ..
يشكل وزارة جديدة على رأسها أحد صنائعه ..
يأمر بعض الفرق العسكرية المتآمرة بالتحرك ..
وتتوالى الأنباء :
العصاة يزحفون ..
يقتحمون العاصمة بغير مقاومة ..
يتجهون إلى القصر ..

لكن « عبد الحميد » كان يتلقى الأنباء ، نبأ وراء نبأ ، كمن لا يعنيه الأمر ..

كمن بلا أعصاب ..

وحين تتراءى له عربات الجيش ، عند حد الأفق ، وهي تقبل بمن أقلت من سلاح وجنود ، لا تطرف عيناه ..

وحين تترامى إليه أصوات بعضهم ، من بعيد ، وهي تتصايح بحقدها على السلطان « الأحمر ! » ، يحس كأنما الصياح ، إذ يلج سمعه ، إنما يختنق في جوف كهف سحيق !..

ويُصبح الناس ، ذلك اليوم في الثلث الأخير من أبريل العام ، والسلطان محصور ..

فالجيش يطبق على القصر ..

والجند يشهرون السلاح ..

وإن هى إلا ساعة ويتفجر البارود وتسيل الدماء ..

ويسرع عندئذ « آمر » الحرس ملهوفاً إلى السلطان يستأذنه أن يقاوم هؤلاء العصاة القادمين إليه بالثورة والموت، ويردهم عنه ..

لكنه لا يكاد يبدأ حديثه حتى يعاجله السلطان :

« لا !.. »

بحزم يقول : لا ..

وهل قصارى المقاومة إلا أن تسيل الدماء من هـذا الفريق ومن ذاك ؟..

أليسوا جميعاً بأتراك ؟..

ويتكرر طلب آمر الحرس، وتتكرر أيضاً « لا » السلطان ..

وعندما يدنو وقع أقدام المغيرين من ساحة القصر الشاهاني ، يقول « عبد الحميد » لصاحب حرسه وابتسامة باهتة ترف على شفتيه :

« إنما يريدونني ولا يريدون سواي . وسيكفيهم قتـــلي أو خلعي !.. »

ثم يردف وهو يشير إلى الآمر بالانصراف :

« لا مقاومة . فالأمة غداً ، يا بني ، في حاجة إلى دمائـكم ودمائهم فيما سيحيق بها من نكبات !.. »

* * *

لكأنما « خليفة » المسلمين من « آل عثمان » يدخل الآن في إهاب سلفه القديم : ثالث الخلفاء الراشدين !..

لكأنه « عثمان بن عفان » يعود إلى الحياة من وراء مئات السنين !..

موقف كالموقف وإن فرقت بينهما الأعصر ، واختلفت الدواعي والأسباب ..

كخليفة كالخليفة ..

وثوار كثوار ..

وحصار كحصار ..

فيوم أحاط الثائرون بعثمان ، في داره بمدينة الرسول ، وسعوا إليه ليقتلوه ، أبى على من أرادوا الدفاع عنه أن يريقوا في سبيل حماية حياته قطرة دم . وأقسم عليهم ملحاً أن يدعوه ومن أرادوه ..

قال لهم إذ ذاك يستحلفهم :

« الله الله !.. أنتم في حل من نصرتي .. فإنما يريدني القوم .. »

وردهم عن مقاومة الخارجين عليه ..

ثم جلس هادئاً ينتظر قدره ..

وها هوذا الآن « عبد الحميد » ، تماماً كسلفه القديم ، يجلس هادئاً ، بتلك الغرفة المطلة على البسفور ، ينتظر قدره !..

(٤)

١٣٢٩ م

الوقت : في ختام الخريف ..

الموقع : مدينة سالونيك ..

بؤرة التآمر التي أشعلت الفتنة ..

المكان : قصر كالسجن ،أو سجن كالقصر ..

وراء الجدران العابسة ، يعيش الامبراطور العثماني في عزلة عن شعبه ،وعن الدنيا كلها ومايصطخب فيهامن أفكار وأحداث.

لا عرش ..

لا صولة ..

لا مجرد كلمة يقولها فيما يدور ..

فقد خلعه ونفاه – كما يقال – « أحرار ! » رعاياه ..

قتلوه روحاً وإرادة ، وحكموا عليه بالحياة !..

* * *

ولم يكن يأسى بمنفاه هذا ، على مصيره ..

لا على نفسه ..

ولا على التاج ..

إنما كان يأسى على أمته التي تترامى إليه الأخبار بما يصيبها على يد « الأحرار » !..

على شعبه الكبير الذي تفترسه « العنصرية التركية » وتمزقه طوائف وقوميات على عداء وخلاف بعد ترابط ووفاق ..

على وطنه الذي يعيش أبناؤه اليوم ، في حكم دعاة الحرية بالأمس ، وأصحاب الانقلاب : رجال « الاتحـــاد والترقي » في ظلام الارهاب : الكمامات على الافواه ، والحراب في الصدور ، والسيوف على الرقاب !..

وكان أيضاً يأسى على جهده الذي ضاع ..

على أمله الذي ظل ينبض في قلبه عمر جيل كامــــل ينتظر لحظة « المخاض » التي يكتمل فيها جنيناً سوياً ليبرز إلى عـالم الحقيقة والنور ..

على « الجامعة الاسلامية » التي رآها بخياله ، وعمل على مدى سنوات حكمه الطويل لتجسيدها « وحدة » تجمـــع في نطاقها كافة من يدينون في الارض بعقيدة « الاسلام » ..

وكان هذا الاتجاه منه لا ريب ، سر نقمة « الاستعمار » ، و « صليبية » أوروبا ، « واليهودية » العالمية ، ورجال « الانقلاب » ..

* * *

يقول كاتب المقال :

« كانت السلطنة حين جلس عبد الحميد على العرش مثقـــلة بالمتاعب ، تواجه أشد الازمات . فشهدت في عهـــده نشاطاً كبيراً .. وأكثر من تقريب العرب وعظمائهـم حتى كانت لهم

كفة مرجحة في الحكم .. وأكثر منهم في ضباطه وحرسه الخاص وموظفي قصوره حتى جلب على نفسه نقمة « العنصريين » من الاتراك .. وكان يحلم بالجامعة « الاسلامية » تحت لواء الخلافة .. وكثيراً ما هدد الدول الاجنبية برفع راية الجهاد التي إذا رفعها وجب على كل مسلم في الارض الانضواء تحتها مجاهداً في سبيل الله .. .. »

وكأنما يشير « جمال الدين الإفغاني » الزعيم الاسلامي الكبير ، إلى « سلاح » الجهاد البتار الذي كان السلطان يشهره في وجه الاطماع الاوروبية ، في كلامه الذي يقول فيه :

« .. .. رأيته يعلم دقائق الامور السياسية ، ومرامي الدول الغربية .. وأعظم ما أدهشني ما أعده من خفي الوسائل وأمضى العوامل كيلا تتفق أوروبا على عمل خطير في الممالك العثمانية . يريها عياناً محسوساً أن تجزئة السلطنة العثمانية لا يمكن إلا بخراب يعم الممالك الاوروبية كلها .. .. »

لكن هذا الذي أعده « عبد الحميد » لتوحيد كلمة المسلمين ، بدد كهباء ..

* * *

ويسرح بذهنه ، ذلك اليوم من الخريف وهو بمنفاه ، في ذكريات ماضيه ..

الى الوراء يعود بنا وبالزمن عدة أعوام ..

الى ما قبل « بانرمان » بنحو ست سنوات ..

يومذاك كان عرشه ما زال ثابت الدعائم ، أو كان يبدو كأنه كذلك ..

كان الهدوء في خواطر الناس ..

وكانت الدسيسة تكمن في الظلام ..

وكان القلق لا يكاد يهز إلا نفسه دون بقية النفوس ..

فالاماني الكبار التي يريد تحقيقها لامته ، كانت في حاجة إلى الى « وقود » لتنضج وتتحول الى أعمال ..

والوقود هو « المال » ..

والديون تكاد تشل نشاط الدولة الاصلاحي وتكبل اقتصادها بالاغلال ..

و « بعثة الحماية الاوروبية » تلح على السلطان بأداء الديون لدولها الدائنة ..

وعندئذ يفتحون أمامه ثغرة للخلاص !..

« هيرتزل » أبو الصهيونية يتقدم إليه بحل سعيد ..

بصفقة تبادل تجاري من نوع جديد :

للسلطان المال ..

مليونان من الجنيهات ..

ثم ارتفع الى عشرين ..

ثم اثنين وثلاثين ..

وفي مقابل هذا العرض « السخي ! » ، يمنح « فلسطين » لليهود..

* * *

يقول هيرتزل :

« مليونان كدفعة أولى لامتلاك فلسطين.. أما الثمانية عشر الباقية ، فتخصص لتحرير تركيا من بعثة الحماية الاوروبية » ..

ثم يقول عن عرضه الاخير للسلطان :

« .. .. أصحابي على استعداد لتغطية الدين.. على أساس ثلاثين .. الى اثنين وثلاثين من الملايين » ..

وكان من بين عروضه أيضاً تمويل بعض المشروعات الحيوية ، وشراء السفن الحربية اللازمة للأسطول ..

وكما تحاول « الصهيونية » إخضاع السلطان لمآربها عن طريق الاغراء ، يحاول « الاستعمار » في نفس الوقت اخضاعه بالاكراه ، وتحاول معهما أيضاً دوائر المال والاعمال ..

انجلترا وروسيا وفرنسا وألمانيا والنمسا تضغط عليه ، بنفوذها الجبار ، ليسلم فلسطين لليهود ..

المصارف والمؤسسات والبورصات المالية الاوروبية تلوح له بإحدى يديها بذهب المعز ، وبالاخرى بسيف الحرمان !..

لكن السلطان لا يستجيب ..

لا يتسلم للإغراء ..

لا يستكين للتهديد ..

لا يبالي بالحرمان ..

وهنا تتحالف عليه كل عوامل الهدم ، لتقويض عرشه ، وإبعاده عن الميدان ..

يقول عودة بطرس عودة :

« .. .. ولما كانت الدولة العثمانية هي المسيطرة على فلسطين..

ولما كان « عبد الحميد » هو العقبة الكبرى التي تقف في الطريق ..

ولما كانت الضغوط بأنواعها لم تنفع في التأثير فيه ..

فقد كان من الطبيعي أن تتجه الحركة الصهيونية إلى محاولة استغلال الثورات والانقلابات ضد الحكم العثماني ، والتغلغل في كافة المجالات والأوساط التي يمكن أن يكون لها تأثير مباشر أو غير مباشر على الحكومة العثمانية .. ونجحت في أن يكون لها نفوذ قوي بعد الانقلاب لدى العناصر الطورانية المتعصبة والحاقدة على القومية العربية .. »

ويقع الانقلاب ..

ويخلع السلطان ..

ويتعاطف رجال الاتحاد والترقي مع أبناء صهيون !..

* * *

ولا عجب في تعاطف هؤلاء السفاحين مع اليهود ..

فالعرق دساس ..

ونفر منهم تسري في عروقهم بقايا دماء عبرية ، وإن هي ظهرت ، من خارجها ، في « لون » الإسلام !..

بل لعلهم ما كانوا ليكتموا أصلهم المدخول ..

بل لقد نموا عن هذا الأصل ، يوم ثاروا ثورتهم ، وزحفوا على القصر الشاهاني ذلك اليوم من ابريل ..

فحين دخلوا على السلطان غرفته ..

وأعلنوه أنهم خلعوه ..

كان الذي حمل إليه قرار الخلع هو عضو الحزب ، اليهودي الأصل : « قره صو » ..

أتلك مصادفة ؟..

أم الإناء ينضح بما فيه !..

* * *

ويكتب عبد الحميد من منفاه إلى صديق له ، هو الشيخ محمود أبو الشامات ، شيخ الطريقة الشاذلية اليشرطية خطاباً خاصاً ، يقول فيه :

« .. .. كأمانة في ذمة التاريخ :

ما تخليت عن الخلافة الإسلامية لسبب غير مضايقات رؤساء جمعية الاتحاد والترقي المعروفة باسم « جون تورك » وتهديداتهم ..

فقد طلب إليّ أولئك الاتحاديون بإصرار وألحوا في الطلب أن أوافق على إنشاء وطن قومي لليهود في الأرض المقدسة :

فلسطين .. لكنني ، برغم إلحاحهم ، رفضت رفضاً قاطعاً ما أرادوني عليه ..

وقد وعدوا أخيراً بتقديم مائة وخمسين مليون ليرة ذهبية انجليزية فأبيت كل الإباء ، وأجبتهم بجزم :

لو جئتموني بملء الأرض ذهباً – لا بمائة وخمسين مليون ليرة – ما قبلت منكم قط .. إني خدمت عقيدة الإسلام والأمة المحمدية أكثر من ثلاثين عاماً دون أن ألوث صحائف آبائي وأجدادي المسلمين ، السلاطين والخلفاء العثمانيين . ولن أقبل أبداً ما تريدون .. .. »

عندئذ توعدوه بالمصير الذي أعدّوه :

الخلع ..

النفي إلى سالونيك ..

فرحب ، راضياً هانئاً ، بالمصير ..

وخلعوه ونفوه ..

ويختم رسالته لصاحبه :

« .. .. وحمدت الله ، وأحمده تعالى أنني أبيت إلصاق العار الأبدي بالدولة العثمانية ، وبالعالم الاسلامي ، فرفضت إقامة دولة يهودية في فلسطين المقدسة .. وأكرر عليه ، سبحانه ، الحمد والثناء .. .. »

ومع هذا ، فلم يغن إباؤه ، الذي كلفه عرشه ، شيئاً عن فلسطين ..

فإن هي إلا بضع سنين حتى تنجح المؤامرة العالمية :

الاستعمار يجسد توصيات تقرير بانرمان ، ويزرع الحاجز البشري الغريب في قلب الأمة العربية ..

بريطانيا تعلن وعد « بلفور » ..

قطعان الذئاب اليهودية تزحف على أرض « الإسراء » !..

الصهيونية تحقق حلمها « الخرافي ! » في الوطن الموعود ، وتفرس قدمها في « مملكة ! » داود ..

وتذهب فلسطين ..

فلقد « ذهب » عبد الحميد !..

(٥)

١٩١٦ م

قبل « ذهاب » عبد الحميد بعامين ..

بعد « بانرمان » بنحو عشرة أعوام ..

أثناء ثورة « التحرير ! » التي أشعلها العرب خلال الحرب العالمية الأولى ، لتطهير أرضهم من الأتراك ، تمهيداً لغلبة الانجليز على الألمان ..

« ماينز تساجن » سكرتير الجنرال « اللنبي » في القدس ، يبعث إلى الحكومة البريطانية بمذكرة يضع فيها النقط على حروف توصيات بانرمان !..

يشيد فيها باليهود :

« يمتازون بولائهم لبريطانيا .. .. »

ويقارن بينهم وبين العرب :

« ذوو حيوية ونشاط ، وأمـــا العرب فيتسمون بالكسل والخمول .. .. »

ويوازن بين انتفاع بلاده بتأييدها أولئك ، وضررهـــا بوجود هؤلاء :

« قوميتان متعارضتان ..

العربية ، تتطور إلى مرحلة المناداة بالسيادة من المحيط الى الخليج ..

أما الصهيونية فلن تضير بريطانيا في شيء ، لأنهـا ستتوسع على حساب العرب !.. »

ثم يمتدح اتجاه بلاده بريطانيا إلى إنشاء « القوة الصديقـة » للاستعمار :

« حكمة بالغة انطلاقها لإقامـــة « الوطن القومي » لليهود في فلسطين .. »

فوق « الجسر » » الذي يصل بين قارتي آسيا وأفريقيا ..

على مقربة من « قناة السويس » ..

في قلب « الأمة العربية » ..

* * *

قبل هذا بنحو عام ..

الوزير « الصهيوني » البريطاني : « هربرت صموئيل » يتقدم

الى الوزارة بمشروع « رسمي » لغرس « الحاجز » واقامة «القوة» تحقيقاً لما أشار به مؤتمر بانرمان ..

أول مرامي هذا المشروع :

« اقطاع أرض القطر العربي : فلسطين، لليهود المشردين.. »

ثاني مراميه :

« تأسيس دولة يهودية في هذا القطر من ثلاثة أو أربعة ملايين من اليهود الأوروبيين تحت الحماية البريطانية .. »

ويقول « هربرت صمويل » :

« هكذا نخلق دولة جديدة موالية لنا بجانب مصر وقناة السويس .. »

* * *

بعد عامين من مشروع الوزير ..

« ثورة ! » العرب المنبعثة من أعماق الجزيرة العربية تتقدم الى الشمال ..

تنظف الأرض أمام حلفائها البريطانيين ..

وعندما تطمئن بريطانيا لوقوع فلسطين – نتيجة للكفاح العربي ! – في قبضة جيوشها الامبراطورية ..

عندئذ يكتب وزير الخارجية الانجليزي : « آرثر جيمس بلفور » الى اليهودي روتشيلد ، « إله » المال :

« عزيزي لورد روتشيلد ..

باسم حكومة جلالة الملك ، يسرني ابلاغكم هـــذا التاريخ الملىء بالعطف على أماني اليهود الصهيونية ، بعد أن تم عرضه على الحكومة واقراره .. .. »

وكانت خلاصة ما جاء بالتصريح :

اهداء فلسطين لليهود ، مع عهد تقطعه بريطانيا على نفسها لمساندتهم ،بكل ما في طاقتها ، ليقيموا على الأرض المهـــداة وطنهم القومي المنشود ..

وببضع كلمات ، يصور لنا « جمال عبــد الناصر » مسلك بريطانيا هذا أصدق تصوير بأوجز تعبير ..

بعد نحو نصف قرن من هــذه المؤامرة الاستعمارية ، يكتب الزعيم العربي في رسالة يبعث بها الى الرئيس الأمريكي : « جون كنيدي » ، معلقاً فيها على « الوعد » وعلى « الواعــد » وعلى « الموعود » .. فيقول :

« .. . بذلك ، أعطى من لا يملك وعداً لمن لا يستحق .. ثم استطاع الاثنان: من لا يملك ومن لا يستحق -بالقوةوالخديعة، أن يسلبا صاحبالحق الشرعي حقهفيما يملكه وفيما يستحقه !..»

* * *

ولا يكاد وعد «لورد آرثر جيمس بلفور » يردد أول أنفاس حياته ، حتى تنزل بالشرق العربي محنة « غربية » جديدة ..

حملة صليبية جديدة ..

صليبية في ثوب آخر .. ليس ثوب « البابا » بـــل ثوب « الحاخام » !..

لا يرسم فرسانها على صدورهم شعـار أسلافهم : « صليب المسيح » ، بل يرسمون « نجمة داود » !..

وأيضاً الرسم بلون الدم !..

وعندئذ تبدأ « شمس » شعب عربي من أبناء المنطقـة في الأفول ..

تبدأ « نجمة » الشراذم اليهودية المشتتة ، في البزوغ ..

وتتهلل الصهيونية ..

بل يتهلل الاستعمار ..

وما الفرق ؟..

أليسا اسمين لمسمى واحد ؟..

بلى ،ولا جدال !..

دكتور « وايزمان » الزعيم الصهيوني الكبير — كما يخـبرنا كتيب « قضية فلسطين » — يقر هذا المفهوم ..

فبعد حديث جرى له مع لورد بلفور ، وزير الخارجيـة البريطانية وصاحب « الوعد » المشئوم ، يقول :

« .. .. وقد أقنعت اللورد بأن ما يسمى الاستعمار ليس الا الصهيونية بعينها !.. »

* * *

فهل كان « اللورد » بحاجة حقاً الى هذا الإقناع ؟..

كلا !..

مـا نراه الا على غرار ساسة بلاده ، وساسـة الغرب الاستعماريين ، حيال هذا المدلول ..

يؤمن ، مثلهم ، بنفس الفكرة ..
يرفع ، مثلهم ، نفس الشعار :
« الاستعمار هو الصهيونية ، والصهيونية هي الاستعمار » ..
« ونستون تشرشل » يؤكد الرأي ، فيكتب في مذكراته ، بصراحة ووضوح :

« .. .. واذا أتيح لنا في حياتنا – وهو ما سيقع حتماً – أن نشهد مولد دولة يهودية ، لا في فلسطين وحدها بل على ضفتي الأردن معاً ، تقوم تحت حماية التاج البريطاني ، وتضم نحواً من ثلاثة ملايين أو أربعة ملايين من اليهود ، فاننا سنشهد وقوع حادث يتفق تمام الاتفاق مع المصالح الحقيقية البريطانية .. »

أما وايزمان فيزيد عن رفيقه صراحة ..

انه يبرز لنا الهدف الأكبر والأقدس لذلك « الثنائي ! » الجهنمي : « الصهيونية – الاستعمار » ، في رسالة يبعث بها الى الصهيوني برانديس ، مستشار الرئيس الأمريكي ويلسون يقول لها :

« ان فلسطين اليهودية ، التي ستخلقها بريطانيا العظمى ، وتساعدها أمريكا ، تعني ضربة مميتة توجه الى السيطرة الاسلامية البروسية التركية على الشرق .. .. »

وقد خلا الميدان من بروسيا ..
وخلا أيضاً من تركيا ..

وانفرد فيه « الثنائي » الجهنمي بالصولة ، ليحكم تسديد الضربة القاتلة الى « الاسلام » !..

القسم الحادي عشر :

(١)

١٨٣٢ م

شتاء العام ..

اشتعلت حرب الاستقلال ..

قوات الجيش المصري العربية تشق طريقها ، عبر الأراضي السورية ، بخطا ثابتة واسعة الذرع ، الى قلب الدولة العثمانية ..

في بضعة أشهر من مخرجها من العريش اندفعت الى خان يونس ، والى غزة ، والى يافا ، والى حيفا ، والى القدس ، والى عكا ، والى دمشق ، والى حمص ، والى بسيلان ..

وخاضتها حرباً طاحنة ..

بكل موقعة غنمت النصر ..

على ربوع الشام رفعت أعلام التحرير العربية ..

ثم عبرت نهر جيحون وسيحون ..

ثم اقتحمت إقليم أدنة ..

ثم توغلت في الأناضول ..

وعندما بلغت بلدة « قونية » كان حيالها من الجيش التركي قوات ضخمة تفوقها ضعفين ، رابطت تتربص بهـا ، في مواقع حصينة على سفوح طوروس ، وفي حماية المستنقعات ..

وكان الضباب يغشى ساحة القتال ..

وكان البرد ، كالذئاب الضواري ، ينهش بأنيابـه الأجسام حتى العظام ..

لكن الجنود السمر ،أبناء النيل الهادىء،والوادي الاخضر ، والدفء اللين لم يبالوا، قليلاً ولا كثيرا صرامة الجبل،ووعورة الجدب ، وقوة الزمهرير ..

فالعرب جميعاً لهم رداء وغطاء !..

والإيمان في قلوبهم أرسخ من الجبل ..

والحرية على أسنة السيوف هي الجنة ذات الجنى والظلال ..

والدماء في عروقهم تصهر الزمهرير ..

وثقتهم في قدرة قائـــدهم العبقري : « ابراهيم » تستعذب الاهوال لتحقق المحال !..

* * *

وعثر العرب في تلك الآونة على كيانهم القومي الذي بعثرته الخلافات ..

بعثت « الوحدة » العربية من وراء القرون ..

فحين سحقت قوات التحرير المصرية المتغلغـــلة في آسيا الصغرى جيوش الاتراك ..

حين استولت على « كوتاهية « وفنيسيا وأزمير ..

حين غدت من « الاستانة » عاصمة العثمانيين على قيد ذراع ..

حينذاك رجع استقلال العرب ..

عادت « الامبراطورية العربية » الى الحياة ..

وكانت حدودها يومئذ تضم مساحات شاسعة من أفريقيا وآسيا تمثل أخطر مناطق العالم، وتشرف على أهم بحاره، تبدأ جنوباً من منابع النيل وتنتهي شمالاً عند مضيق كولك في جبال طوروس، وتنتظم في حدودها السودان ومصر والجزيرة العربية وفلسطين وسوريا ولبنان وأدنة وجزيرة كريت ..

لم يحدث هذا بفعل الظروف ..

ولكنه حدث نتيجة تفكير وتدبير ..

كان ثمرة سياسة مدروسة ..

الى هذا يشير « محمد علي الفتيت » فيقول :

« اتجهت مصر في عهد محمد علي الى تكوين امبراطورية تسودها العنصرية العربية، وتحكمها مبادىء القرآن السامية، وتستوحي، في خطاها نحو آمالها، أمجادها العريقة في كنف الإسلام والعروبة .... »

ويضيف :

ورأى العرب في محمد علي، باعتباره رئيساً لمصر الدولة العربية « ذلك الزعيم القوي الذي يستطيع احياء مجد العرب، واعادة سيرة صلاح الدين الايوبي .... »

ويقول عبد الرحمن الرافعي ، في كتابه : « تاريخ الحركة القومية — عصر محمد علي » في معرض حديثـــه عن مشروع فتح الشام :

« ومن الراجح الذي تؤيده الحوادث ، أن مشروع محمد علي كان يتناول انشاء دولة عربية مستقلة في مصر ، تضم اليها البلاد العربية في افريقيا وآسيا .. .. »

* * *

وتتأكد لنا نية مصر المعقودة على اعادة بناء الصرح العربي الشامخ ، حين نتابع سلوك القائد « ابراهيم » ..

عند « عكا » وقواته المصرية تضرب عندئذ حولها الحصار ، قبل أن تنطلق شمالاً فغرباً لتتوغـل في الاناضول ، سأله بعض قناصل الدول الاجنبية ، وهم يستشفون نواياه :

«الى أي مدى ستصل جيوشك بعد استيلائها على عكا؟..»

فكان الجواب الذي ألقاه :

« الى مدى ما يتكلم الناس اللغة العربية !.. »

وفي طرسوس ، بعد عودته من « كوتاهية » ، دار بينـه وبين البارون « لبوا ليكونت » حديث طويل أفصح بـه عن مشاعره وأفكاره بوضوح ..

وكتب البارون :

« ان ابراهيم باشا يجاهر علناً بأنه ينوي احيـــاء القومية

العربية ، واعطاء العرب حقوقهم ، واسناد المناصب اليهم سواء في الادارة أم في الجيش، وأن يجعل منهم شعباً مستقلاً .. .. »

وكتب :

« .. .. وتتجلى فكرته هذه في منشوراتـــه ومخاطباته لجنوده .. فانه لا يفتأ يذكرهم بمفاخر الامة العربية .. .. »

وكتب :

« .. كان يستخدم اللغة العربية ، ويعد نفسه عربياً .. »

وعندما سمعــه بعض جنوده يطعن في الاتراك وسأله بتلك الصراحة التي طبع عليها القائد رجاله :

« كيف تطعن فيهم وأنت منهم ؟.. »

أجابه على الفور :

« لست تركياً !.. لقد جئت مصر صبياً ، ومنذ ذلك الحين مصرتني شمسها ، وغيرت دمي : وجعلته دماً عربياً .. .. »

تيار عربي دافق ، الى أين وجهته ؟..

* * *

يكتب لورد بالمرستون :

« .. .. تحركات الجيوش المصرية .. تقطع بأن هدف محمد علي هو مد سلطانه ! الى الخليج الفارسي والعراق .. .. »

ويقول بروكسين : مندوب مترنيخ :

« .. .. انه تكوين امبراطورية عربية ..

تشمل في أفريقيا: مصر والنوبة وسنار ودارفور وكردفان ..
وتشمل في آسيا: شبه الجزيرة العربية حتى الخليج الفارسي ..
وتمتد على ضفة الفرات اليمنى لتشمل سوريا بأكملها .. »

ويقول المؤرخ دريو :

« لقد بدأ فعلاً هلال الاسلام الكبير يتـألق .. من المحيط الاطلسي الى المحيط الهندي .. »

* * *

فهل تسكت الدول الاوروبية لهذا التيار ؟..

هل تدع العرب يستعيدون ماضيهم ؟..

هل تملي للاسلام ليسترد أمجاده ؟..

لا !..

هاهو الامر ..

هاهو أن يظهر في المنطقـة ذلك « البطل » الذي حـلم به نابليون ..

هاهو النصر الذي حققه في المنطقـة « محمد علي » على يـد الجيش المصري بقيادة « ابراهيم » ..

هاهو بزوغ شمس « الوحدة العربية » ..

في بضع سنين فكرت ورسمت ودبرت ومارست أساليبها « اللويسية ! » ..

بعثت الى المنطقة بالعملاء والجواسيس ..

دست الدسائس بين الاخوة ..
ألبت العصبيات ..
أوقعت بين الطوائف ..
أثارت النعرات الطائفية ..
بالخديعة والمال أشعلت الفتنة ..
ثم جعلت من السلطان العثماني « محمود الثاني » قفازها الذي يخفي يدها « الصليبية » العدوانية ..
وكان على رأس مؤججي هذه الفتنة والنافخين في نارها : « الانجليز » ..

* * *

في « مشهد* العيان بحوادث سوريا ولبنان » للدكتور ميخائيل مشاقة ، الكاتب المعاصر للحقبة ، يقص المؤلف علينا كيف دفعت انجلترا عميلها « ريتشارد وود » ترجمان سفارتها في لبنان الى إغواء مخدوعين كثيرين من الأمراء وشيوخ العشائر وزعماء الطوائف بالتنكر لإخوانهم المصريين ، والانتفاض على الحكم القائم حتى وقعت الفتنة ، ونشبت الحرب الأهلية في كثير من بلدان الشام ..
ثم يعقب فيقول :
« .. .. ولا مشاحة أن دولة الانجليز – أكثر الدول استعماراً – أوجست خيفة من الدولة المصرية التي مع حداثة

(*) نقلا عن « عصر محمد علي » للرافعي .

نشأتها ، أصبحت في مصاف الدول الراقية .. .. »

ويعلل لهذا الخوف الذي خامر انجلترا بقوله :

« .. .. وكأنها لحظت أن محمد علي باشا يطمع ، بعد ضم البلاد ، في إحياء الدولة العربية القديمة ، وإرجاع دولة اسلامية عربية ، هذا شأنها في تنظيم أحوال الرعية ، قامت على العدل ، فخافت أن تكون (مصر) مزاحمتها في « الاستعمار ! » فرامت مقاومتها . ولذلك أرسلت رجلها (ريتشارد وود) يلقي بذور الشقاق في قلوب الأهالي ، ويوغر صدورهم على الحكومة .. »

* * *

ولم يغال « مشاقة » ..

فقد خفت انجلترا الى تحطيم هذا التيار العربي الجارف ..

تزعمتها حملة صليبية جديدة ..

صليبية عسكرية ..

وصليبية سياسية ..

وانتظمت في صفوفها كبريات الدول الاوروبية الاستعمارية : روسيا . النمسا . بروسيا . وفرنسا أيضاً ..

وكانت تركيا وراء الصفوف !..

ولم يكن الهدف الأول لهذه الصليبية ، إلا نفس الهدف التقليدي القديم : فصل سوريا عن مصر ..

فبهذا الفصل لا تكون قوة عربية ..

وبدون القوة لا تكون وحدة عربية ..

يفصح بالمرستون عن هذا فيقول :

« .. .. لا يمكن أن يستقر السلام في الشرق ما دام (باشا) مصر يسيطر على سوريا !.. »

وكان الدس أفتك أسلحة الحملة ..

إنه الوسيلة لبث الفتنة بين الاخوة ..

لإشعال ثورة داخلية ..

لتصديع الجبهة العربية بأيد عربية !..

والباقي سهل !..

وعندما سألوا الوزير الانجليزي آنذاك ·

« .. .. وأين هي هذه الثورة ؟..

قال بثقة :

« إنها ستشتعل !.. »

واشتعلت فعلاً كما قال ..

فقد نجح « وود » ..

وتمزقت الوحدة العربية الوليدة ..

وأصبح ذلك التيار العربي الدافق ، مجرد ذكرى تلوكها قرناً آخر !..

فمن ذا الذي ينبه الغفلة ، ويوقظ النيام ؟..

(٢)

١٨٦٩ م

افغانستان ..

أخيراً تنطفىء الحرب الأهلية ..

السلاح يخرس لسانه ..

الصراع الدموي على السلطان بين الاخوين الاميرين : « محمد أعظم » و « شير علي » يسدل عليه الستار ..

الثاني – بمعونة الانجليز – ينتصر ويسود ..

الأول يفقد ملكه ، ويفر من البلاد ..

وعلى الأثر يتبدل نظام بنظام ..

تتغير وجوه بوجوه ..

تذهب دولة وتأتي دولة ..

وفيما غار من نجوم الدولة الزائلة ، يفوز نجم « جمال الدين » رئيس وزراء الأمير المخلوع ..

ينهار تحته مقعد الحكم والنفوذ والجاه ..

يهوى الى الضياع ..

* * *

لكنه لا يلبث أن ينهض من القاع ..

يرتفع فوق الحطام ..

يشد قامته ، ويضرب برأسه في السحاب ..

لا يلبث أن يجد نفسه !..

فالنفوس الكبار لا تستكين لضغط النكبات ..

إنما تصقلها المحن ، كما ينصقل الذهب بالنار ..

وعندما نطالع ما ترك لنا « جمال الدين » من آثار ، نجد بينها قوله المأثور :

« الأزمة تلد الهمة » ..

فكأن هذه العبارة كانت شعاره ، وكأنه كان يتخذها نبراساً ، يضيء له الطريق الذي يسير فيه ..

وها هو ذا ، بعد كبوته تلك ، يخلع طيلسان الحاكم ، ويلبس رداء الداعية ..

يرمي « سيف » السلطة ، ويمسك قلم « الحكمة » ..

لقد اهتدى في داخله الى « أستاذ » !..

وكان حقاً « المعلم » الذي افتقد الشرق أمثاله من زمان طويل ..

* * *

ويغادر الرجل أفغانستان : وطنه الصغير ، الى الشرق كله : وطنه الكبير ..

يطوف البلاد ، ويخالط الناس ..

يفتح الجفون المغمضة ..

يحرك الدماء الراكدة في العروق ..

يغرس الحكمة نوراً في العقول ، وعزيمة في الصدور ..

وكانت « العزة » درسه الدائم الذي يلقنه ويلقيه على أهل الشرق أينما كان ..

وحين نزل « الهند » عقب خروجه من السلطة ، صاح فيمن اجتمع له من بينها ، موجهاً خطابه من خلالهم إلى شعبها الكبير ، حاثاً إياه على نقض ذل الاستعمار :

« إنكم ملايين عديدة من البشر . ولو كنتم من الذباب ، لأوشك طنينكم أن يصم آذان الانجليز !.. »

ويمس حديثه مشاعر سامعيه فيبكون ..

لكنه لا يرق لهذه الدموع التي تفيض بها قلوبهم المقهورة حسرة على ما هم فيه من تخلف وانكسار، بل يزيد عنفاً وحدّة، ويمعن في الصراحة الجارحة الى أبعد الآماد ..

يقول لسافحي الدموع :

« البكاء للنساء !.. »

ويلومهم على استكانتهم للغاصب المستعمر :

« .. ..لا حياة لقوم لا يستقبلون الموت في سبيل الاستقلال بثغر باسم .. »

* * *

الذي كان يعيبه « جمال الدين الأفغاني » على الهنود ، كان أيضاً يعيبه على غيرهم من بني الشعوب الشرقية الذين خضعوا للغرب ، وآثروا لأنفسهم السلامة في الاستخذاء ..

وفي أحاديثه معهم، خلال جولاته الكثيرة في بلادهم مناضلاً لإحياء الشعور بالكرامة، كان لا يجامل ولا يداهن ..

كان يجترىء عليهم، شعوباً وقادة، بكلام من نار !..

كان يكشف لهم عن « سوآتهم ! » التي يحاولون إخفاءها عن أنفسهم وعن مواطنيهم وراء حجب كثيفة زائفة من « التعقل » أو « الصبر » أو « الافتقار» الى قوة متمثلة في سلاح يكافىء سلاح العدو، أو غير هذه وتلك من التبريرات والمعاذير..

ويشخص لنا هذا الداعية الحكيم الداء القتال الذي انتاب الشرق : عربيه وأعجميه، ورمى به في ركب الحضارة لا إلى ما وراء الصفوف، بل تحت الأقدام !..

يقول :

« الشرق !.. لقد أمعنت فكري في تشخيص دائه .. .. فوجدت أقتل أدوائه وما يعترض سبيل توحيد الكلمة فيه : داء انقسام أهليه، وتشتت آرائهم، واختلافهم على الاتحاد، واتحادهم على الاختلاف !.. فقد اتفقوا على ألا يتفقوا .. .. »

وتلك هي الظاهرة التي يستغلها الاستعمار ..

* * *

ويمضي « جمال الدين » في رحلة التبشير ..

حيثما كان يمضي من مكان لمكان ..

بدعوته كان ينطلق : سريعاً سريعاً كأنه ذرع خطواته

فراسخ ،خفيفاً خفيفاً كأن جسده شعاع نور!.. لا يكاد الناس يرونه بأرض حتى يروه بأخرى على مبعدة آلاف الأميال..

كان كالهواء، لا تحول دون انسيابه من هنا الى هناك، ومن هناك الى هنا، تلك الحدود التي تفصل بين الأقطار..

من وطنه الشرقي: أفغانستان، خف الى أوطانه الأخرى الشرقية.. الى الهند، الى مصر، الى تركيا، الى مصر مرة أخرى، الى الهند ثانية، الى ايران، حتى حان أن ينتهي به المطاف في الأرض التركية بقبر مهجور..

بل طاف أيضاً بلاد الغرب، فنزل فرنسا وانجلترا وروسيا، يحرك من هناك خيوط دعوته، ويستعدي شعوب هذه الدول على حكامها الذين ما يفتأون يغتالون حقوق أمم الشرق في الحياة الكريمة، ويركبونها بذل الاستعمار..

وأينما نطق كلمة، أو سل قلماً، كان هم كل حرف من ألفاظه أن ينفخ في روح بني الشرق المتخاذل، ليحيي في قلوبهم العزة، إذ هي مفتاح الحرية..

وكان يقسو على هؤلاء النيام، وهو يستخرج لهم ما قد انطوت عليه حياتهم من العلل النفسية والاجتماعية، قسوة جراح بارع لا ترده عن عمله عاطفة، ومبضعه الحاد يفصل قطعة موبوءة من لحم مريضه ليشفيه!..

* * *

ويلنقل بنا دكتور عثمان أمين ، بكتابه : « رواد الوعي الانساني في الشرق الاسلامي » في فلسفة جمال الدين من ناحية الى ناحية حتى لنراها كأنما وكلت بإعادة « صياغة ! » الانسان الشرقي خلقاً آخر ، أو يبعث ماضيه المجيد من جديد ..

ومن خلال سطور هذا الكتاب ، نسمع صوت جمال الدين عالياً ، وهو يثور بالفلاح المصري ، ويحضه على أن يثور ..

يقول الفيلسوف للفلاح :

« أنت تشق قلب الأرض لتنبت ما تسد به الرمق وتقيم أود العيال .. فلم لا تشق قلب ظالمك !.. لماذا لا تشق قلب الذين يأكلون ثمرة أتعابك !.. »

ويعلق صاحب الكتاب :

« بهذه الجرأة كان جمال الدين يخطب ويتكلم. وكان لكلامه أثر عميق في إيقاظ الناس ، وتنبيه المحكومين الى حقوقهم قبل الحاكمين ، فاتجه الناس الى نقد تصرفات أصحاب السلطان ، وأخذت تضاءل عقيدة سيادة الحاكم وحقه المطلق في التصرف في شؤون الرعية . . .. »

وكما عنف جمال الدين الهنود ، نسمعه يعنف أقسى العنف بالمصريين ، وهو يدفعهم للثورة على ما هم فيه . .

يقول لهم :

« لو كان في عروقكم دم ينبض ، وفي رؤوسكم أعصاب

تتأثر فتبعث النخوة والحمية لما رضيتم بهذا الذل ، ولما قعدتم على الرمضاء ، وأنتم تضحكون .. .. »

ولم يُعف جمال الدين حكام الشرق وزعماءه من نقده المرير. بل قد أسند لهم عار تأخر بلادهم ، وسر تخلفها ، وسبب ما أحاق بها من تمزق وويلات ، وراح يرميهم بتهمة « الخيانة » وهو يجلدهم بلسانه كما تجلد العبيد الأذلاء بالسياط !..

يحدثنا الدكتور :

« .. ويندد الأفغاني بالكثيرين من الشرقيين الذين يخونون أوطانهم ، ويختارون موالاة الأجنبي ، ويرضون أن يكونوا أعواناً له على امتلاك بلادهم ، قانعين من ذلك كله بألقاب الإمارة والسلطنة ومظاهر الفخفخة .. »

أما جمال الدين فيرى آفة الشرق في أولئك الزعماء الذين يؤثرون إغماض عيونهم عما يحيق ببلاد شقيقة يدهمها غاصب فلا يحركون ساكناً ، وكأنما شعار كل واحد منهم : « نفسي ، ومن بعدي الطوفان ! » ..

يصفهم فيقول :

« .. يرى الأمير أو الزعيم الشرقي هذا في أرض جاره ، فيظن النازلة خاصة بغيره ؛ فيلهو عنها .. مثل الشرقيين في ذلك مثل الأغنام تساق الى الذبح ، واحداً بعد واحد ، حتى تفنى ، وسائر القطيع في غفلة عما يجري .. »

وصدق ..

ألا ما أحوج شرقنا العربي اليوم الى مثل هذا اللسان المتجرد لقول الحق كالسيف المسلول !..

ما أحوجه الى الدعوة الجريئة !..

الى النقد الحر ..

الى الرأي الشجاع ..

الى « جمال الدين » جديد ..

فهل عقمت الأمهات ؟..

لكم كان لنا، قبل يومنا هذا، أنماط عدة من «جمال الدين»؟..

(٣)

٢١٧ هـ

مصر ..

لفرما ..

القلق في النفوس ..

الثورة تجتاح « الوجه البحري » ..

الشعب الساخط : عربية وقبطية ، في هذه المنطقة من أرض النيل ، يغضب لحقه ، ويطرد العمال المستبدين ، ثم يدفع به حنقه الملتهب الى أن يتمرد على الحكم ، ويخلع طاعة الخليفة العباسي : المأمون ..

الأنباء تهز « بغداد » عاصمة الاسلام ..

أمير المؤمنين : المأمون بن الرشيد ، يقبل على عجل ، الى مهد الفتنة ، ليتدارك بنفسه الأمر ..

عند الحدود الشرقية ، في « الفرما » ، يخف الى استقباله واليه على مصر : « عيسى بن منصور » ..

وتخف أيضاً وفود من الساخطين ترفع اليه شكواها من سوء سيرة عماله ..

فما يكاد يسمع من الناس ، حتى ينفجر في وجه واليه :

« لم يكن هذا الحدث العظيم إلا عن فعلك وفعل عمالك !.. حملتم الناس ما لا يطيقون ، وكتمتموني الخبر حتى تفاقم الأمر واضطربت البلاد .. .. »

ويأمر بتقصي الحقيقة ..

* * *

لكن « الحقيقة » لها في كل وقت أعداء ..

وكما هي دائماً عادة رجال الحاشية – إلا القليل – في كل بلاط ، وحول كل رئيس دولة ، عمدت حاشية المأمون الى التمويه ، خوفاً من خطأ أعوانها أن ينكشف ، ومن نفوذها هي أن يزول ..

على الأثر يبادر « الفضل بن مروان » وزير الخليفة ، فيدس رجالاً من صنائعه بين الشاكين ، يثنون أطيب الثناء على العمال المطرودين ، مؤكدين عنت الثوار ..

وتتعارض الشهادات ..

وتكاد الحقيقة تضيع في جدال بلا نهاية بين الفريقين ، لولا أن يصيح أحد الشاكين بالوزير :

« سل الحارث بن مسكين !.. »

قال الوزير :

« الحارث ؟.. ما لهذا أحضرناه .. »

كان الوزير قد دعا « الحارث » ليسند اليه منصب القضاء بمصر ..

وألح الشاكي ، وألحف في الالحاح ..

هنا التفت الوزير الى « الحارث بن مسكين» يطلب شهادته ، وإنه ليكاد يوقن انه ناصره على ذلك الساخط الملحاح ..

« يا حارث .. ما تقول في ابن أسباط وابن تميم ؟.. »

وكانا أسوأ من تناولتهم الشكاوى من عمال المأمون ..

قال الحارث :

« أعفني من الجواب .. »

« بل تجيب !.. »

« أعفني .. .. »

فأصر الفضل بن مروان على أن يسمع رأيه في العاملين ..

وهل كان لابن مسكين الموعود بالمنصب الكبير إلا أن يجامل واعده ، ويقول ما يرضيه ؟..

وعندئذ قال الحارث :

« هما ظالمان غاشمان !.. »

فماج المسجد بتهليل الشاكين ..

وخزى صنائع الوزير ..

وانفلت هو مبهوتاً الى الخليفة يثيره على الرجل الذي قال الحق دون أن يبالي ببريق منصب ، ولا بصولة نفوذ ..

* * *

قال الفضل بن مروان للمأمون :

« يا أمير المؤمنين .. لقد خشيت على نفسي من ثوران الناس مع الحارث .. .. »

حتى إذا انتهى من نفث ما شاء ،تفكر الخليفة ملياً،وقال:

« علي به !.. »

وجيء بالحارث ليسأله الخليفة عن العاملين، فإذا هو يقول:

« ظالمان غاشمان !.. »

لم يتراجع ..

فناقشه المأمون :

« هل ظلماك في شيء ؟.. »

« لا .. »

« فهل عاملتهما ؟.. »

« لا .. »

« فكيف شهدت عليهما ؟.. »

وحسب المأمون أنه بهذا يصيب الحارث بالحسر . ولكنه فوجىء به يرد عليه بثبات :

« شهدت عليهما كما شهدت أنك أمـير المومنين ولم أرك إلا الساعة .. وكما شهدت أنك غزوت ولم أحضر غزوك !.. »

فكأنما كان هذا الجواب المفحم لطمة أصابت صدغ المأمون وأفقدته توازنه !.. وهل كان يدور بخـــلده أن يجترىء عليه هكذا أحد رعاياه،ويجابهه ،في صراحة خشنة ، بما يلجم فاه؟..

وصاح :

« أخرج !.. أخرج من هذه البلاد فليست لك ببلاد .. ولن تبقى فيها أبداً .. .. »

وأمر به فحبس ، حتى يستقر رأيه على بـــلد خارج مصر ينفيه فيه ..

* * *

وهدأت الثورة في الوجه البحري ..

قمعها المأمون ..

وكأنما رأى ، إذ قضى على الفتنة ، أن النصر يعني الحق ، فأراد أن يخزي الحارث الذي كان يشهد للثوار ..

سأله وهو يسخر :

« ما تقول الآن في ابن تميم وابن أسباط ؟.. »

فلم يغيره اعتزاز الخليفة بانتصاره ، وأجابه بنفس مـا كان عليه في البدء من ثبات :

« ظالمان غاشمان ؟.. »

فزاد ضيقاً وغضباً ، وسأله :

« وما تقول في خروجنا هذا ؟..

كان يعني حربه التي قضت على المتمردين ..

وتفكر الرجل ملياً ..

أيؤيد تلك الحرب التي قضت على قوم أبوا بغي عمال طغاة، فيظلم الحق ليرضي المأمون ؟..

أم يدينها فيغضب صاحب الأمر ثم لا يبوء إلا بأسوأ مآل؟..

واختار الثانية ..

آثر الثبات مع الحق ، وليكن ما يكون !..

لكنه أجاب بقصة ، ربما لا يجهلها المأمون :

قال له :

« يا أمير المؤمنين .. أخبرني عبـد الرحمن بن القاسم ، عن مالك بن أنس ، أن الرشيد كتب الى مالك يسأله عن قتال أهل « دهلك » ، فقال مالك في جوابـه للرشيد : إن كانوا خرجوا بسبب ظلم السلطان فلا يحل قتالهم . وإن كانوا إنمـا شقوا عصا الطاعة فقتالهم حلال ؟.. .. »

وليغضب المأمون ؟..

وليعصف به كيف شاء !..

ولكنه قال الحق بنفس راضية ، وقلب شجاع ..

وعندما أطاح به حنق الخليفة ، قال بهدوء :

« .. .. لما رأيت أنه لا بد لي من الكلام ، كان الحق آثر عندي من غيره .. .. »

نمط قد من جمال الدين !..

فهل لنا اليوم من نمط جديد !..

(٤)

١٩٤٨ م

الشهر : ديسمبر .

الأرض : فلسطين ..

المنطقة : الفالوجة ..

القطاع : عراق المنشية ..

المدافع تهدر ..

الرصاص يتطاير ..

النيران تندلع كحمم البراكين ..

العصابات الصهيونية الإرهابية — التي انقلبت دولة من بضعة أشهر ، بفعل التآمر الاستعماري على العرب — تطبق الآن على المنطقة ..

تلعب ، بسلاحها الذي زودها بـه العرب ، بمصير القوات العربية ، كما تشاء ..

يندفع بعضها في طريق السيارات الممتـد بين « بير سبع » وقناة السويس ، وتتوغل في « سيناء » ..

الكتيبة السادسة المصرية تعاني أشد العناء بين قسوة الحصار ..

لكنها ، فيما بدا ، لا تكاد تحفل بسياج الهول الملتف بهـا كحبل المشنقة حول عنق مخنوق ليغتصب منه الحياة ..

فما الموت ؟..

في مثل هذه المحنة الملمة بالكتيبة ، لا يحسب نضـال رجال بحساب الأرقام ..

لا بعدد المحاربين الذين يحمون الموقع

لا بكمية السلاح ..

لا بالقتلى والجرحى ..

لا باحتمالات النصر والهزيمة ..

إنما تحسب بحساب الشرف !..

بالولاء للعلم !..

بالوفاء للتراب !..

بمقدار الدم الذي ينبغي أن يراق ، ويظل يراق حتى تغسل الأرض من العدوان ، أو يدفن الأبطال حيث هم ، وهم وقوف ،

الرؤوس مرفوعة ، والسلاح في الأيدي ، والأقـــدام مغروسة في الرمال !..

* * *

ويثبت الأبطال ..

ثلاثة أشهر يثبتون حيث كانوا ، مشدودي القامـــات ، لا يتزحزحون قيد شعرة إلى الوراء ، كأنهم قطعة من الأرض التي يطأون ، ولأنهم على الموعد مع البطولة في هذا المكان .

إذ ذاك خاصموا النوم ..

عاشوا مفتوحي الأعين ..

حياتهم كانت نهاراً بلا ليل :

الشمس تضيء دنياهم إلى الغروب .

والقنابل تضيئها إلى الفجر ..

كانوا ، غالباً ، يقتاتون الجوع ..

كثيراً ، يشربون الظمأ ..

دائماً، يصنعون العرق .. يقاسون العناء.. يكابدون الآلام..

لكنهم كانوا ، أيضاً ، يزاولون الابتسام ..

ومن بين الجحور والخنـــادق التي تجمعهم ، يسوحون بين الفينة والفينة ، بالخيال والأمل ، الى الغد ..

إلى النصر ، أو الى الشهادة ..

الى كفاح وراء هذا الكفاح ..

الى الوطن الكبير المتمزق : كيف يتاح لبنيـــه أن يلموا أشلاءه التي بعثرها الطغيان الغربي والتهـاون العربي ، ويضموها بعضها إلى بعض ، ثم ينفخوا فيه ليستيقظ بعد نوم ، ويتحرك بعد جمود ، ويمتلىء بالعزة والقوة والحياة من جديد ..

وعندما راح « جمال » يلقي بنظرة ، ذات يوم من الحصار ، على الاظلال حوله ، كان يرى في حطامها أمته العربية التي مزقها تفرق حكامها واختلافهم . تماماً كما كانت نظرة سميه «الأفغاني» جمال الدين من نحو مائة عام ..

وعندما أخذ يتأمل حالة الجيوش العربية « السبعة ! » التي انتشرت على ساحة المعركة وأوهمها ساسة بلادها أنها تخرج الى « نزهة » تتحرر بعدها فلسطين ، كان يتبين أنها مثل كتيبته إن هي إلا في قبضة حصار شديد فرضه عليها ساسة من أهلها : صنائع وأدوات للاستعمار ..

وعندما كان يتخيل شعوب العرب هي غارقـــة في أحلام التحرير ، كان موقناً أنها فريسة خدعة كبيرة ..

وكتب بعد هذا بسنين قلائل يقول :

« .. ..جيشاً جيشاً : كلها هي أيضاً محاصرة بفعل الظروف التي كانت تحيط بها ، وتحيط بحكوماتها .. كانت جميعاً كقطع شطرنج ، لا قوة لها ولا إرادة .. إلا بقدر مـا تحركها أيدي اللاعبين .. .. »

وكان اللاعبون قوى السيطرة الأجنبيــة التي تحرك حكام هذه الشعوب من خلف ستار ..

* * *

ولم يكن يشغله مصيره ..

كغيره من رفاق السلاح على خط النار ، كان يشغـله مصير الأمة الكبيرة ..

كمثلهم أجمعين كان يخشى أن يحل ، ما كان يقع إذ ذاك في فلسطين ، بمصر . بسوريا . بلبنان . بالحجــاز . بالعراق بأي شعب عربي آخر ، وبكل شعب عربي ، من المحيط للخليج ..

فعداوة الغرب للشرق العربي هي هي ، لا تتغير ..

التاريخ يعيد نفسه ..

« الصليبيات » تتكرر ..

وكان الضابط الصغير المصري : « جمال عبد الناصر » يجتر عندئذ عِبرَ التاريخ ..

كان يعايش مشاعره ، كما يعايش خواطره ..

كان يفكر بصوت عال !..

وكتب في « فلسفة الثورة » عن أحاسيسه أبان ذلك الحصار ، وهو يجول بين الأطلال :

« .. .. وكنت أحس أنني أدافع عن بيتي وعن أولادي .. ولا تعنيني الحدود الموهومة . ..

كان ذلك عندما التقى في تجوالي فوق الأطـــلال المحطمة ببعض أطفال اللاجئين الذين سقطوا في براثن الحصار بعد أن ضربت بيوتهم وضاع كل ما يملكون .. وأذكر بينهم طفلة صغيرة كانت في مثل عمر ابنتي . وكنت أراها وقد خرجت إلى الخطر والرصاص الطائش مندفعة أمام سياط الجوع والبرد تبحث عن لقمة عيش أو خرقة قماش .. .. »

ويستمر في حديثه :

« .. .. وكنت دائماً أقول لنفسي :

قد يحدث هذا لابنتي !.. »

* * *

لابنته ؟..

لابنتي ولابنتك أيضاً !..

لكل ابنة في كل أرض عربية ..

ويقول « جمال » :

« .. .. كنت مؤمناً بأن الذي يحدث لفلسطين كان يمكن أن يحدث ، وما زال احتمال حدوثه قائماً ، لأي بلد في هـــذه المنطقة .. .. »

ولا غرو ..

فالاستعمار يغير اليوم أسلوبه ، ويغير إرهابه ! .

يتوسل باللاسامية ..

يلبس جلد الصهيونية .

ويرسم على صدره « نجمة داود » ..

وكان بالأمس يتوسل بادعائه الدفاع عن المسيحية ..

يلبس ثياباً كهنوتية ..

ويرسم على صدره : « الصليب » ..

ويتساءل ضابط الفالوجة الشاب :

« .. .. ما دامت المنطقة واحدة ، وأحوالها واحدة ، ومشاكلها واحدة ، والعدو واحداً مهما حاول أن يضع على وجهه من أقنعة مختلفة ، فلماذا تتشتت جهودنا ؟.. »

فكيف يمكن أن تتوحد هذه الجهود لتصبح المنطقة قادرة على تفجير طاقاتها الكامنة الضخمة ، وفرض إرادتها حرة على حركة التاريخ ؟..

ومن لها بمن يحقق هذه القدرة وهذه الإرادة ؟..

* * *

في صحراء الفالوجة ، بين طين الخنادق ورطوبة الجحور ، وفي أكناف العزلة والضياع ، وتحت وابل الرصاص والنار ، يجيب « جمال » :

« لست أشك دقيقة في أن كفاحنا الواحد يمكن أن يعود علينا وعلى شعوبنا بكل الذي نريده ونتمناه .. »

ويؤكد بإيمان :

« لسوف أظن دائماً أقول : إننا أقوياء . ولكن الكارثة الكبرى أننا لا ندرك مدى قوتنا .. .. »

ويجمل لنا عناصر القوة التي تملكها شعوب الأمة العربية في ثلاثة :

وحدة الخصائص والمقومات الحضارية ..

الموقع الاستراتيجي الممتاز ..

رصيد البترول ..

ويرسم أيضاً الطريق الذي يجب أن تسير فيه مصر ، وكل دولة من دول هذه المنطقة العربية التي جزأتها الحدود السياسية الوهمية ، فإذا هو طريق من دوائر ثلاث يحيط بعضها ببعض ، كأنما تلتقي في عناق !..

ثلاث دوائر :

دائرة عربية .

ودوائر افريقية ..

ودوائر اسلامية ..

يقول في تساؤل مفحم يتحدى كل انكار :

« أيمكن أن نتجاهل أن هناك دائرة عربية تحيط بنا .. هي منا ونحن منها ، امتزج تاريخنا بتاريخها ، وارتبطت مصالحنا بمصالحها ، حقيقة وليس مجرد كلام ؟..

أيمكن أن نتجاهل أن هناك قارة افريقية شاء لنا القدر

أن نكون فيها ، وشاء أيضاً أن يكون فيهاصراع مروع حول مستقبلها، سوف تكون آثاره لنا أو علينا سواء أردنا أو لم نرد؟..

أيمكن أن نتجاهل أن هناك عالماً اسلامياً ، تجمعنا وإياه روابط لا تقر بها العقيدة الدينية فحسب ، وإنما تشدها حقائق التاريخ ؟... »

* * *

طاقات هائلة مكنونة ..

وجهاز ضخم مفكك الأجزاء ..

فهل من « يد » بارعة تستطيع أن تجمع بين هذه الأجزاء ، وتقيم الجهاز، ثم تديره كما ينبغي أن يدار ليفجر هذه الطاقات؟..

قبل ميلاد « جمال » بقرن وربع قرن ، يكتب « رجل الأقدار » : نابليون – ومصر يومئذ في يد الدولة العثمانية – متحدثاً عن قدر المنطقة الكامن في الغيب ، وعن قدرتها على فرض إرادتها على مسيرة التاريخ ، فإذا خلاصة ما يقول :

« .. .. ستكون مصر مرهوبة الجانب حين يتولى حكمها « باشا » من أبنائها. ستحصل على استقلالها .. وستقيم – يقيناً – امبراطورية عربية . تتألف من أمة متميزة بآمالها وعقليتها وتاريخها ولغتها .. وتمتد من المحيط الى الخليج .. .. »

ويقول جمال :

« .. .. ان ظروف التاريخ .. مليئة بأدوار البطولة المجيدة

التي لم تجد بعد الأبطال الذين يقومون بها على مسرحه.. ولست أدري لماذا يخيل الي دائماً أن في هذه المنطقـــة التي نعيش فيها دوراً هائماً على وجهه يبحث عن « البطل » الذي يقوم به . ثم لست أدري لماذا يخيل الي ان هذا الدور الذي أرهقه التجوال في المنطقة الواسعة الممتدة في كل مكان حولنا ، قد استقر به المطاف متعباً منهوك القوى على حدود بلادنا يشير الينا أن نتحرك ، وأن ننهض بالدور ، ونرتدي ملابسه ، فان أحـــداً غيرنا لا يستطيع القيام به .. .. »

فمن البطل المنتظر ؟..

« تمت »

مراجـــع

١ — العهد القديم — التوراة

٢ — العهد الجديد — الانجيل

٤ — تاريخ الأمم والملوك — محمد بن جرير الطبري

١٤ — حياة محمد — د. محمد حسنين هيكل

١٩ — محمد — توفيق الحكيم

١٠ — تاريخ العرب — فيليب حتي (ترجمة محمد مبروك نافع)

١٨ — الناصر صلاح الدين — د. سعيد عاشور

٥ — تاريخ العالم — ف.م. ميلر ترجمة ميخائيل عودة

٣٠ — موسوعة تاريخ العالم — وليم لانجر

٦ — الخلافة قيامها وانهيارها وسقوطها — سير وليم موير

٧ — السيرة الحلبية — علامة رحبان الدين الشافعي

٨ — السيرة النبوية والآثارة المحمدية — السيد أحمد زيني

٩ — مصر والشرط الأدنى القديم — د. نجيب ميخائيل

١١ – الشرق والغرب	محمد علي
٣١ – فلسطين	د. حسين صبري الخولي
٢٠ – التعصب والتسامح بين المسيحية والإسلام	د. محمد الغزالي
٣٠ – ديوان حافظ ابراهيم	حافظ ابراهيم
٢١ – الشوقيات	احمد شوقي
١٢ – موسوعة تاريخ الأقباط	زكي شنودة
٢٣ – تاريخ عمرو بن العاص	د. حسن ابراهيم حسن
٢٢ – المخفى من حياة فلورانس العرب	ترجمة ايلي لوند – وابراهيم العابد
١٣ – مروج الذهب ومعادن الجوهر	المسعودي
٢٤ – الامبراطورية الإسلامية والأماكن المقدسة	د. محمد حسنين هيكل
٢٥ – المستشرقون والمبشرون	ابراهيم خليل احمد
٣٢ – نصوص من الكتب المقدسة	عبد الحميد جودت السحار
٢٦ – شكيب ارسلان	احمد الشرباصي
٢٧ – تاريخ العالم	السير . ا . هاملتون
٢٨ – كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر	عبد الرحمن بن خلدون
٢٩ – بروتوكولات حكماء صهيون	عجاج نويهض

٥٧٠ م الميلاد
٦٢٢ م الهجرة
٦٣٢ م النهاية

تحقيقات ـ ملاحظات

١ الصليبيون وفتح المقدس

قتلوا ٧٠ ألفاً (ابن الأثير)		تاريخ العرب
٦٥ ألفاً (متى)		صفحة ٣٢

٢ مملكة بيت المقدس الصليبية

جودفري (لقب بارون حامي حمى القبر المقدس)
بلدوني الأول (اخو جودفري) توج ملكاً في بيت
بلدوني الثاني (ابن عم بلدوني الأول) .

منشورات مكتبة العرفان

٤٠٠٠	الإمام علي	عبد الفتاح عبد المقصود ١ — ٤ مجلدات
٤٠٠٠	مروج الذهب	المسعودي ١ — ٢ مجلدين
٦٠٠	ديوان الحبوبي	السيد محمد سعيد الحبوبي
١٠٠٠	علم الانسان	الدكتور حسن سعفان
٦٠٠	الشخصية والصحة النفسية	د. عثمان فراخ
٦٠٠	المنطق الصوري	الدكتور البير نادر
٢٥٠	أصل الشيعة وأصولها	محمد حسين كاشف القطاع
٢٥٠	الماسونية منشئة ملك اسرائيل	الشيخ محمد علي الزعنى

كتب ألغاز للأطفال

١٠٠	لغز الميداليات	محمد رفعت
»	لغز المليون ليرة	» »
»	لغز سرقة الآثار	» »
»	لغز الوحش المفترس	» »
»	لغز حادث في طريق الجبل	» »
٢٠٠	٢٣ جاسوسة في مصر	» »

قريباً يصدر للاستاذ عبد الفتاح عبد المقصود

الزهراء أم أبيها

الحسن سيد شباب أهل الجنة

الحسين الشهيد

الفهرس